

من حياة
اهل البيت عليهم السلام

محمد علي التسخيري

هوية الكتاب:

الكتاب :	من حياة أهل البيت <small>عليه السلام</small>
المؤلف :	الشيخ محمد علي التسخيري
الناشر :	المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت <small>عليهم السلام</small>
الطبعة :	الثانية
المطبعة :	بهمن
الكمية :	٢٠٠٠ نسخة
التاريخ :	١٤١٩ هـ
الكمية :	٣٠٠٠ نسخة
صف الحروف :	المجمع العالمي لأهل البيت <small>عليه السلام</small>

جميع حقوق الطبع محفوظة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المجمع

لقد أجمع علماء الاجتماع في كافة الأزمان والعصور على ضرورة وجود الحاكم والقائد الذي يسوس الرعية ويطبق الأحكام التي من شأنها حفظ كيان المجتمع الانساني والسير به إلى ما يجعله مجتمعاً تسوده القوانين والأنظمة. والدين الاسلامي الرسالة الإلهية إلى البشرية هو شريعة الله إلى عباده وأحكامه التي ينظم بها حياة المجتمع وعلاقاته ويحفظ بها كيان الفرد والمجتمع من الانحراف والضلال والبغي والفساد في الأرض، كما أنه يقود الانسان إلى الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

ولابد لهذا الدين بما فيه من أحكام وقوانين وأنظمة من قيم وحكم وقائد يتولى تطبيق الشريعة وفق الأسس الصحيحة والفهم القائم على الارتباط الوثيق بمصدر التشريع حتى يتسنى للبشرية أن تنعم - ان هي استجابت للأمر - في ظل تلك الأحكام والأنظمة الإلهية المستوعبة لجميع احتياجات البشر والمعالجة لكل مشكلاتهم.

ولقد كان الرسول الأكرم ﷺ يمارس الحاكمية والقيادة للأمة لتنفيذ أطروحة الاسلام الاجتماعية والسياسية في الحكم كما هو شأنه في هداية الأمة في الجوانب العبادية التي تربط الانسان بخالقه وتشده إليه. إذ لا يمكن فصل الموقف السياسي عن باقي المواقف التي وقفها الرسول الأكرم من خلال ممارسة حاكميته وقيادته الفريدة في تاريخ البشرية وهو دور النبوة والرسالة.

وبعد الرسول ﷺ يأتي دور الإمامة والولاية التي هي منصب إلهي يفرضه الشرع ويدهه العقل، لأنه ليس من المعقول أن يترك الله ورسوله أمة للضياع

٦ من حياة أهل البيت عليه السلام

والاختلاف والتمزق والأهواء في اختيار من يشاءون، إذ إنهم عاجزون عن معرفة الأصلح لقيادتهم والاهتداء إلى من تتوفر فيه الخصوصيات والضوابط الإسلامية كما يعرفها الله ورسوله، وهما أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأدرى بما تحتاجه الأمة وبمن تحتاجه «يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت، ولا يعرفني إلا الله وانت، ولا يعرفك إلا الله وأنا».

ومن هذا المنطلق في الفهم جاء الايمان بولاية أهل البيت بعد أن ثبت بالنص المقدس أنهم خلفاء الرسول وولاية أمر الأمة.

والكتاب الذي بين أيدينا دراسة لحياة أهل البيت من جهة كونهم قادة للأمة، كانت حياتهم حياة مثلى أعطت للبشرية نموذجها الأسمى لترسم منهمجهم وتسير على هداهم.

ولكي يكونوا قادة للأمة لابد من توفر مقومات لشخصيتهم القيادية، هذه المقومات هي التي تحقق الاسس المبدئية لكونهم أئمة، ومن خلال دراسة هذه المقومات والمؤهلات يتبين لنا السر الكامن في اختيار الله ورسوله هؤلاء العترة أئمة للأمة وفرض مودتهم وولايتهم عليها.

والمتتبع لفصول الكتاب يجده دراسة فريدة في هذا الباب استدلالية في مطالها، قد بذل كاتبها ساحة العلامة الشيخ محمد علي التسخيري حفظه الله جهداً علمياً هادفاً في بيان مقومات الشخصية القيادية ومنهج دراستها في اطار سيرة أهل البيت عليه السلام وقيادتهم الإسلامية كاشفاً بذلك حجم الانحراف عن المنهج المنطقي الصحيح في البحث العقائدي والتاريخي من قبل البعض لسيرة أهل البيت عليه السلام ومنهجهم في قيادة الأمة على خطى الرسول الكريم ﷺ.

المعاونة الثقافية للمجمع العالمي

لأهل البيت عليه السلام

مقدمة

مسيرتان

اذن الله - تعالى - ان ينطلق الانسان في مسيرته المتكاملة مزودا بجوهرة الفكر الغالية، التي لا تقدر بثمن، والتي يستطيع بها ان يتعدى النطاق المادي المحسوس له - بالخصوص في لحظة التفكير - ليعلو على هذا الواقع، فيبصره بصورة ادى.. ثم يعمل على تغييره وتبديله الى الصورة الاكمل.. منتقلا من عالم الفكر التأمل الخالص الى المجالات العملية البناء.. مستغلا ما اودع في فطرته، وتركيبه النفسي، والروحي، والجسمي من طاقات خلاقة، وقوى مبدعة محققا مقتضيات خلافته التي منحها الله تعالى اياه.. فشرفه بها.. وسما به الى مرتبة قد لا يحلم بها الملائكة المقربون احيانا. وانطلق في هذه المسيرة وامامه سرج، ومنايع ضوء.. امامه الهداية العقلية السالفة، والهداية الفطرية الغريزية تؤطرهما جميعاً، وتسدد مفعولهما وتنسق عطاءهما مع الواقع.. الهداية الالهية.

وتكون المجتمع الاول، وامتد شيئا فشيئا.. واتسعت علاقته، وبدرت ظواهره... ثم بدأ الضعف يدب قليلا قليلا في اعماقه، ينهش في الفطرة، ويعكر صفوها، ويساعده الجهل، ومهد لذلك البعد الزمني عن الوحي.. وهكذا وضحت على مسرح الحياة.. مسيرتان:

احدهما: تتجلى فيها معطيات الهداية.

والاخرى: تتجلى فيها - رويدا رويدا - معالم الانحراف والتراجع الانساني عن الشوط الفطري الخلافي الفترض.

٨ من حياة أهل البيت عليه السلام

وكان لابد من ان ينجم الصراع، وتلتحم المسيرتان في معركة لا هوادة فيها. كل ترى في الاخرى عقبة كأداء.

المسيرة المتكاملة ترى الاخرى اشواكا زرعت على طريق التكامل وتلك تنظرها - على العكس - مسيرة وهمية تقضي على مصالحها... وشهواتها.. وتقلل من جشعها.. وتطعن جبروتها بالصميم.

وماج التاريخ بالدموع، والآلام، والضحكات والاحلام، والعزائم المتفجرة واختها المنهارة.. وحفل شريط التاريخ بنجوم لامعة، وشخصيات فذة من جهة، وبوجوه مكفهرة.. يأكلها الجشع.. ويزأر في وجودها المحقد... فتنداح امامها شعوب ويرقص في وجهها السيف، وتداس كرامات وكرامات.

التاريخ.. بحر واناس

وتمثل التاريخ بحرا خضما.. متلاطم الامواج... تموت امامه الحدود.. وتزخر اعماقه بالآلئ والعجائب كما تزخر بالموت.. والظلام والصخور الجوفاء، ووقف على الساحل اناس هناك مختلفون.

فهذا هاجت به الصبابة والوجد.. فخرج من عالمه الضيق المقيت ليرؤح عن نفسه ويناجي الامواج.. ولا يقصد غير الترويح.

وذاك استهوته مناظر الصراع الموجي، والالتطام الارعن فراح يعبر عن صراعه هو بوقفته الشاخصة.

والآخر جاء الى الساحل لاعبا بالحصى متغافلاً، او غافلاً عن كل وجود، في حين قصده آخرون يطلبون صيدا يسدون به جوعة عوائلهم التي تقبع هناك عيوننا تنتظر، ومنى تتوزع على ثقب الشبكة فتلتهم في أية لحظة صيدها الثمين الثمين.

وغاص آخرون... وتحملوا الالهوال والمشاق.. وصارعوا في الاعماق ما
تحملة الاعماق، وطلعوا بلآلى ثرة، ولكنها مفردة لا تفي الا بحاجة جمع معين. اما
الباقون فهم اناس ملأوا وجودهم علما ووعيا.. وشقوا عباب البحر وجابوا
اعماقه ودرسوه شبرا شبرا، واقاموا فيه مختبراتهم.. وخرجوا من بعد ذلك.. وعلى
نفوسهم بهجة البحر وروعته، وجلال العلم وسموه وعندهم صيد الساحل، ولؤلؤ
الاعماق وفوق ذلك خيرات لا تقدر بثمن.. وهكذا التاريخ.. حذو القذة بالقذة.

وقف عليه اناس.. اسميناهم جميعا مؤرخين.. وما فاز بجلال الاسم
وقدسيته الحقيقية الا الواعون، اذ جابوا يطوفون، هدفهم الاسمى.. يشدهم اليه
شدا.. ذلك هو الكشف عن الانسانية السامية التي اشرقت في أي مجال، أو
تجسدت في أي شخص.

وبكشفهم هذا فازوا بكل ما فاز به الآخرون.. وفوق ذلك ما يسمو وحده
على كل حصيلة...

الهدف والقائد

تتطامن الاهداف وتتصاغر امام الهدف الاعلى للانسانية التي تحملت من
اجله كل الوان العذاب، والمصاعب الجمة.. ذلك هو السعادة البشرية او قل: النظام
الاصح الذي يسعد البشرية في مختلف مجالات حياتها الاجتماعية، او الذي يمتلك
طاقات القيادة نحو هذا الهدف الكبير.

وكان سبب الشقاء الوحيد يكمن في ان البشرية لم تستق جوابها في هذا
الصدد على هذا التساؤل الظامئ من منبع الحقيقة... وانما كانت كابن نوح عليه السلام صعد
على جبل عال ليعصمه من الطوفان و ﴿لا عاصم اليوم من امر الله﴾...

فكان عاقبة امرها الضياع، والظلم والحرمان، والدماء المهدورة.. اذ ظنت

١٠ من حياة أهل البيت عليه السلام

انها مستطبعة خلق هذا النظام ولكنها باءت بالفشل الذريع لعوامل كثيرة - لا يسعها مجال الحديث - اهمها ان النظام يحتاج الى الاحاطة اولاً بكل العلائق والاحتياجات الداخلية والخارجية، والى الاحاطة ايضاً بعوامل الاشباع المختلفة.. وفوق ذلك الى عملية خلق التوازن في الاشباع، وطرح الطريقة العادلة له..

في حين لا يمكن للانسان - بعيداً عن هدى السماء - ان يخرج من اطاره الفردي فيطلع على جوانب نفسه العظيمة وما فيها من طاقات واحتياجات، وما تحتاج اليه من عمليات اشباع^(١).. فكيف يحيط بالعلائق الكونية المحيطة والعلائق البشرية المشتركة والخاصة. ليخرج من كل هذا وغيره بنظام اصلح يقيم التوازن، والتلاؤم المطلوب بين كل الاحتياجات...؟

وشاءت العناية الالهية بلطفها ان يهدي الانسان الى نظم كاملة تلائم كل مرحلة من مراحل نمو الانسانية على وجه هذا المهد الدافئ.. الارض الحنون.. فانقذهم من الضياع.. وحدد لهم موقفهم العام من الكون، ومن الحياة، ومن المجتمع ورسم لهم منهجهم العملي في كل سبيل..

وكان لابد لهذه العملية من قادة مربين، وكان الانبياء - اولئك القادة - .

كانوا اناساً على مستوى الهدف يمتلكون طاقات تنعدم عند الآخرين وكان ذلك ضرورياً انطلاقاً من قاعدة - تغافل او غفل عنها الكثير ممن يدعون القيادة الاجتماعية، وهم خلو من مؤهلات التربية - هي ان المؤثر لابد ان يمتلك طاقة وقوة اكبر حتى يستطيع التأثير وكان هذا - بالاضافة لغيره - من بواعث العصمة التي امتاز بها الانبياء وأوصياؤهم باعتبارهم القائمين والمنفذين الاوائل لتلك

(١) راجع كتاب (الانسان ذلك المجهول) لكارل.

الخطط الالهية التي تستهدف اعظم غاية في حياة الانسان.. ولن تجدي هنا بعض المحاولات العقيمة ممن اغرقوا التاريخ بدراسة حرفية لا واقعية، فاستنتجوا جواز الغاء هذا الاشتراط في القائد.

نعم اذا فقد المعصوم لجأنا الى الفئة التي هي اقرب من غيرها اليه.

التجربة الطويلة والقيادة الامتدادية

ولما كان الاسلام هو الحلقة الاخيرة والرسالة الخاتمة التي جاءت في مرحلة النضج البشري تطرح نفسها امام العالم رسالةً الهية تستطيع ان تتجاوز الزمان، والمكان، والمجتمعات وتنظيم البشرية في مختلف اطوارها في مسيرة واحدة، وكل هذا يحتاج الى جهد كبير في مرحلة يسود فيها الانحراف العقائدي الرهيب والفوضى العملية القاتلة.

فطبيعي ان تكون هذه المهمة الجبارة عبءاً ثقيلاً لن يحمله الا من اصطفاه الله جل وعلا واعطاه نفساً عالية وعزماً لا خور فيه وتربية عالية تتناسب مع علو الهدف. وهكذا كان ﷺ بحيث لن يستطيع فكر خصب، ولا خيال محلق ان يعرض جوانب العظمة كلها في حياته الطاهرة.

وعلاوة على هذا نقول ان تلك العملية الضخمة لم تكن لتكفيها مرحلة زمنية قصيرة مهما كانت جهود ﷺ عظيمة، خصوصاً والمسبقات الذهنية الخطرة ما زالت تعشعش في الصميم، حتى في اذهان كثير ممن كلفوا بحمل الرسالة في مطلعها الاول، ولم يكن ممكناً ازلتها في هذه المدة القصيرة، وقد غمرت وجودهم من قبل.

فمن الطبيعي جداً ان يحكم المنصف بأن الاسلام -وفق برنامجه العالمي- كان بحاجة الى قادة مثاليين يجسدون تعاليم الاسلام، ويشكلون امتداداً

لشخصيته ﷺ من حيث المهام التي يقوم بها تجاه عملية التربية ومن حيث القدس والسمو، والاحاطة، والقدرة وان افترقوا عنه في مجال الوحي الذي ادى ما عليه من مهمات بعد ان اسلم حكم السماء اليه ﷺ وبعد ان حقق ذلك الامتداد الضروري، وضمن المسيرة الكاملة للاسلام في مراحل المستقبلية..

وهكذا شاء الله تعالى ان ينمي علياً عليه السلام في حجر الرسول الكريم ﷺ يغذيه ويربيه وينهله من ري الاسلام الخالد، فينمو وجوده قرآناً ناطقاً، وإيماناً حقيقياً صناعاً، وعيوناً مركزة على الهدف السامي.. فهو الوجود المعجزة..

واخيراً كان ذلك الحدث العظيم على ملأ لم يجتمع مثله من قبل من المسلمين ينتظرون قائدهم، وقد علا حدوج الابل في حر الصحراء المتوهج معلنا نداء الوحي «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار»^(١).

وكانت حقاً مهمة عظمى ربطت الواقع بالمستقبل، والقيادة العامة بامتدادها الضروري، فكانه ﷺ بقي خالداً - شخصاً - في علي وابنائ الطاهرين وحمل الوحي للبشرية بشاراة الاكمال «اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً».

انه الرضا الالهي المرجو بالمسيرة الصاعدة والقيادة العلوية.. المتوجة بالعصمة، والمتوجه لخطى الركب الصاعد.

ويهمنا ان نذكر هنا ان هذا الامر حدث بعد لقاءات واسعة بين النبي القائد وامته. اكد لها فيها انها ان ارادت السعادة ومشيت دربها فعليها ان ترتبط بصفوة أفذاذ عرف الله تعالى انها ستكون خير رابط للامة بالرسالة، وخير رائد لها في

(١) راجع كتاب الغدير للامام المرحوم الاميني لتطلع على اسانيد هذا النقل.

مسيرتها المتسلقة سلم الحق والكمال.

واختلفت مضامين التعبير؛ فتارة: يعبر عنها بـ (سفينة نوح) حيث يلف الرعب كل الدروب والحنايا كما يطغى على الجبال والوديان في حين يرفرف على ركابها جناح الامن، وفي نفس الصدد يقول (عليه السلام) مؤكداً قوله ﷺ:

«أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة».

واخرى: يعبر عنها بأحد الثقلين اللذين يجب على الامة الارتباط بهما واستقاء الشريعة من معنيهما الصافيين، مما يشعرهم، بل يدهم على الترابط الوثيق بين العدلين المقدسين، وانه لا يمكن الفصل بينهما، وحينذاك «فلن تضلوا بعدي ابدًا». والغريب حقا ان يركز الكثير على الرواية بلفظ وسنتي بدل وعترتي، مع ان لفظ وعترتي هو المتواتر حقا في حين لم يرد لفظ وسنتي الا في روايات ضعاف ومراسيل^(١).

واخرى: نجده ﷺ يجمع الموجودين منهم في عصره عليه السلام تحت كساء خاص متعمداً ذلك في مواطن عديدة، معلنا «اللهم هؤلاء اهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

وقد وُلد تكرر العمل منه ﷺ احتمالا من بعض العلماء بتكرار نزول الآية ايضا والحقيقة - كما يقول السيد الامام شرف الدين في مراجعاته -: (ان الصواب عندنا نزولها مرة واحدة لكن حكمة الصادق الامين في نصحه، ببلاغه المبين اقتضت تكرير تلك القضية مرة في بيت ام سلمة عند نزول الآية، وتبليغها لاهلها المخاطبين فيها، واخرى في بيت فاطمة) الى ان يقول: «حتى كان بعد نزول الآية كلما خرج الى الفجر يمر ببيت فاطمة فيقول: الصلاة يا اهل البيت ﴿انما يريد الله

(١) راجع كتاب (حديث الثقلين) وكتاب (اصول الفقه المقارن) مبحث السنة.

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» وقد استمر على هذا ستة أشهر في رواية انس^(١)، وعن ابن عباس سبعة أشهر، وفي رواية ذكرها النبهاني، وغيره ثمانية أشهر^(٢).

ومن الموارد التي يربط القرآن الأمة بأهل البيت فيها تلك الآية التي جاءت جواباً على موقف عاطفي حاول به بعض المسلمين ان يقدموا جزاء مادياً للنبي ﷺ لقاء خدماته، ولم يعلموا ان النبي ليس من صفاته طلب الاجر كذلك، بل صرح كل الانبياء بأنهم لا يسألون أمتهم أجراً فتتكرر هذه العبارة المباركة خمس مرات ﴿وما أسألكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين﴾^(٣). وجاءت هذه العبارة المقدسة ايضاً ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلاً﴾ وكذلك ﴿ان اجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾^(٤).

ولكنه ﷺ امر بأن يطلب منهم أجراً ما اروعته. انه الارتباط والانشداد بأهل البيت ﷺ ﴿قل لا أسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى﴾ وهم هم كما صرح به كبار العلماء كالمقرئزي، والبغوي، والثعلبي والسيوطي، والمافظ ابو نعيم، وغيرهم كثير.

في حين جاءت الآية الكريمة الاخرى تشير لهذا المعنى بوضوح:
﴿قل ما سألتكم من اجر فهو لكم﴾^(٥).

(١) الامام احمد في مسنده (ص ٢٥٩ الجزء ٣).

(٢) صفحة ٨ من الشرف المؤيد.

(٣) الشعراء / ١٠٩، ١٢٧، ١٢٥، ١٦٤ و ١٨٠.

(٤) سبأ / ٤٧.

(٥) سبأ / ٤٧.

والحديث في هذا الجانب طويل لا نستطيع هنا مواصلته فلتراجع مظانه الخاصة.

الربط يكشف عن السمو

ولسنا هنا في مقام التدليل على الربط المفروض للامة بالائمة من اهل البيت عليه السلام وان تعرضنا لبعض الصور الكثيرة التي حققت القوة فيه. وانما نريد هنا أن نؤكد حقيقة مهمة جدا يجب ان يتأملها الباحث بعمق لانها تبرز حقيقةً يلقي الايمان بها اضواء على المسيرة العامة. تلك هي ان الاسلام دين الوضوح والتعقل والعواطف المركزة المتجاوزة حدود السطحية العائمة، وليس فيه خطوة واحدة تتنافى مع ما سبق، وما حاول يوما ان يفرض على الناس شيئا يتأكدون هم من عدم صلاحيته لذلك، وعلى ذلك فالتأكيد الشديد والربط الوثيق للامة بقيادتها المستقبلية كان ينطوي على كشف رائع عن سمو نفس، وشموخ عزيمة، ورسوخ ايمان، وتوق طليعي للجهاد والفداء ورجاحة عقل، وسعة علم، وقوة تأثير، وحسن اطلاع على مهام القيادة.. الى غير ذلك مما يجب ان يتوفر في تركيب فئة ترتبط بها امة هي الامة الوسطى بين كل تلك الامم الارضية وهي الامة الشاهدة، وهي الامة الافضل تحمل للكون والالجيال الحاضرة والآتية قبس رسالة الله الخالدة، وغير واقعي - ان لم يكن الامر كذلك - ان تكلف الامة بحب هذه الصفوة المجرد، فضلا عن تكليفها بتسليم القيادة لها، اذ لا يمكن ان تنبع غريزة الحب في اطار واقعي الا اذا توفرت لها اسبابها الواقعية المثيرة.

هذا فضلا عن ان ذلك - لو فرض، والفرض أمره سهل - تضييع فضيع لمقاييس الاسلام في مجال التقييم، اذ اعتمد على اساس واقعي يلازم خطوات

الرقى، ويكشف عنه لا غير وذلك هو التقوى بما تستتبعه من عمل واع، وجهاد معطاء متدفق من ايمان وضاح، واعتقاد رصين.

وكل ذلك يتنزه عنه الرسول العظيم، بعد ان عرفنا قبل قليل انه لا بد ان يكون اول مطبق للمقاييس التي يبشر بها، وهكذا كان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان حية صادقة.

كل هذا يتم مع استبعاد عنصر قد يتوهم في البين - ولا يتم معه ذلك الكشف - ذلك هو عنصر العاطفة النابعة من القرابة مثلاً، وحب البقاء ببقاء الاولاد وما الى ذلك من أمور. اعتقد أني متفق مع القارئ الكريم على أنها لم تكن مطلقاً تمتلك أي دور في هذا المجال مجال التشريع، وحقوق البشرية، وذلك بعد ان أخبرنا القرآن الكريم بأنه ﷺ صادق أمين: ﴿وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى﴾.

ان لم نقل - ونقول بكل تأكيد - إن عواطفه ﷺ نفسها كانت عواطف رسالية خالصة قائمة على اسس تشريعية متينة لا متزاج تلك الروح العالية، بتعاليم الرسالة امتزاجاً لا يوصف... وأنها تكشف عن أمور تشريعية - ان أعطت سلوكاً معيناً أحياناً - ولكن بمقدار نخرج ببيانها عن حدود هذا المقال، وانما نشير الى أنه يعبر عن قسط من عنصر التقرير المقرر عنصراً مشتركاً في عمليات الاستنباط المحددة للسلوكيات العملية للمكلفين بحكم اتباعهم للشرعية الغراء.

ويمكن ان نتقدم في التوضيح خطوة اخرى، فنقولها صريحة اننا نعلم اجمالاً وبصورة مسبقة بسلوكياتهم ﷺ قبل ان نطلع عليها، ونعيشها تأريخاً حياً، أقول ذلك بعد أن اطلب من المؤمن ان يرجع الى عقيدته في التشريع ومشرعه الحي القيوم عالم الغيب والشهادة، اذ يتجاوز علمه الواقع متخطياً عوالم الغيب المجهولة لدينا بعد.

ولكن حتى لو لم تحصل للباحث هذه المسبقات، ويطوف مجردا عن كل هذه العقائد فانه سيجد أمامه معالم الانسانية المتكاملة في كل حلقة من حلقات هذه السلسلة الذهبية.. ومن هنا نجد كثيرا من الكتاب الذين لم تتم لهم تلك المقدمات -كغير المسلمين مثلا - يقفون في رحاب علي امير المؤمنين عليه السلام فيصفونه مثلا بأنه (صوت العدالة الانسانية) وبأنه (رجل يسبق زمانه بقرون) وهكذا بالنسبة الى باقي الامة عليه السلام.

وستنكشف لنا خلال هذه الحلقة وما يتبعها بعض الومضات التي يكفي تسللها الى قلوب القراء، ليقف أمامها كل فرد شاخص البصر، خاشع الضمير، مأخوذا بالجمال المتجسد والقيم الوهاجة.

على أني أؤكد على ان الدراسة تقتضي منا أن نكون على وعي من ان نكون مجرد مرددين لصدى ذلك اليقين المسبق، وان كان يقينا، لاجل ان نتفاعل مع مختلف الآراء، والفكر والطبقات القارئة.

تقديس يسمو على التشكيك

والامة بعد ان وعت هذا منهم، وعرفت جوهر سلوكياتهم قدستهم رغم كل الاباطيل، والمزاعم التي بثت لتشوه الصورة الناصعة.

وبقي الامام أمير المؤمنين عليه السلام مقدسا في ضمير الامة، وان كانت اريقت دماء ودماء على عهده نتيجة لاستئصاله المتواصل للعناصر المنحرفة عن خط الاسلام المستقيم. نعم بقي مقدسا في واقعها، لانها وعت بعد ذلك أنه الحق الذي لا مرأى فيه.

وهكذا قد تكون الامة اعترضت ممثلة ببعض قادتها على الامام الحسن عليه السلام في صلحه مثلا، ولكنها وعت حقيقته بعد لأي بصورة عامة وان دلسها الكثيرون.

وهكذا الحسين عليه السلام إذا ما ان سولت للحاكمين الطغاة نفوس ضعيفة شرهة ان تصنع تلك الجريمة الخالدة العار حتى تيقض ضمير الامة الى عظمة الحسين عليه السلام، وضعف الجهاز الاموي المتسلط، وكان لذلك أبعد الاثر في تنمية احساسها بوجودها المحاسب المراقب امام الحكام، وهو مفهوم اسلامي ضخم المحتوى كادت ان تقضي عليه السياسة الاموية المركزة، وشهدنا التاريخ وعلى انصع صفحاته يعيش السبط الشهيد دنى عظمة، وطاقات ثورة على الباطل لا تفتنى.

وهذا الامام الرضا عليه السلام وقد عاش فترة في البلاط العباسي - بضغط من الخليفة - عاش الرجل الثاني في حساب الادارة العامة، ولكنه الرجل الاول في حساب الحقيقة والضمير الاسلامي العام، وبقي مقدسا يسمو على الشبهات، مع ما كان عليه البلاط من ظلم، وترف حديدي أقيم على قوت الامة وعرقها.. كل ذلك نظرا لانه عليه السلام بقي ذلك الرجل المثالي الذي لم ير يوما في مأثم من مأثم الحكم، وانما كان الطليعي في قضايا الامة، مما دعا الحكم - على بعض الآراء - لان يعمل على التخلص منه بكل وسيلة.

معجزة الصياغة المثلى

واستطيع ان اجزم باخلاص ويقين بأن الاسلام يمتلك كثيرا من المعاجز الخالدة، التي يسري منها الايمان بخلوده هو ايضا، ويمكن ان نعد أولها القرآن الكريم بكل ما فيه من دنى عظمة، وآفاق اعجاز، وعلو بيان، وسمو معان... كما يمكن ان نجعل منها نفس النظام الاسلامي الذي انبثق في قلب الصحراء الخاوية من كل مظاهر الحياة العلمية العامة واذا به يخطط لكل الاجيال، والمجتمعات ويتناول مختلف المجالات الانسانية، وي طرح على صعيد الواقع حلولاً اصيلة، محاولا ان يرتفع بواقعها الى واقعه الذي يريد، وبحيث نستطيع بكل ثقة ان نحكم

على كل النظم البشرية اليوم، التي جاءت نتيجة لتفاعل حضاري واسع، ورقي علمي عال - بزعمها - تصلح البشرية، نحكم عليها بأنها ما زالت تسعى جاهدة لتتسلق سفوح قمم ذلك النظام الالهي، وهي تئن تحت وطأة ضعفها، وبشريتها الذاتية، مما يوردها تناقضا لا تستطيع ان تنفيه عنها الا ان تنفي وجودها وهما هي - ذي امامنا - هذه النظم ومآسيها تملأ الكون ويفر منها حتى صانعوها.. ويصرخون ولات حين مناص.

واخيرا.. يمكن ان نعد من تلك المعجزات الخالدات تلك القدرة الجبارة لتلك التعاليم على ان توجد على مسرح الانسانية، هذه النماذج العالية التي تتواجد فيها كل روائع الكمال الذي يمكن ان يصله الانسان. وقد يحسب القارئ الكريم في ذلك شيئا من المبالغة.

ولكن فليسمح لي ان اقول: ان ما قلته لا يمكن ان يعطيك وجه الحقيقة بكامله، لقصر في التعبير نفسه في مجال مترامي الابعاد كهذا، مثله تماما مثل عدم استطاعة الاقوال التعصبيه الشاذة ستر وجه هذه الحقيقة نفسها.

فامامك اولاء وادرس حياتهم باخلاص، لنجد ان ما قلته قليل قليل، ولا اريد استعراض حتى بعض القضايا المفردة من سلوكهم ولكن اردت ان ابعث فيك - عزيزي القارئ - الدافع نحو التتبع والبحث.

وأنا مطمئن تمام الاطمئنان، أنك ستجد ما اقله هو الحق - كل الحق - وهل يخشى من عرض جوهرة ثمينة في سوق التقييم من دعوته الناس الى ان يبحثوا عن قيمتها الحقيقية بعمق؟ كلا بل ذاك منهج الاسلام في بنائه العقائدي، وفي كل جانب طرحه عقائديا، وطلب الى الناس الايمان به. طرح عقيدة التوحيد، ثم اشار الى الفطرة النقية طالبا استيضاحها لتقول قولتها فيه.

وطرح عقيدة النبوة المتمثلة فيه ﷺ ثم دعا الناس لان تستجلي الموقف

٢٠ من حياة أهل البيت عليهم السلام

بدقة وتلاحظ مجموع القرائن السلوكية والحالية لتحكم حكما واعيا متخلية عن كل المؤثرات العاطفية والخارجية كالتأثيرات الجمعية - على حد تعبير البعض - فيقول سبحانه مخاطبا نبيه الكريم:

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾.

فهل أخشى عدم الوصول حينما اتبع نفس اسلوب الاسلام مطمئنا الى النتيجة؟!

القسم الأول

مقومات الشخصية القيادية

ومنهج دراستها

الفصل الأول

اهم مقومات الشخصية القيادية.
لماذا ندرس هذه المؤهلات؟
الامام الرضا عليه السلام يصف الامام.
ملاحظة هامة.

قبل الدخول في دراسة حياة أي إمام لا بد من معرفة مقومات الامامة. ونقصد بها: ما يمتلكه الشخص من قوى ذهنية وملكات نفسية وتاريخ شخصي، واختصاص باي امر يجعله مؤهلاً لقيادة الحياة الاجتماعية العامة قيادة فعلية، وقيادة المسيرة الحضارية على مداها الطويل. وربما كان بعض هذه المؤهلات سبباً لامتلاك هذا الشخص مؤهلات أخرى، كأن تكون ملكاته السامية مؤهلة له لأن يصدر النص الشرعي بتعيينه اماماً للامة. وصدور النص التشريعي هو اكبر المؤهلات القيادية، اذ به يستطيع الامام ان يتابع تطبيق الرسالة بعمق، ويحل مشكلات الامة في مختلف الجوانب بعد ان تشكل طاعته طاعة لله والرسول ﷺ بمقتضى النص القرآني الشريف ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم﴾ الذي ثبت في محله من البحث التفسيري والعقائدي انه يعني الائمة دون باقي افراد الامة، او أنهم طليعة مصاديق هذه الآية الشريفة.

اهم مقومات الشخصية القيادية

يمكننا - في هذا المجال - ان نقول: ان اهم مقومات الشخصية القيادية الالهية بالخصوص هي ما يلي:

المقوم الاول: امتلاك الدليل على الامامة والقيادة.

ذلك ان الامامة في التصور الاسلامي عموماً منصب جعلي الهلي، أي أن

امره موكل الى الله تعالى دون غيره، وهذا المعنى تثبته النصوص القرآنية والاحاديث، بل تثبته طبيعة الرسالة الاسلامية وعملها على ان تؤطر الحياة الاجتماعية كلها باطارها وربطها بالله. ومما لا ريب فيه ان مسألة قيادة التجربة الاسلامية هي من اهم مسائل الرسالة والحياة معا.

فاذا كان التصور الاسلامي في واقعه يربط هذه المسألة الاجتماعية بالله كان من المفروض ان يستمد القائد سلطته منه عن طريق ادلة لا ثبات الشرعية. ومن هنا حدث اختلاف في نوعية الوسيلة التي تمنح الامام سلطته القيادية، فركز البعض على ان الله منح الامة سلطة تعيين الامام باسلوب «الشورى» في حين ناقش الآخرون بحجج قاطعة في هذا السبيل، ورأوا ان الاسلام لا يمكنه ان يضع مثل هذا النظام ذي الوظيفة المصيرية دون ان يسد الثغرات العامة فيه ويوضح قواعده الاساسية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان ادلة اثبات وجود مثل هذا النظام لا تنهض مطلقا على المقصود، في حين قامت الادلة القاطعة على النظام البديل له وهو «نظام النص على الامام» وهذا هو المتعين بوضوح لدى كل من ادرك اهمية قيادة هذه التجربة ولزوم كونها بيد المعصوم من الانحراف، وخطأ الامة المتوقع في تشخيصه، ومن هنا يلزمنا ان نبحث عن النصوص المؤهلة لاحتلال هذا المنصب الخطير، لما لها من دور خطير في وعي الحياة الاسلامية المطلوبة لهذه الامة.

ومن البديهي ان هذا المقوم هو المقوم الاتباتي - حسب الاصطلاح - للامامة، لتطمئن الامة الى القيادة وتتجه نحوها.

ولسنا هنا ننفي دور الشورى في الادارة العامة في اطار القيادة المعصومة، كما اننا نتصور ان النصوص فيها ما به الكفاية لتوضيح معالم النظام البديل في حالة فقدان القيادة المعصومة وتمثيل النظام البديل في نظام ولاية الفقيه العادل وهو

الاقرب الى المعصوم.

المقوم الثاني: الايمان الخالص والعبادة المستوعبة، ومما لا ريب فيه ان قائد المسيرة المؤمنة عبر التاريخ يجب أن يمتلك اسماً درجة من الايمان ليكون مؤهلاً لقيادتها، فيفتح لها سبل التكامل في الايمان على صعيد نظري، وتجد فيه مثلها المؤمن على الصعيد العملي، وهذا الايمان العميق والمعرفة الالهية الاصلية تنعكس بالطبع على حياته فتصوغها كلها عبادة الله تعالى ويشد التركيز في العبادات التي تشكل ارقى حالات الاتصال بالمطلق الحق.

المقوم الثالث: السعة العلمية، حيث انه يقود تجربة البشرية التي يصوغ ابعادها وحضارتها الاسلام، فيجب ان يمتلك غاية ما يتصور من هذه السعة الفكرية ليقوم بتلك المهمة الكبرى وينمي الامة فكرياً وحضارياً، ويمنحها وعياً كاملاً بالمتصورات والتشريعات الاسلامية الحقيقية، ويسد كل النقائص التي تعرقل هذا النمو ويدفع كل الغوائل والشبهات التي يثيرها اعداء الاسلام مهما اشتدت وتفننت ولبست من لبوس.

المقوم الرابع: المناقبة المثالية.

ولسنا نقصد بالمناقبة المثالية تلك التصورات التي ينسجها الخيال للاشخاص الاسطوريين، فان النبي والائمة ليسوا كذلك وانما هم قادة الهيون اجتماعيون يعيشون في الوسط الاجتماعي ويقودونه نحو الرقي والكمال ويتحملون مصاعب هذا الطريق الصعب المزروع بالاشواك بكل تضحية وثبات. وانما نقصد بذلك ان يمتلك الامام القائد اعظم الصفات الانسانية النبيلة التي بعث ﷺ ليتمها ويؤصلها في الوجود البشري العام. وهذا العمق في الصفات الخلقية وذلك الايمان الواعي الخالص يمنحان هذا القائد اروع صفة يمكن ان يناديها انسان وهي «العصمة» التي يتطلبها كونهم في قمة الهرم الاجتماعي وتعبيرهم عن الواقع

الاسلامي بكل صفائه ونقاؤه.

ويمكننا ان نعيش هذه الروحية الخلقية عند اي امام على صعيد نظري بملاحظة توجهياته الاخلاقية، وعلى صعيد عملي ايضا بمتابعة سلوكه الاخلاقي في مختلف المواقف.

المقوم الخامس: الحنكة الادارية والتربوية.

فهي عنصر هام في المجال القيادي بل هي المسير الامين لانزال واقع التشريع الاسلامي الى حيز التطبيق واستيعاب المشاكل التي تعترض ذلك، ومعالجتها العلاج الاسلامي المناسب بعد ان نلاحظ خلود الاسلام وتعامله مع مختلف المناخات المكانية والزمانية.

والواقع ان هذه المقومات الاربعة الاخيرة تشكل مؤهلات واقعية يجب توفرها لكي يحوز الشخص هذا المقام الجليل ويليق بان ينص عليه اماما للامة، كما تشكل في الوقت نفسه مقومات اثباتية لاكتشاف الامام ومعرفة من جهة، وتيسير مهمته ونفوذه الاجتماعي من جهة اخرى.

لماذا ندرس هذه المؤهلات؟

ولم اكن لا تعرض للاجابة على هذا السؤال بعد وضوح الاجابة الى حد ما لولا رغبتني في تعميق الجواب اولاً، واصرار بعض من لا يصدرون عن دوافع موضوعية ثانياً، على وصم امثال هذه الدراسات بالعقم والبتر والقدم داعين في نفس الوقت الى الانغماس في بحوث طبيعية هي اكثر نفعاً في رأيهم وليس من المنكر تلك البحوث ولا ريب، ولكن ان تستوعب طاقاتنا الفكرية وتمتص دراساتنا كلها هو المستهجن، اذ الجانب الانساني المعنوي هو اعمق بكثير من الجانب الانساني المادي. ولا شبهة في ان دراستنا لهذه المؤهلات تحقق اهدافا

انسانية معنوية كبرى تلقي بظلالها على مختلف جوانب الحياة الانسانية وان ركزت على الجانب المعنوي والمثل الحية للانسان.

فلماذا ندرس هذه المؤهلات؟

اننا ندرسها لامور اهمها:

اولا: تعيين شخص القائد، وهي فاتحة السير ومنطلقه، ودون ذلك التيه والضلal، والتمزق والانحلال، والضياع مع الرايات التي لا يعرف لها هدف. وكل يدعي وصلا بليلي وليلى لا تقر لهم بذاكا ان الامامة هي الحبل المتين الذي تعتصم به الامة من الضلال والعمى، وهي التوجه الاسلامي نحو الاهداف الواقعية للانسان وهي نقطة الرسوخ العلمي والتربوي الذي يدفع كل المتشابهات ويعلو فوق العراقيل، ولا بد بعد هذا من تشخيص كامل للامام وتعيين محدد له لا لبس فيه ولا غموض ليتم المخطط المرسوم.. ومن هنا كان نظام الشورى - كما قلناه - نظاما يفقد صلاحية تعيين القائد نظراً لان حدوده المنقولة اليها بالنصوص النبوية غير واضحة المعالم ولا تستحق اسمها، ولا تمتلك اي ترابط مما اوقع الامة في تمزق نعاني منه اي معاناة وجرها بالتالي الى الوراثة المقيتة والتحكم الباغي باسم الشورى، وكان نظام الامامة هو حبل الله المتين.

ثانياً: لكي نكتشف واقعية الاسلام، اذ ركز على هذا النظام دون غيره وعلى هذا الشخص دون سواه.

ويتضح هذا بملاحظة ان المسألة ليست مسألة تحكم سماوي بالارض وتكريس للذات الالهية في المسيرة الانسانية، وانما هي مسألة قيادة يجب ان يتولاها المؤهلون لها باذن الله، فاذا اكتشفنا جوانب العظمة في هذا الشخص

٣٠ من حياة أهل البيت عليه السلام

واهليته اكتشفنا بالدقة واقعية الاسلام وبعد نظره واطمأنت القلوب ايا اطمئنان
لسائر نظرات الاسلام وتصوراته.

والواقع الذي لا يغيب عن القلوب هو ان الاسلام شد الجموع الى الامام
عقائديا وعاطفيا، وهما جانبان نفسيان ولن يتحققا في النفس الانسانية الا اذا
وجدت مبرراتهما، ومن اكبر هذه المبررات الاحساس بواقع القائد واهليته لان
يكون المحور العقائدي والمطاف العاطفي للامة وباكتشافها لهذه الاهلية تتجلى لها
واقعية الاسلام الاصيل.

ثالثاً: اننا باكتشافنا الملامح العامة لحياة الامام عليه السلام نستطيع ان نعيش في الجو
اللازم لفهم أدوار الامام عليه السلام فيها اعمق واوفى بالمقصود، وملاحظة عناصر الرابطة
الخفية بينها وخلفياتها المبدئية، فلا يمكن ان نفهم سلوك الفرد العادي فضلا عن
الفرد القائد الذي يراد له ان يسوق البشرية نحو كما لها، الا اذا عشنا اجواءه
ومبادئه واهدافه البعيدة والقريبة، فان مثل هذا الجو بمناسباته يمكنه ان يؤثر كثيرا
على ظهورات الكلام، ويكشف لنا اعماقا لا تبدو للنظر السطحي المجرد عن هذه
الاجواء.

وهذا الجو بنفسه يعيننا في مجال اوسع من حياة هذا الامام او ذلك ونقصد
به مجال دراسة حياتهم عليه السلام جميعا باعتبارها وحدة متراسة متناسقة الخطى على
طريق واحد يكمل بعضها بعضا ومن المجموع ترسم الصورة الامثل.

رابعاً: لنلاحظ المثل الاعلى للمسلمين، فنحاول ان نجعله مقياسا لكل
مسيرتنا وفي مختلف ظروفها وحالاتها، خصوصا وهذا المثل الاعلى ليس يتجسد
في شخص واحد وانما يتمثل في اشخاص عديدين عاشوا ظروفًا مختلفة، وواجهوا
مراحل حيوية متطورة فكانت سلوكياتهم تمثل من جهة تطبيق الاسلام الناصع في
جهاته الثابتة، ونظرات الاسلام المرنة التي تعالج مختلف حالات التطور من جهة

أخرى.

وإذا أردنا توضيح هذا قلنا أن أصل الهدف الاجتماعي من الإمامة -بالإضافة لما أخبرتنا عنه النصوص من أن الأرض لا يمكنها تكويننا أن تخلو منها باعتبارها الحجة على الخلق والالساخت بأهلها - هو القيام بأميرين أساسيين في المسيرة الحضارية البشرية هما:

الأول: الحاجة القصوى لوجود موجه للمسيرة البشرية يعمل لإكمال نقص المجتمع بمنحه تصورات الإسلام النقية ودفعه نحو تطبيق تشريعاته تطبيقاً دقيقاً حياً، وهذا الموجه يجب أن يكون بمستوى هذا التوجيه حاملاً لكل المؤهلات اللازمة لذلك.

الثاني: أن المجتمع يحتاج إلى المثال الأعلى للتعامل ليعيش معه حساً ويمارس إمامه حساً واجبات الشريعة، وينخرط حساً معه في عداد من يحملون هذه الرسالة، وهكذا بالنسبة لمختلف المرافق الحيوية الإنسانية.

فوجود المثل السامي قد يفوق تأثيرات أي توجيه فكري خالص.

هذه هي - في نظرنا - أهم الدوافع لدراسة مقومات الشخصية القائدة وملاحظة خطوطها الرئيسية وتطبيقاتها، فنحن إذن ندرسها:

لنعيّن القائد أولاً، ولنعي واقعية الإسلام ثانياً، ولنذكر أجزاء الصورة التي رسموها لنا من خلال حياتهم ثالثاً، ولنتوضح لنا معالم المثل الأعلى لنسير نحوه رابعاً.

الإمام الرضا عليه السلام يصف الإمام

روى الصدوق بإسناده عن الحسن بن علي بن فضال عن أبي الحسن علي ابن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «لإمام علامات: يكون أعلم الناس، وأحكم

٣٢..... من حياة أهل البيت عليه السلام

الناس، واتقى الناس، واحلم الناس، واشجع الناس واسخى الناس واعبد
الناس...»^(١).

وروى ايضا باسناده عن عبد العزيز بن مسلم قوله عليه السلام :

«ان الامامة اس الاسلام النامي وفرعه السامي، بالامام تمام الصلاة
والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفيء والصدقات وامضاء الحدود
والاحكام ومنع الثغور والاطراف.

والامام يحلل حلال الله ويحرم حرام الله ويقيم حدود الله ويذب عن دين
الله ويدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة.
الامام كالشمس الطالعة للعالم وهي بالافق بحيث لا تنالها الايدي
والابصار.

الامام البدر المنير والسراج الزاهر والنور الساطع والنجم الهادي في
غياهب الدجى والبيد القفار ولجج البحار.

الامام الماء العذب على الظمأ، والدال على الهدى والمنجي من الردى،
والامام النار على اليفاع الحار لمن اصطلى به، والدليل في المهالك من فارقه
فهالك.

الامام الساحب الماطر والغيث الهاطل، والشمس المضيئة والارض
البسيطة والعين الغزيرة والغدير والروضة.

الامام الامين الرفيق والوالد الرقيق والأخ الشقيق ومفزع العباد في
الداهية.

الامام امين الله في ارضه وحجته على عباده وخيلفته في بلاده الداعي

(١) عيون اخبار الرضا عليه السلام ج ٢ / ص ١٩٢.

الى الله والذاب عن حرم الله.

الامام المظهر من الذنوب المبرأ من العيوب مخصوص بالعلم موسوم بالحلم نظام الدين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين. الامام واحد دهره، لا يدانيه احد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفعل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب....

... فمن ذا الذي يبلغ معرفة الامام ويمكنه اختياره؟!

فكيف لهم باختيار الامام؟! والامام عالم لا يجهل راع لا ينكل، معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسول وهو نسل المطهرة البتول لا مغمز فيه في نسب ولا يدانيه ذو حسب...»^(١).

ملاحظة هامة

وفي ختام هذا البحث يجب الالتفات الى ملاحظة هامة هي ان هذه النصوص وغيرها تعطي الامة مقاييس معرفة الامام بتعريفها بمقومات الامامة وآثارها، وهي مقاييس دقيقة غاية في الدقة مما يجعلنا نتأكد ان الشيعة - وفيهم كبار العلماء والمحدثين - لم يكونوا ليؤمنوا بامام ما لم يلاحظوا فيه هذه الصفات ويتأكدوا منها مما يوضح ان اهل البيت هم قادة هذه الامة. وهذا المعنى يجد له تطبيقاً رائعاً في حياة الائمة الذين تسلموا زمام الامامة مبكراً، كما سيأتي عنه حديث في الحلقات القادمة ان شاء الله تعالى.

(١) عيون اخبار الرضا ج ٢ / ص ١٩٧ - ١٩٩.

الفصل الثاني

لماذا التفضيل؟

لماذا التفضيل؟ سؤال يطرحه بعض السطحين فيقول: كثيرون.. اولئك الذين قدموا على الصعيد العام خدمات جلى.. اولئك المخترعون الذين قضاوا حياتهم في سبيل العلم والرقى الانساني.. اولئك المكتشفون الذين ركبوا المصاعب سفينا تمخر بهم عباب مجاهيل الارض.. القطبين المهولين.. الصحاري العريضة الجرداء.. الغابات الكثيفة.. حتى خرجوا للانسانية بأعظم النتائج الاكتشافية ورسما للانسان صورة ممهدة، ودلوه على منابعه الاصيلة... اولئك القادة العظام الذين وهبوا وجودهم لقضية الامن البشري، والسلام العالمي، فنالوا جوائز نوبل.. اولئك الكتاب الذين حملوا حروفهم مشاعل ثقافة.. وهكذا اولئك الفنانون الذين رسموا الجمال في احداق الانسانية، والطرب المبدع في قلوبها الظمأى اليه..

فلماذا التفضيل؟ ولماذا تكون فئة اتصفت مثل اولئك بصفات انسانية جليلة، ولها معالم اخلاقية عالية.. لماذا تكون افضل من هؤلاء لا بشيء من الفضل فحسب، بل بشوط بعيد المدى من مراتب التفضيل والتعظيم؟!

وواقع الامر أن المسألة ليست مسألة خدمات مجردة تقدم للانسانية هكذا وبصورة جافة أولاً، وأن الامر الذي ذكر لم يكن معبرا عن كل أجزاء الصورة التي قدمت لتلك الشخصيات السالفة ثانياً.

ولو كان الامر كذلك، لوجب على الانسانية أن تمجد بعض الآلات الضخفة أداء ونتاجا، وبعض الحيوانات التي تقوم على وجودها حياته لا شيء الا مجرد

خدماتها!! هذا اذا لم نعل قليلا فنجد ان الشمس والقمر والتناسق الكوني كل منها بمفرده يقدم لنا خدمات تعدل كل الخدمات المتصورة لهؤلاء الافراد، ولكننا لم نجد صوتا واحدا واعيا يفضل تلك المعطيات، ويمنحها جوائز نوبل للسلام، ويرى انها افضل من انسان واع عامل، بل ان الاسلام بقرآنه العظيم، يصرح بأن الكون الذي نعيشه مسخر لصالحنا تماما، وانه مجرد طريق لبلوغنا مرتبة الكمال المتمثلة في العبودية التامة، والعبادة الشاملة من قبل الانسان.

ففي الامر عناصر مقدسة يجب ان تؤثر الخدمات المقدمة، لترفع العمل من مجرد خدمة الى عمل انساني أرفع بكثير من مرتبة الخدمة.

وكثيرا ما قيل وصدقنا، ورددوا ورددنا - كالبغاوات الاصيلات - أن فلانا رجل الانسانية العظيم، وأن فلانا أتخف الكون بكذا من العطاء.. انه أنشأ مستشفى ليداوي المساكين قربة الى الله، انه حقق في المناهج الفكرية للبشرية، وخرج علينا بنقد نزيه جداً لها.. وهكذا.

وبنينا في مخيلتنا - صغارا وكبارا - هياكل لتقديس تلك الشخصيات المثلى ثم نقلناها من الخيلة الى الواقع تماثيل مجسدة، تمجيدا لتلك الخدمات الجليلة. ولكن ما أن توضحت للعقل معالم الحقيقة، حتى هوى بناء (الكارتون الورقي) وتبدت من ورائه ذببية كاسرة.. وسبعية مقبحة.. وشره ونهم مخاتل.

كم مجدت أوربا نفسها بكل أساليب التمجيد، وقرعنا لذلك التمجيد طبولا جوفاء رنانة! انظروا أيها الناس الى المصانع الكبيرة، والمنتوجات الكثيرة، والرقى والمخترعات، ثم ماذا كانت الحصيلة للبشرية؟ انها لم تكن الا امتصاص دماء الشعوب الضعيفة، والا المسيحية الكنسية المقنعة تحاول أن تثار لقتلى القرون الوسطى فتتبع شتى الاساليب لتضليل الآخرين، والا الاستغلال الشرس لخيرات البلدان الفقيرة الغنية بالخيرات.

وسخرت لذلك الكثير من المخترعين الذين لم يعملوا لمصالح شخصية فحسب بل عملوا لمصالح طبقة كل وجودها أن تظلم الانسانية، وتبخسها حقها. فكم من العلماء اليوم - وهم يعدلون كل علماء الانسانية خلال حياتها في المجالات التجريبية - كم منهم يصنعون الدمار للارض، ويحفرون للبشرية قبرها الذري التقدمي!

وكم من الرحلات الاستكشافية - الانسانية النبيلة جدا - أعقبتها حملات ماحقة أحرقت القرى، ودكت حتى أطلالها في سبيل سوق الناس عبيداً لاوروبا الانسانية الخيرة!!.

كم من هؤلاء الذين نالوا جوائز السلام من لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا، وها هو امامنا بيغن الصهيوني يمثل بدقة الاهداف الخبيثة لمثل هذه الجوائز. وأخيرا كم ممن ادعوا أنهم جاؤوا لاصلاح التاريخ البشري وارجاع المسيرة الانسانية الى خطها الواقعي، بل حتى من دعاة الاصلاح في التاريخ الاسلامي كم من هؤلاء من انكشف أمرهم بعد لأي، فاذا بهم يرتبطون بتشكيلات مشبوهة مغرضة.

اولئك قادة الشيوعية الذين جاؤوا ليرسموا في عيون الجماهير الكادحة جنتهم الموعودة في الارض حيث يكون الانسان نزيها لحساب مجتمعه تماما. وتعاورت الامور، وتكشفت الفضائح التي تزكم الانوف من قادتهم اولاء، فتوالت الاعدامات واستحكم الستار الحديدي الخانق حول الشعوب، وذاقت من ذلكم الامرين.

أظن أن الامر يخرج بنا عن اطار البحث فعلاً لو استعرضنا الامر اكثر استيعابا، فنكتفي بهذه الاشارات المركزة.

والحق أن عملا واحدا بسيطا يقدمه رجل يحب الانسانية على اساس

٤٠ من حياة أهل البيت عليه السلام

عقائدي، فيعمل لصالحها، ويتفاني لاجلها، هو أقدس في نظر الانسان من رجل يصعد الى القمر ليتخذ منطقة نفوذ -مثلا-، فكيف بالعمل الذي قدمه النبي ﷺ والأئمة الطاهرون، الذي استهدف بناء الهيكل البشري الرصين، وبث الروح المتكاملة فيه، ونفي كل الشوائب والعقبات التي تحطم المعنويات، وتتخم الوجود بالفراغ والانحطاط.

الاطار السامي للعمل الانساني

ويمكن ان نحدد مثل هذا الاطار بتوافر عناصره الاصيله، وأهمها ما يلي:

أ- الاخلاص :

أي الاخلاص للخط الانساني، وأعني به أن تكون الاهداف كلها منشدة بالهدف الانساني الاصيل (الكمال بمختلف جوانبه)، وأن تسمر الاحداق بذلك الهدف التاريخي الاكبر، وأن يكون كل سلوك متخذاً طابع الهدف، وسائراً وفق ما يقتضيه، فالاخلاص روح كل عملية وسلوك، فان تجرداً منه فهما ميتان ينخر فيهما العداء للانسانية نفسها وبلا شعور احياناً كثيرة، وان بدا منها عطاء وفير. ولذا نجد ان الانسان، يقدر جندياً فرداً انطلق يحمل قلبه على كفيه وتدفعه مبادئه لخوض المعركة، مجاهداً في سبيلها، ولكنه لم يوفق في مسعاه، فكبا في اول الطريق، وقتل بالرصاصه الاولى، نجد الانسان يفضل هذا على قائد كبير، فتح الكثير من الآفاق واذل الكثير من الاعداء، ولكنه كان من المرتزقة الطوافين. والفرق واضح جداً بين الشخصين، اذ كان عمل المجندي يعبق بأريج الاخلاص للمبادئ، في حين كان عمل القائد خلواً من روحه الحقيقية. فالاخلاص اذن لا يرتبط بالنتيجة، بل هو كيان وحده قائم تقاس به قيمة

العمل. انه الذي يشد الآخرين الى الشخص، وعلى أمله تصفق الامة للقائد، ويعطى الصوت للنائب بل ويمشي صديق الى جنب صديق، ويتعامل فرد مع فرد آخر، ومع فقدانه المعبر عنه بفقدان الثقة، فالمضاعفات التي لا تحصى تمزق كل العلائق، وتذيب كل النظرات الخيرة.

والذي أمارت التقييم للأشخاص الكبار - المذكورين آنفاً - انهم عملوا ما عملوا مستهدفين خيرهم وحدهم، او خير امهم فقط مفضلين المصلحة الاقليمية الضيقة على المصلحة الانسانية العليا.

وهناك من يعمل ويفكر تفكيراً يتقاضى عليه اجرا من شركة فيخترع شيئاً ما، فهل لنا حينذاك أن نظل في محراب عظمتة واجمين مقدسين؟

ب - العقائدية:

فقد يحصل الاخلاص لخدمة الانسانية ولكنه اخلاص ساذج لا يملك اساساً رصينا، وهدفاً واضحاً، وطريقاً ما بينهما لاحقاً.

ان مثله حينذاك مثل الحيوان الوفي الذي يحرس صاحبه مخلصاً ويتفانى في سبيل ذلك دون ان يعي ما يعمل، ويطلع على اهداف ذلك العمل، وقد يؤذي صاحبه في حالة من حالات حرصه على راحته فينبع ضيفاً، ويجرح عزيزاً وغير ذلك.

اننا نريده عملاً يمتلك خلقية دافعة تهيئ نفسية العامل واحساساته وتخلق في نفسه الدوافع الدائمة له ولتطويره وتحسينه، وحينذاك نضمن أن يقوم العمل بكل خدمة متوقعة للهدف دون أن يتعدى عليه من الجوانب الاخرى.

فالعقائدية - تعني فيما تعني - وجود النظرة التحديدية لمركز العامل من كل شيء وتركز هذه النظرة في اعماقه بحيث تخلق فيه طاقة حركية فعالة.

والاخلاص يجب ان يبقى على أساس ذلك الموقف المحدد من الحياة والطبيعة والذي يتبعه فكر حصيف، ومن ثم تتأصل في الاعماق فكرة عن المنطلق والمسير والهدف.. وبتوضيح هذه الفكرة يتفانى الانسان تفانيا واعيا لها، ولا يهيمه ما يصادف في الطريق من عقبات ما دام الهدف يلوح له من بعيد. ومع انعدام العقائدية فان ذلك يعني الارتجالية والسطحية القلقة والخسران أحيانا كثيرة، وان يكون هناك انتاج انساني ما دامت هذه هي مقدماته.

ج- الواقعية:

ومع فرض حصول الاساسين السابقين فاننا نحتاج الى هذا الاساس الآخر اذ قد يحصل الاخلاص للقضية مبنيا على أساس عقائدي معين، ولكن العيب يكمن في العقيدة ذاتها حينما تكون في عالم خيال محض لا تمتلك أي رصيد من الواقع ولا تصلح للتطبيق المنتج، بسبب تقصير في مجال الاستطلاع، واشياء وهمية فرضت باعتبارها مبادئ حقيقية وحينها فلا ينسجم الهدف والمنطلق والطريق بينهما مع الهدف الواقعي، ويقع التناقض بينه وبين الواقع. ولن يستطيع فكر أو عمل أن يقف في وجه قوانين الواقع مهما بلغا من شأن، وانه لن يكون الا كذلك الطاغية المتفرعن الذي اراد أن يطلع الى اله موسى بمركبة بشرية ويقضي عليه بسهم تائه.

ولاجل التدليل على هذا، فلنفرض انه اخلص لعقيدة مادية رافضا ما عداها من افكار، فعمل على تأليه المادة المتمثلة في أي شيء، وبني حضارة مادية صرفة وكيّف الاشياء كلها لهذا الهدف طارحا كل ما عدا ذلك من عقائد الهية وأخلاق تبني عليها ومشى يتخطى كل مقدس في هذا السبيل فما هي النتيجة؟ إن أقل ما يقال في نتائج هذا العمل انه خلاف الواقع الانساني وذلك، لانه

يخدم كماله المادي فقط - لو تجاوزنا عن أخطائه الكثيرة الأخرى - ويرجح كفة الجانب المادي في الإنسان تماماً، في حين أن الجانب الروحي والمعنوي أصيل في الإنسان لن ينكره أحد بوجدانه، وإن أنكره استدلالاً وعملاً، وسيبقى هذا مهماً ليموت التوازن المطلوب بين الروح والجسد وينتج بالتالي ذلك الإنسان القلق الحائر ليزوب فيه الأساسان الأوليان نفسيهما أيضاً، وهذا ما لا يقبله أي عاقل. وحينها فيكون أقل وصف يعطى لأي عمل في هذا السبيل أنه عمل غير انساني وإن كان في ظاهره يخدم الإنسان.

ولكم هو غريب من بعض كتابنا الكبار - طبعاً غير الواعين - غريب منهم أن يدعوا لتقديس أي إنسان قام بعمل بغض النظر عن فلسفته الواقعية! نحن نسأل هؤلاء هل لكم أن تقدسوا رجلاً يعيش في أرضكم ويخدم عدوكم الذي يذبح أبناءكم كل يوم لا لشيء إلا لأنه اخترع آلة أو صنع سفينة صعد بها إلى الأعلى فامتلك السيطرة الجوية، وكشف كل تحصيناتكم؟ هل يقدس هؤلاء أحد يمتلك ذرة من وعي؟

د - الانسجام والتلاؤم بين كل أنواع السلوك بما يحقق وحدة سلوكية: وأعني من وضع هذا الأساس أنه قد يوجد الشخص الذي يحمل في أعماقه تلك الصفات السابقة جميعها، ولكن في خصوص مجال واحد أو اثنين، في حين يتناقض مع نفسه وصفته في المجالات الأخرى. أن مثل هذا الشخص لا يستحق أن يعطى لقب (الإنسان) حتى في حدود تلك الصفة التي جمعت أسس السلوك الحي، إذ ستحبط أعماله الأخرى ما تنتجه تلك الصفة، وذلك السلوك، وبالتالي قد تلاقي الإنسانية منه الوبال الكثير.

النتيجة:

وهكذا عزيزي القارئ - حاولنا ان نصور لك الجو المناسب للعمل
الانساني الناجح، وعلى ضوء ما تقدم يمكن ان نجد علة التفرد - الى جنب غيرها
من العلل الذاتية لاهل البيت عليه السلام بالانسانية الفذة والعطاء الخالد.

الفصل الثالث

المنهج التجزيئي والمنهج الشمولي

خطان متميزان في مجال دراستهم ﷺ

بعد ان ذابت تلك العوامل المقيتة التي فرضت على المؤرخين ان يذوبوا في عملية تمجيد للسلطة الحاكمة، ويسخروا الصالحها أقلامهم وينظروا للاحداث بعين الحاكم لا الواقع.

بعد ان انقشعت هذه السحائب، وانفرجت الازمة نوعا ما تنبه المؤرخون والعلماء الى ضرورة تأريخ نقاط الضوء الحقيقية التي خلقت كل خطوة ايجابية في الواقع الاسلامي.

وكانت أروع نقطة لفتت انتباه الكثيرين منهم هذه السلسلة الدرية التي اتحف الاسلام بها العالم معجزة أخرى تضاف الى معاجزه، أعني بها أهل بيت الوحي والرسالة.

واختلفت زوايا النظر فيما كتب عنهم ﷺ:

فبعض اختص بعرض ما ورد من احاديث الرسول ﷺ في مدحهم وعلو مقامهم وحث الامة على التمسك بهم والارتباط بمنهجهم. ولعمري انه عمل مشكور، خاصة اذا قام به فكر نقاد ويراغ بارع، وعني القسم الآخر بذكر مواقع الصدام الذي جرى بينهم ﷺ وبين رعييل أعدائهم المتكون من زمر مختلفة متباينة وبيان انتصارهم بعد كل موقع.

بينما راح القسم الثالث يتناول تفاصيل حياتهم وما فيها من جوانب عظمة اخلاقية الى ما هنالك من نواح ولدت تخصصا في هذا المجال بينهم.

والملاحظ ان هناك بحوثا حديثة أخذت تظهر الى الوجود وهي تتخذ طابعا آخر يختلف عن الطابع السابق ويتخذ له مسارا أقرب الى كشف الحقيقة حيث يعتمد عنصري الربط والمقارنة كما سيأتي.

المنهج التجزيئي:

ان غالب الدراسات السابقة كان يعنى 'عناية عامة بدراسة حالاتهم المختلفة بصورة مجزأة، وملاحظة المعطيات في حدود تلك الحالة دون تكلف عناء الربط بينها وبين باقي الحالات الاخرى، واستنباط الجوانب التي تتخذ فيها كل الحالات وتمييزها من موارد الافتراق.

العقلية الفردية:

ولعل ذلك تابع الى حد بعيد للعقلية التي طغت على الفكر الاسلامي منذ ان بدأ ذلك الافتراق الفضيع بين (الواقع الاسلامي) و(التاريخ الاسلامي) أو بين (الفكرة المخططة) و(الفكرة المطبقة). ولئن كان ذلك الافتراق قليلا في مطلع الامر - شأنه شأن أي انحراف غالبا - فانه صار بالتالي سببا لطغيان كثير من الافكار غير الاسلامية وبدون قصد احيانا على الفكر المنتسب للاسلام. ومن هذه الافكار النظرة التجزيئية للاشياء، والتخطيط للفرد مع اهمال العنصر الاجتماعي تماما.

ولا نريد بهذا القول ان نقلل من أهمية تلك البحوث والعياذ بالله، الا اننا نقول انها لم تقم بما كان مطلوبا منها خير قيام فتضع كل عنصر مؤثر في العملية في محله الطبيعي وكل لبنة في مكانها اللائق في عملية البناء.

ولعلنا نمناها الكثير من الحق بسبب ان الاطار الاجتماعي للتفكير كاد ان

يذوب حتى في المجال الاستنباطي للقوانين التي جاء بها الاسلام، حيث نجد التأكيد على النظرة الفردية فيها.

ولكن هذا لا يمنع من ان يستهدوا على الاقل بمسلمات اجمالية بين الجميع وهي: «ان الائمة عليهم السلام كانوا معصومين من كل خطأ وزلل، فهم يصدر عن الواقع دائماً، والواقع مترابط لا يتغير جوهره وان تغير - احياناً - مظهره». ان هذا المسلم كان جديراً لان يدفع الاجمال لاثبات تطبيقه التام على حياتهم عليهم السلام.

ولا يعني ذلك اضافة عناصر ذاتية مطلقاً بل يعني السير التاريخي الاعمق بعد وضع الامر في اطاره الحقيقي الذي هو باختصار. (كونهم عليهم السلام امتداداً للقيادة التي حملت الاسلام وعملت على تطبيقه باعتباره عملية تربوية كبرى للبشرية كل البشرية تتطلب جهوداً كبيرة ومدة طويلة).

وهذا يعني الى حد تام كونهم عليهم السلام حلقات درية من سلسلة متكاملة قدمت للبشرية اطروحة واحدة الجوهر مرنة المظهر تبعا للواقعية الكاملة التي شكلت الاطار العام للرسالة الاسلامية الخالدة.

ومن هنا نبعت الحاجة الملحة الى الخط الآخر الذي يدرس اهل البيت عليهم السلام بناء متكامل لن نستطيع الوقوف على جماله وتخطيطه الا اذا وقفنا على التناسق والترابط القائم بين تشكيلاته المختلفة.

وبتعبير آخر انه بدأ يعني بعرض كل العناصر التي لها دخل في صياغة السلوك المعين لمعرفة الوجه الحقيقي له.

ولن يتأتى ذلك الا بملاحظة ظروف الموقف وموقعه من الخط العام للمسيرة التربوية الكبرى وآثاره على المدى القريب او المدى البعيد.

٥٠ من حياة أهل البيت عليهم السلام

وعندما نقول هذا فلن نتحدث عن فكرة طوبائية مغرقة -والعياذ بالله-
وانما نعني تماما ما نقول.

فالمسألة مسألة اطروحة تتجاوز كل الحدود الزمانية والمكانية، وتستمد
من مسير الانبياء الأولين نقطة انطلاقها وتركز نظراتها على (اليوم الموعود) الذي
يكون الدين كله لله فيه، حيث تتجسد الحقيقة وتمتلئ الارض قسطا وعدلا كما
ملئت ظلما وجورا.

ومع هذه النظرة الضاربة بجذورها الى أعماق أعماق التاريخ، والممتدة
بفروعها الى أعلى قمة يمكن ان تصلها البشرية من حيث الكمال والسعادة، مع هذه
النظرة يدق الامر كثيرا ويخرج عن اطار حادثة تاريخية معينة يمر بها التاريخ على
عجل ثم يهملها، أو يصفق لها الى حين ثم يلقيها فوق الرفوف العالية.
ومن هنا يمكن ان نعتبر أن كل بحث قام به اليوم من لا تتوفر فيه امكانية
الارتفاع الى المستوى الرفيع المطلوب، نعتبره تقصيرا بحقهم عليهم السلام وتضييعا لبعض
أهدافهم وتكريسا لما سيأتي من اعتراضات نوجهها الى الخط الاول.

الاعتراض على العرض التجزيئي :

ويواجه مثل هذا العرض اعتراضات :

منها: تضييع الهدف الذي كانت ترمي اليه مجموعة متكاملة من التوجيهات
يقوم كل فرد منها بالتقدم خطوة الى جنب باقي الافراد نحو الهدف المنشود.
فاذا جزئت تلك المجموعة فقدت خاصيتها الاصلية، وأصبحت حادثة
عادية - على بعض الاحتمالات - أو نشازا في البناء - على البعض الآخر - وضاع
النظارة بين الموقفين اللذين يبدوان غير متلائمين بالنظرة البدوية الاولى، وديدن
النمط الاكثر من الناس الاكتفاء بمثل هذه النظرة في مجال الحكم على الاشياء

وتقييمها، أو فقل قد يستحكم التناقض حتى في مجال النظرة المركزة.
وهنا تبدو عملية الغمط الفضيعة لتقييم حياتهم حينما يقوم في ذهن الافراد تعارض حاد بين صور مختلفة عنهم عليه السلام، فهذا الامام امير المؤمنين عليه السلام يتخذ الموقف الجدي الصارم تجاه أعداء الله ولا تأخذه لومة لائم، فما ان يمتلك زمام الامور حتى يصدر أوامره بغزل الرؤوس المدبرة والمتنفذة في النظام السابق ولا يستمع الى أية (نصحية!!) بالابقاء الى مدة معينة حتى تتركز دعائم الحكم وتسري هيئته وحينذاك تتم عملية الغزل هذه، كما يقوم بتنفيذ خطة واسعة لها الاثر البالغ في اثارة بعض الذين ضربت مصالحهم فيها، وهي خطة استرجاع كل القطائع التي اخذت بغير حق في النظام السابق حتى ولو تزوجت بها النساء وتملكت بها الاماء.

هذه الصورة اذا عرضت مجزأة فانها تبدو في ذهن البعض - حتما - معارضة للصورة التي تأخذها عن امام آخر هو الامام الصادق عليه السلام، اذ اتخذ له شعارا يقضي بالهدنة مع الحكم المنحرف والتفرغ لمجالات التنمية الثقافية والعقائدية وتربية الجيل الذي يحمل على عاتقه مهمة العمل للمستقبل، وعدم التورط في ثورات جانبية على الحكم.

او يبدو التعارض الاولي مثالا بين سلوك الامام الرائد الحسين بن علي عليه السلام اذ يقوم في نفر قليل جدا وفي اوضاع وخيمة جدا كلها تنذر بالقتل والمحق ولكنه يجابه كل العقبات ويعلن ثورته بصورة لا تبقئ أي مجال للتشكيك في أنه كان يقوم بعملية معروفة النتائج ليهز بها كيان الدولة الاموية، ويبقى صامدا لا يتنازل عن مطلبه الى آخر لحظات حياته حتى ولو ذبح ابنه الرضيع على يديه.. واخيرا يقدم آخر قطرة من دمائه فداء لعقيدته ومطلبه ويموت عزيزا..

وبين سلوك الامام الحسن عليه السلام حين نجده يملك - في الظاهر - جيشا مجبا

وسلاحاً ضارباً يصل به الأمر إلى أن يصلح عدواً لا يقل عن ذلك العدو الأول انحرافاً وطغياناً بل يزيد عليه أنه سبب كل الانحرافات ثم ليقول ﷺ إن الذي فعل هو خير لشيئته مما طلعت عليه الشمس.

أو أن نجد الإمام الكاظم ﷺ يؤنب أحد أصحابه على أنه أكرى جماله للخليفة العباسي هارون الرشيد في سفر الحج لأن ذلك يستتبع أن يأمل صاحب الجمال بقاء الطاغية إلى المدة التي يستلم فيها أجرته، في حين نجد إماماً آخر هو الإمام الرضا ﷺ تعلنه الدولة العباسية ولياً للعهد والشخص الثاني في توجيه أزمة المملكة، أو أن نجد الإمام الجواد ﷺ يصاهر الخليفة.

وحتى يمكن تصور التعارض الظاهري بين إمام ظاهر منزو وإمام غائب عن الناس ينتظر الأمر الإلهي بالظهور، وهذا هو الذي حدث بالفعل في بعض الأذهان غير المنفتحة انفتاحاً واقعياً على حياتهم ﷺ.

وقد يبدو التعارض في حياة إمام واحد كالإمام الحسين ﷺ نفسه، فنجد أنه ﷺ قضى مرحلة من مراحل حياته صابراً محتسباً لا تبدو منه حركة ظاهرة قوية ضد النظام القائم. في حين نجده في الشطر الآخر من حياته يستعمل أقوى أساليب التحرك.

كل هذه النتائج الخطيرة وآثارها السيئة لا على نظرنا عن الأئمة ﷺ فحسب بل على الصورة الإسلامية التي لم نجد صورة أنقى وأروع مما عرضه منها في هذا المجال ولن نجد كذلك، كل هذه النتائج نابعة من تلك الدراسة التجزيئية الناقصة وعدم ملاحظة كل العناصر الداخلية في صياغة الموقف.

على أن ذلك سيكون مثاراً للطعن في كثير من السلوكيات الإسلامية التي قد نتأكد من أصالتها وصدقها اليوم أو تكون مستمسكة لكل من يريد سلوك طريق معين بل قد يكون أحد السلوكين مبرراً لعمل والسلوك الآخر مبرراً لعمل

آخر يناقضه تماما في ظرف واحد، أخذا بتلك النظرة البسيطة للأمور، وغفلة عن العناصر الدخيلة فيها. هذا على أساس الخط الاول.

المنهج الشمولي:

في حين ان الخط الثاني يكاد أن يكون على النقيض من ذلك باعتبار انه لا يتخلص من هذه النتائج فحسب بل يعمل على تربية نظرة أخرى تعرض الواقع الذي قدمه أهل البيت عليه السلام بأمانة ودقة، ومن ثم تعرض الاسلام الذي يتجلى من خلال تلك المواقف باعتبارها المصدر الذي يشكل الى جانب القرآن العظيم - وبمقتضى حديث الثقلين، كتاب الله والعترة - المسرح الوحيد الذي يمكننا ان نلاحظ فيه حركة منهج الله في الارض مجسدة في تعاليم خالدة، وعلى ضوء هذا المنهج يمكننا حينذاك أن نتأكد بالتفصيل بعد ان تأكدنا بالاجمال من ان كل امام منهم: قام باروع ما يمكن أن يسلك بملاحظة كل العناصر الدخيلة، وبحيث أننا نجزم بان الحسين عليه السلام لو كان في مقام الحسن عليه السلام لصالح ولو كان الحسن عليه السلام في مقام الحسين عليه السلام لثار.

وهكذا كل موقف سابق بدا لنا معارضا اذ يتحول بالتحليل من معارض الى متمم، وهكذا تتلاحم كل المواقف القيادية في حلقات طويلة متممة ما ان يتدرج الفكر معها بدقة ووعي حتى يصل الى أروع تشكيل تربوي قامت به فئة من خيرة البشرية بأمر من الله تعالى خالق الكون وبتسديد منه ومدد متواصل، واستهدفت السير بها سجحا الى حيث الغاية التي ارادها الله لها وعندها يحل اليوم الموعود.

الاستهداء بالسنة:

ويمكننا في هذه النقطة ان نستهدي بكثير من الاحاديث المباركة، ومنها الحديث النبوي الشريف الذي يقول في الحسينين عليه السلام: «امامان قاما أو قعدا». ومعنى (امامان) انهما يعبران عن أفضل سلوك واقعا يتطلبه الموقف، ويفرض على باقي المسلمين الاقتداء والاستهداء.

وكذلك الاستهداء بحديث الثقلين نفسه الذي قرن العترة الى الكتاب الكريم، فمن هذا القرن نستفيد امورا جليلة منها ما قررناه في هذه النقطة، وذلك ان القرآن الكريم ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾^(١) فهو ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ فهم عليه السلام يصدرون عن فعل واحد وقول واحد جوهرها وان اختلفوا مظهرها وجسمها والا فمن البديهي أن (صدور أية مخالفة للشريعة سواء كانت عن عمد أم سهو أم غفلة تعتبر افتراقا عن القرآن في هذا الحال، وان لم يتحقق انطباق عنوان المعصية عليها احيانا كما في الغافل والساهي، والمدار في صدق عنوان الافتراق عنه عدم مصاحبته لعدم التقيد باحكامه وان كان معذورا في ذلك، فيقال فلان - مثلا - افترق عن الكتاب وكان معذورا في ذلك، والحديث (يعني حديث الثقلين) صريح في عدم افتراقهما (الكتاب والعترة) حتى يردا الحوض^(٢).

وحول الحديث كلام قيم لا مجال له هنا فليراجع في مظانه.

كما يمكننا في صدد هذه النقطة ان نستجلي الكثير من الاحاديث كالتى

(١) هود: ١.

(٢) اصول الفقه المقارن ص ١٦٦.

تصفهم ﷺ بأنهم سفن النجاة^(١) وانهم امان للامة^(٢) وانهم باب حطة^(٣) وانهم قدوة هذه الامة^(٤).

فاذا استطعنا ان نجسد هذا المنهج اكتشفنا السر الكامن في التلاحم الجوهري بين مختلف انحاء السلوك والترابط الخلقى بين كل المواقف تماما كما نلاحظ ذلك ايضا في حياته ﷺ، فنحن نرى النبي ﷺ يعيش تارة مرحلة البناء العقائدي الفردي سرياً، ثم ينتقل الى المرحلة التي يعلن فيها دعوته الخالدة مستمرا في بنائه الفردي، متخذا مختلف المواقف الايجابية التي تتمثل في خط التعاون مع المجتمع في نواحيه الخيرة وتنميتها، والوقوف - ولو بشكل الرفض - امام الانحرافات القائمة فيه، كما نراه ﷺ عندما ينتقل الى مرحلة بناء المجتمع المسلم يتخذ مختلف المواقف فينتقل من الدفاع الى الهجوم، ومن الصلح الى الحرب الى غير ذلك، معبرا في ذلك عن (ايجابية مرنة وحركية واعية) تفرضها الحكمة في العمل، وهذا بالضبط ما سلكه اهل البيت ﷺ.

على اننا يجب ان لا ننسى ما اشرنا اليه سابقا من ان الدور المفروض لاهل البيت، والموقع المخطط لهم ﷺ من عملية التربية الكبرى للبشرية اختلف كثيرا عن الدور الذي فرضته عليهم الظروف بعد ذلك. وتوضيحاً لهذه النقطة نقول - بايجاز -:

ان دورهم انتقل من عملية الاستمرار بالتجربة الرائدة وايقاظها الى الهدف المنشود واليوم الموعود الى عمليتي تفاد من جهة، ومواصلة من جهة اخرى:

(١) راجع كتاب المراجعات للامام شرف الدين.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

عملية تفادي صدمة الانحراف وتحول الحكم الاسلامي الى كسروية ضاربة
وقيصرية جشعة - كما هو في عهد الامويين - بما يستتبعه ذلك من عواقب وخيمة
الاثر واسعة المساقط السيئة في حياة ومسيرة المجتمع المسلم، وعملية مواصلة
المهمة الكبرى التي بناها عليه السلام.

ان كل هذه الامور الهامة لو اخذت بعين الاعتبار لما بقي ادنى شك في وحدة
السلوك. وسيأتي - انشاء الله - توضيح اكثر لهذه النقطة في الحلقات القادمة.

مستوى الصورة الفردية والواقع:

والحقيقة ان الخط الاول هو بهم عليه السلام الى مستوى هم ارفع بكثير منه. انه
نظر للامام عليه السلام مجرد انسان يكرم الناس كثيرا، ويسلم على الناس ويتحمل عذاب
السجن، وينفرج له الناس من هيئته وجماله وغير ذلك من الصفات الحسنة
والاخلاق العالية، وهذا كله صحيح اذا استثنينا منه عبارة (مجرد...) والافانا
نستطيع ان نجعل الى جنبهم اناسا اعطوا كل وجودهم للكرم، ومن الجمال ما
تحسده الحور وتتمناه.

ان كل تلك الصفات امر طبيعي الوجود في الامام القائد القدوة، ولكن
الاهم من كل تلك الصفات الوحدة السلوكية بينها جميعا، والاهم من الجميع ذلك
المجانب التربوي المخطط والاطار القيادي الذي صدر ضمنه أي سلوك مفروض،
ومع عدم ملاحظته سيفقد العمل عظمته وصورته المناسبة لمستواه.

وهل هناك اروع من عنصر القيادة البشرية المتجاوزة كل الحدود الزمانية
والمكانية والتي ترمي الى تنفيذ تخطيط شامل للبنىات الفردية والاجتماعية لمختلف
الاجيال؟!

ان تلك النظرة البعيدة الشاملة يعبر عنها امير المؤمنين عليه السلام في ما ينقل

عنه عليه السلام من انه لما اظفره الله بأصحاب الجمل وقال له بعض اصحابه: «وددت ان اخي فلانا كان شاهدا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. قال له عليه السلام: أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم. قال: فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في اصلاب الرجال وارجام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الايمان»^(١).
فاذا سلب هذا الاطار وسُـمِّرَ النظر على الواقعة مجردة ضاع الجمال وذابت الصورة الحقيقية.

ألست ترى - مثلاً - ان هندسة حوض ما بنفسها قد لا تحوي عناصر جمالية فاتنة ولكن اذا وضعته ضمن بناء مترف جميل، واطلعت على خصائصه العالية رأيته عقدا على صدر عذراء، أو وردة في بستان أغن.

وعلاوة على هذا نقول:

ان الباحث يختلف حاله في البحث عندما يحاول استكشاف الصورة السلوكية والفكرية للامام أمير المؤمنين والامام الحسن والامام الحسين عليهم السلام مثلاً، عنه وهو يريد استكشاف نفس الصورة عن حياة الائمة: الجواد والمهدي والعسكري عليهم السلام، فهو يستطيع ان يستقرئ معالم الطريق بوضوح في الاولين فيعرف الكثير من الجهات من تعامل اجتماعي الى اساليب تربوية الى منهج فكري في حياتهم ورغم روايات التشويه والتحريف التي لم يستطع بها الآخرون طمس معالم اطروحة الامام أمير المؤمنين عليه السلام في الحياة التي تستقي روحها وشكلها من الاسلام الاصيل، وكذلك الامر بالنسبة للامام الحسن عليه السلام وان حدثت بعض التشكيكات ولكن سرعان ما ينكشف جهل أصحابها.

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده ج ١ / ص ٤٤.

ولكنه يجد طريقه خافت الاضواء بالنسبة لبعض الائمة الآخرين عليه السلام، باعتبار قلة الروايات التي تتحدث عن الجوانب الاجتماعية والسلوكية لهم عليه السلام، بحيث لا تتناسب مع الدور الكبير الذي أدّوه في حياة الامة، والذي تكشف النصوص التاريخية عنه اجمالاً، ولا مع المركز العلمي الواسع الصيت الذي تكشف عنه تلك النصوص أيضاً.

فهذا التاريخ يحدثنا عن أن المأمون لما عزم على تزويج الامام الجواد عليه السلام من ابنته أم الفضل اعترض أقرباؤه الادنون وذوو الاطماع على ذلك ونهبوه أنه يخاطر بهذا العمل، فالامام بعد طفل في التاسعة وان أصر على ذلك فليصبر حتى يكبر الغلام ويتفقه في الدين، ويعرف شيئاً من العلم والادب وحينها علق المأمون بقولته الشهيرة: (انه لأفقه منكم وأعلم بالله ورسوله وسنته وأحكامه، وأقرأ لكتاب الله منكم وأعلمكم بحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وظاهره وباطنه وخاصة وعامة وتنزيله وتأويله فاسألوه فان كان الامر كما وصفتم قبلت منكم وان كان الامر على ما وصفت علمت ان الرجل خلف منكم)^(١).

وهنا تختلف الروايات فيما فعلوه، فمن رواية تؤكد انهم جمعوا علماء المحاضرة الاسلامية وفقهاء المتضلعين في مجلس، واحضروا الامام على حين غرة بعد ان أعدوا له مسائل كثيرة يصل بها البعض الى الآلاف، ولكنه يخرج من هذا الموقف والكل يشهد بعلمه الغزير وتفوقه الباهر، وتؤكد رواية أخرى أن ذلك كان مفتتحاً لمجالس عديدة تكثرت فيها الاسئلة المعدة مسبقاً، وكان يقود الحملة في توجيه الاسئلة يحيى بن أكثم قاضي قضاة الدولة العباسية، ولكننا نجد في النهاية مدعنا معترفاً بأفضليته وهو شاب يافع^(٢).

(١) تحف العقول: ٤٥١.

(٢) راجع المناقب ٢/ ٤٣٠، الهداة ٦/ ١٧٥، البحار ١٢/ ١٢٠، جلاء العيون ٣/ ١٠٦، صحيفة الابرار ٢/ ٣٠٠ وغيرها.

الفصل الرابع

الدور الاجتماعي الكبير لهم عليهم السلام

ولا شك في ان الائمة عليهم السلام كانوا يواصلون دوراً اجتماعياً وذلك بمقتضى وظائفهم القيادية، وكان هذا الدور كما سبق يتصف بوحدة الروح عند كل منهم، ويمكننا ان نستنتج ممارستهم لهذا الدور من القرائن التاريخية المتنوعة، ومنها ظاهرة الموقف الدامي للسلطة منهم جميعاً.

ظاهرة القتل والسم

وهي ظاهرة تستلفت الانظار حقاً، فاول ما يواجه الباحث في تاريخهم عليهم السلام ظاهرة القتل والسم، التي تشملهم عليهم السلام جميعاً، واول ما يطالع المرء العابر في الاماكن التي اتخذت ولاءها لاهل البيت عليهم السلام شعاراً ومشعلاً، سورة الحزن، ومضض الالم المرتسم على صفحات القلوب.

لم هذه الظاهرة؟ ولم يعبر احدهم عليهم السلام بقوله: «ما منا الا مسموم او مقتول»؟!

ان مصائبهم عليهم السلام تتراوح من سم زعاف يسقاه الامام عليه السلام دسيسة رخيصة، ليقطع امعاءه قطعة قطعة، ثم ليقضي على حياته، ثم ليخرج المجرم الحاكم - ساقى السم - خلف الجنازة يولول ويعول، ومعه عليّة القوم حفاة الاقدام، يخدشون الوجوه، الى حالة هستيرية تصيب الحاكم، فيأمر بجلب الامام عليه السلام في جوف الليل ليقترله وقد يبلغ الامر الى ان يسجن الامام سنين عديدة في سجون رهيبة مكبلاً بالسلاسل والاغلال، ثم يسقيه السم.

والمرحلة الفظيعة الاخيرة تتمثل في واقعة الطف المريعة، حيث، قتل سبط رسول الله ﷺ الحسين عليه السلام، بشكل يندى له جبين الانسانية، وصرع الى جنبه ابناؤه، واخوته، وانصاره القراء المجاهدون، ثم تصاعد الحقد حينما ذبح على صدره طفله الرضيع، وديست الجثث الطواهر بجوافر الخيل، وسيقت عقائل الوحي، حيث تتصفح وجوههن البلدان، وامامها الرؤوس الزواكي، يخضبها دم الجهاد القاني.

وهنا لابد ان يثور تساؤل مخضب: لم كل هذا؟ ألم يكن لهؤلاء الحكام طريق آخر غير ما سلكوه؟

ان مقامهم ﷺ السامي الذي حدثنا به التاريخ ومحبيتهم الواسعة الابعاد كانت تكفي لان تزلزل العرش، فالحاكم اذن يتوقع زوال ملكه - وهو كل شيء في حسابه - تماما بهذه العملية المجرمة التي يقدم عليها.

ألم يشاهد هشام بن عبد الملك - وهو يومئذ أمير - وكان يريد الطواف، فيمنعه الزحام من الناس، فينتظر كي يقل الزحام، ألم يشاهد انفراج الجمع الحاشد لرجل من احسن الناس وجهاً، واشد الناس ورعاً، ذي هيبة وجلال، فيلتفت إليه شامي ليسأله عن شخصية هذا الرجل المهيب، فيتظاهر هشام بعدم المعرفة، لينبري الفرزدق الشاعر المفلق مرتجلاً ابياته العصماء:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبیت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
الى ان يقول:

ان عُدَّ اهل التقي كانوا ائمتهم أو قيل من خير اهل الارض قيل هم
ألم يحدثنا المأمون نفسه عن موقف عجيب للرشيد فيقول:

«دخل موسى بن جعفر عليه السلام على الرشيد يوماً فقام اليه الرشيد، واستقبله

واجلسه في الصدر، وقعد بين يديه، وجرى بينهما اشياء ثم قال موسى بن جعفر لابي: يا امير المؤمنين، ان الله عز وجل قد فرض على ولاية عهده أن ينعشوا فقراء الأمة، ويقضوا عن الغارمين، ويؤدوا عن المثقل، ويكسوا العاري، ويحسنوا إلى العاني، وأنت أولى من يفعل ذلك.

فقال: أفعل يا أبا الحسن، ثم قام فقام الرشيد لقيامه، وقبل ما بين عينيه ووجهه ثم أقبل عليّ وعلى الامين والمؤمن فقال: يا عبدالله، يا محمد، يا ابراهيم، امشوا بين يدي ابن عمكم وسيدكم، خذوا بركابه، وسووا عليه ثيابه، وشيعوه الى منزله.

وعندما يأخذ المأمون العجب يسأل والده بلهفة عن سر هذا الرجل فيجيبه: هذا امام الناس^(١).

ولقد صدق الرشيد فقد كان الامام الكاظم امام الامة يقود قلوبها، تهواه لاجبايته العالية واخلاقيته المثالية ووعيه لمشاكلها وسعيه لحلها.

ألم يحدث سفر الامام الرضا عليه السلام من المدينة الى خراسان ضجة - يا لها من ضجة - لاستقباله، وقد خرج الناس عن بكرة ابيهم من مدنهم، وللاستفادة منه استعدت آلاف الاقلام وهللت مثلها قلوب؟!

فاذا كان الامر كذلك فلم كانت النتيجة كما سبق؟

لا يمكننا ان نفسر هذه الظاهرة بما فسر بعض الناظرين الى الامور سطحياً، مشوهين بذلك الواقع عن لا شعور احيانا وعن شعور في كثير من الاحيان، فلم يكن الحسد هو عامل التنكيل الوحيد في كل هذه الموارد كما يدعي البعض، اذ يرى ان المحكام اندفعوا لذلك، بما اعتمل في نفوسهم من حسد لمقامهم

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ / ص ٣٤١ رقم ٢٧٢ - ط الاولى ١٤١٣ هـ منظمة الأوقاف.

الرفيع، وقدرهم عند الله تعالى والناس. ان هذا لا يكفي مبررا لذلك، كما لم تكن بعض الحوادث التي ينقلها المؤرخون - سبباً لقتلهم عليهم السلام - علة كافية، وذلك من امثال حادثة أرينب المزعومة تلك المرأة التي تأمر يزيد، ليطلقها من زوجها فيتزوجها هو، لولا ان تدخل الامام عليه السلام ففشلت المؤامرة، مما اغاظ يزيد كثيرا، فصمم على فعلته الشنيعة، او حادثة السبق الكلامي الذي فاز به الامام الكاظم عليه السلام على الرشيد عند قبر رسول الله ﷺ، مما اوغر صدر الرشيد عليه، وهو يعلم من هو بشهادة ابنه المأمون في روايته المشهورة.

وغير ذلك من الحوادث الجزئية، من امثال حقد زوجة الامام عليه السلام لانه يجب غيرها مما دفعها لان تدس اليه السم بأمر الخليفة، اننا لو لاحظنا مجموع العوامل التي تفرض نفسها في صياغة الموقف لوجدنا ان تلك الامور ما كانت سوى محفزات وقتية، او مبررات مجردة - لو صحت - لتنفيذ ما يدور في خلد القائم على شؤون الحكم من مخططات جهنمية.

اذن ما هو السبب الاصيل؟

انه - كما اعتقد - يمكن فيما نحن جادون في عرضه، انه يكمن وراء مجموع الصفات الانسانية العالية، التي تجلت بأروع صورة فيهم، مما اهلهم كما سبق لان يكونوا ذلك الامتداد العظيم للرسول الكريم ﷺ، ومركزه القيادي التربوي للعالم، والاجيال كل الاجيال.

اعني ان وظائفهم القيادية، وعملهم المركز لتنمية الطبقات الرسالية الواعية التي تحمل على عاتقها عبء الرسالة، وتعطيها للامة بصورة واقعية، بعيدة عن الشوائب، وحينها يمكن للاشعاع الرسالي ان يجد له مساقط في قطاعات المجتمع المختلفة، وتستمر الشعلة الوهوب، ويثمر العمل جماعة منزهة عن المآثم تمتلك معالم اسلامية عالية سميت بـ (الشيعة).

ان هذا الموقف كان يعطيهم صفة ايجابية حركية فعالة لها آثارها الكبيرة التي لا تخفى على الحاكم، الذي يرى في ذلك خطراً على نظامه. انه كان يلاحظ انهم يمتلكون اطروحة الاسلام الصافي النقي لا غير التي تتعارض مع الخط التحكيمي الوراثي الجائر، للحكمين الاموي، والعباسي الذي انعزل عن الاسلام في مجال القيادة التربوية للمجتمع الى درجة كبيرة.

هذه الايجابية الصنّاعة هي التي كانت تقلق بال المحاكم، وتقض مضاجعهم فيلتمسون الخلاص بشقى الوسائل، حتى اذا اعيثهم السبل مدوا يداً يلفعها الخزي وقبضوها ملطخة بدم القادة العظام للانسانية^(١).

واستطيع - بعد تأمل - ان أقول: ان محاولة المأمون الخليفة العباسي المبرز التي انتهت بتنصيب الامام الرضا عليه السلام ولياً للعهد بعد ان شرط عليه الامام ان لا يتدخل في الامور العامة، اقول: انها كانت - بالاضافة لعوامل اخرى - محاولة غير موفقة للتعرف على هذه الاطروحة ووسائل عملها ومحاولة توعيمها على السطح وتلويثها بمظاهر الترف.

ومن ثم تفقد رصيدها الاجتماعي، الذي اصبح آنذاك قوة يحسب لها حسابها في مختلف الميادين، بعد ان حاولت العصور المتطاولة افناءها. وقد يدعي احد ان المأمون اراد ان يعيش الاطروحة نفسها بلا اي قصد ولكننا نقول انه فشل على أي حال، لانه كان يعيش عالماً يتنافى مع نزاهة

(١) يذكر الطبرسي في الاحتجاج ج ٢ / ص ٣٤٣ رقم ٢٧٢ رواية المأمون في فضل الامام الكاظم عليه السلام السالفة الذكر ثم يعقب عليها محدثاً بأن الامام لما اراد الرحيل ارسل له الرشيد مع الفضل مئتي دينار معتذراً بالضيق المالي، وحينما طلب الفضل الزيادة بادره الرشيد قائلاً: «اسكت لا ام لك! فاني لو اعطيته هذا ما ضمنته له ما كنت آمنه ان يضرب وجهي غداً بمئة الف سيف من شيعته ومواليه، وفقر هذا واهل بيته اسلم لي ولكم من بسط ايديهم واغنائهم».

الأطروحة وروحها الإسلامية الطاهرة.

وعلى أي فان فشله في الكشف، او التشويه، او السير هو الذي دفعه الى ان يكيد للامام عليه السلام في نهاية المطاف.

* * *

ومن القرائن الكبرى على الدور الاجتماعي للأئمة عليهم السلام قضية استخلاف المأمون للامام الرضا على ولاية العهد، فاصراره على ذلك كان يكشف عن احتياج الدولة الى السند الاجتماعي الضخم الذي يملكه الإمام عليه السلام بشكل قواعد ولاء واسعة في مختلف القطاعات من جهة، وخوف الدولة من جهة اخرى من ذلك العمل الدائب والاتصال المباشر للامام بالامة.

ومن القرائن - بالاضافة لما سبق - ما نلاحظ من اصرار الخلافة الاموية والعباسية معا على جلب الامام بين الحين والآخر او بين فترات طويلة الى مركز الخلافة، وهذا الامر جرى مع اكثرهم عليهم السلام. ولنا هنا ان ننقل رواية تحدثنا عن ان بريجة امام الحرمين في عهد المتوكل كتب اليه رسالة يذكر فيها انه لو كانت له في الحرمين حاجة فليخرج منها علي بن محمد (يعني الهادي) معللا ذلك بانه قد انتقاد له اكثر من فيها^(١).

ولابد بعد ذلك من أن نفرض ان الكثير من رسائلهم قد فقد ولم يصلنا، كما لابد ان نعرف أن الكثير من اساليبهم القيادية لم ينقل اليها. والذي نريد التنبيه عليه بعد ذلك ان المؤرخين كانوا آنذاك يفرقون بين

(١) البحار ج ٥٠ / ص ٢٠٩.

الدور الاجتماعي على الصعيد الرسمي، أي الصادر من مقام رسمي عال في الدولة، وبينه على الصعيد الشعبي، أي الصادر من انسان آخر، فهم يهتمون بالاول ونقله ويحملون الثاني وان كان ذا اثر بالغ في تكوين شخصية الامة.

وقد يكون ذلك قصوراً منهم باعتبار فهمهم الذي لم يتطور آنذاك فيبلغ ما نفهمه من وظيفة المؤرخ اليوم.

على ان نمو المذهبية التاريخية او التعصب المذهبي لدى المؤرخين بعد ان لم يكن واضحاً من قبل، له اثره الكبير في هذا التضييع وقد يثار السؤال: لماذا اذن لم يقوم المؤرخون الموالون لاهل البيت بمهمة النقل الدقيق عن حياتهم عليهم السلام؟

والجواب واضح في ضوء ما قدمناه من الفهم العام للوظيفة التاريخية اولا، وان وظيفة المؤرخ نفسها لم يكن ليفضلها احد منهم على وظيفة الراوي ثانياً، وواضح الفرق بينهما، لان نظرة المؤرخ في الاصل تعرض الوقائع وجزئياتها وقرائنها وتتسلسل معها ولو بصورة اولية، هذا بالاضافة الى تأكيد من اعتنى بالجانب التاريخي منهم على نقل الكرامات الكثيرة التي كانت تصدر منهم عليهم السلام.

ولا ننكر مطلقاً ان تصدر هذه الكرامات من اناس بلغوا هذه المرتبة العالية من السمو والقرب. لكن نقول إنها لا تملك خاصية الكشف بشكل واف عن الشخصية بكل جوانبها المتصلة بالمجتمع. ولا ننسى ان نشير الى الضغط العام الذي كان له تأثيره الشديد في فصلهم عليهم السلام عن الاضواء، ومحاوله عزل الامة عنهم، والتهوين من قدرهم، وتفضيل الآخرين عليهم، وبث الشبهات، الى غير ذلك.

الفصل الخامس

عنصران ضروريان لتحقيق
مقومات المنهج الشمولي

أ - عنصر الكلمة

فاننا نجد امامنا وبأيدينا تراثا فكريا ضخما قد وصلنا عنهم ﷺ جميعا، وهذا التراث الثر -بالإضافة الى انه يعطينا افضل صورة للاسلام مستقاة من القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ باعتبار انهم ﷺ كانوا يصرحون في كثير من الاحيان بأن احاديثهم تنتهي اليه وان علومهم كلها مستقاة منه -بالإضافة الى ذلك فانه يشكل الجزء السلوكي الاكبر لهم ﷺ بل يشكل المنهج الذي التزموه في سلوكهم، باعتبار أن الكلام يعبر عن شخصية الانسان واهدافه ومناهجه.

ويتأكد هذا المعنى في الموارد التي يتحمل فيها المتكلم مسؤولية كل حرف من كلامه، بل يعتبر كلامه دستورا عاما وخطابا بعيد النظر يستوعب بنظره الأجيال الآتية جميعها معبرا عن الواقع التشريعي الذي يمثله.

وكلنا يعلم بان القيادة البعيدة النظر والتي تقوم على اساس التربية الطويلة، تعطي تعليماتها وتنفذ مخططاتها الواسعة على اساس عملي تارة وفكري تارة اخرى، والاساس العملي يشكل قدوة للاتباع واسوة حسنة لهم، بينما يشكل الثاني المنهج والدستور الذي يتمسك بنصوصه لرسم طريق، او حل معضلة، أو اقامة بناء، او رد هجوم فكري مضاد.

كما يتأكد هذا المعنى عندما نعلم بأنهم يعبرون جميعا عن مضمون واحد دائما.

ان الكلمة قد شكلت الاساس الاعجازي الاول، وبها خلد العطاء

الاسلامي، وبها سيبقى حيا، وهي كذلك في حياة الائمة من اهل البيت عليهم السلام .
والحق انه لا معنى على الاطلاق لان فصل سلوك الانسان عن كلامه ثم
نحكم عليه.

ولاحديثهم عليهم السلام حديث طويل ممتع له مجاله الخاص به، ولكننا وددنا ان
نعرض بعض الاقوال التي توضح وتؤكد ما سبق من انهم عليهم السلام قد كونوا مدرسة
فكرية متميزة بالاضافة الى كونهم نيرا ثرا حتى لغيرهم من ائمة المذاهب
الاخري.

يقول ابن ابي الحديد في مقدمة شرحه على نهج البلاغة: (وما اقول في رجل
تعزى اليه كل فضيلة وتنتهي اليه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس
الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضارها ومجلي حليتها كل من بزغ فيها
بعده فمنه أخذ وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى) وهكذا بدأ ينسب مختلف العلوم
الاسلامية فينها اليه.

ويقول محمد بن طلحة الشافعي في الحسن عليه السلام: كان الله عز وجل قد رزقه
الفطرة الثاقبة في ايضاح مرشد ما يعاينه، ومنحه النظرة الصائبة لاصلاح قواعد
الدين ومبانيه، وخصه بالمجبة التي درت لها اخلاف مودتها بصور العلم
ومعانيه^(١).

وقال الزهري: ما رأيت افقه من زين العابدين وكان اذا ذكر علي بن
الحسين، يبكي ويقول: زين العابدين^(٢).

وقال عبدالله بن عطاء المكي: ما رأيت العلماء عند احد قط اصغر منهم عند
أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليه السلام، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة -مع جلالتة في

(١) مطالب السؤل / ص ٦٥.

(٢) تذكرة الخواص / ص ١٨٦.

القوم - بين يديه كأنه صبي بين يدي معلّمه^(١).

وقال الاستاذ محمد صادق نشأت الاستاذ بكلية الاداب بجامعة القاهرة:
(و خلاصة القول: ان دار الصادق عليه السلام كانت كجامعة كبيرة تموج بالحكماء واهل العلم، يجيب اسئلتهم ويحل مشاكلهم دون التفات الى نحلهم ومذاهبهم او فروقهم ومقاصدهم، وقد جمع اصحابه المتقربون اليه دروسهم في اربعمئة كتاب وسموها الاصول الاربعمئة)^(٢).

وقال ابن حجر الهيتمي في الصادق عليه السلام ايضاً: جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الائمة الكبار، كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانيين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني^(٣).

وعن الامام الرضا عليه السلام قال عبد القادر احمد يوسف: وتاريخ الامام حافل بجلال الاعمال، فمن علم لا يدرك مداه وعصمة متوارثة، وقدسية لا تضارعها قدسية في عصره...^(٤).

وعن الامام الجواد عليه السلام يقول محمود بن وهب البغدادي الحنفي: وهو الوارث لابيّه علماً وفضلاً واجل اخوته قدراً وكماً^(٥).

ويقول بختيشوع الطيب في الامام العسكري: هو اعلم في يومنا هذا بمن هو تحت السماء^(٦).

(١) البحار ج ٤٦ / ص ٢٨٦.

(٢) اشعة من حياة الامام الصادق ج ٣ / ص ٥٨.

(٣) الصواعق المحرقة / ص ١٩٩.

(٤) الامام الرضا / ص ١.

(٥) جوهرة الكلام / ص ١٤٧.

(٦) البحار ج ٥٠ / ٢٦١.

وبالتالي فانا نقول: اننا نحتاج لدراسة احاديثهم لامور كثيرة منها:

أ - رسم الصورة الاسلامية للحياة، باعتبارها الصورة التي تبناها الاسلام متمثلا في اهل البيت عليه السلام، وهذه الصورة كما هو واضح من الاجزاء المنقولة منها تملك كل خصائص الاسلام من عقائدية رصينة محركة الى أمل واع مترجم، ومن تخطيط مركز دقيق الى مرونة تتجاوز الابعاد الزمانية والمكانية الى غير ذلك.

ب - رسم الحقيقة لشخصيتهم عليه السلام باعتبارهم نموذج القائد السماوي الامثل.

ج - سد النقص الذي مربنا في المصادر التي توضح عملية التعامل الاجتماعي الواسع، والذي علمنا به على الاجمال، وضاعت بعض خطوطه التفصيلية. هذا هو العنصر الاول. اما العنصر الثاني فهو عنصر الاستنباط.

ب - عنصر الاستنباط

وأقصد منه ببساطة ما هو متعارف من قيام المستنبط من طيّ مراحل، واستفراغ وسع لاجل استنباط النتيجة، من صياغة وافترض قواعد عامة وملاحظة تطبيقاتها المختلفة واقامة البرهان على كلا الجانبين، الى حل التعارض الذي يبدو بين الروايات والترجيح بمرجحات معينة، الى غير ذلك. غاية الامر أنا نريد تعميم هذا الشكل ليشمل الجوانب التاريخية وبالحصوص حياة النبي العظيم ﷺ والائمة من اهل البيت عليه السلام مع ادراك واع لوجوه الاختلاف الموردي بين الموضوعات.

وهذا البحث ان لم يكن اهم من البحوث الجارية فهو قطعاً يسلك نفس المبررات التي تملكها هي.

ومن هنا فاننا ندعو الى هذه التسرية الاستنباطية للجانب التاريخي

وللاعتدال على التقدم الرائع الذي حققه العلماء - قدس الله اسرار الماضين منهم وحفظ الباقيين - في علوم اخرى، مع اعطاء البحث الصفة التاريخية الخاصة به.

ولا نلتفت هنا الى من يشكل بان هذا يعني ادخال العنصر الذاتي من نظر المستنبط الى الصورة المأخوذة بعد ان كان هذا هو الطريق الوحيد الذي بنى الافراد عموماً عليه تصوراتهم، والذي هو اقرب من غيره الى الواقع الذي نطلب، وهو على اي حال افضل من النظرة الفردية الناقصة.

ونفس الاسباب التي بررت بل حتمت دخوله الى عالم الاحكام الشرعية، بل النظريات الاسلامية العامة، نفسها تحتم علينا اعماله في هذا الجانب.

وكما نجد امامنا خبرين متعارضين في حكم شرعي فاننا نجد امامنا الاخبار المتعارضة في قضايا تاريخية مصيرية فهل يعني هذا السكوت امام هذا التعارض؟ وهذا الاقتراح شيء تستلزم ترجمته الى وجود حي أن تفرض قواعد مسبقة مبرهن عليها ويسود الحذر الدقيق في التطبيق. وبعبارة أخرى هي اقرب الى المقصود فاننا نحتاج الى (فلسفة تاريخ) لا الى (عملية تاريخ) فحسب وواضح الفرق بين الامرين.

فالمؤرخ يعني 'غالبا بسرد الوقائع التي يشاهدها أمامه على المسرح، ولربما حاول ان يربط بينها نوعاً ما ربطاً يعتمد كثيراً على الظواهر.

في حين يقوم (المستنبط) او (مفلسف التاريخ) بافتراض عامل او عوامل وراء الحركات الظاهرة، فيبحث عنه حتى يصل الى الخيوط المرشدة، او يتغير رأيه الى افتراض آخر، وقد ينتهي في النهاية الى نتيجة تقرر عدم الترابط مطلقاً بين الاحداث وكل هذه المواقف تعبر عن موقف فلسفي معين لا يهم المؤرخ ان يتعرف اليه.

وهكذا نعلم بأن الامر دقيق المسارب ولا يقوم به الا المختصون الواعون.

يد التحريف السوداء

التحريف في مختلف المجالات - وخصوصاً في مجال عرض شخصية قائد ذي منهج واتباع تشدهم رسالة معينة - اخطبوط فظيع، وهدم قاتل، له التأثير العميق المناسب مع حجم تأثيرات الشيء المحرف.

والموضوع دقيق عميق يحتاج الى وقت كاف، واصالة حتى تمكن الاحاطة بملاساته ولذا فلن نتعرض اليه الان بكل أبعاده.

ولكن يمكن الاشارة الى تأثيرات التحريف الذي طرأ - مثلاً - على صورة المسيح العبد المطيع الانسان، فحواله الى إله تتجسد ربوبيته هكذا لاجل ان تصلب فداء لخطيئة عبد من عبيده، بل عبر بعضهم عن هذا قائلاً:

«ان الله تمجد حين تجسد» ويا للتناقض العجيب. كل ذلك القى ظلاله الرهيبة على التاريخ، وصاغ تلك الصور الغريبة من التضارع بين الآراء المتحررة، والمواقف الشاذة للكنيسة مما خلق انحرافاً وتياراً عالمياً ثائراً على الدين بلا تمييز. وقد ابتلى الاسلام بهذا المرض الغريب الخبيث في بعض رجالاته العظماء اولاً، وفي بعض تعاليمه ثانياً. مما اثر أثراً بالغاً على المسيرة الصاعدة المنتظرة من الامة في اطار تعاليمه - وان لم يبلغ ذلك شأواً الاثر السابق لتحريف صورة المسيح، بل كان بينهما بون بعيد.

فقد رأينا الايدي تمتد عن شعور احياناً كثيرة، ولا شعور احياناً أقل الى شخصيات عظمى هي في طول مرتبة النبوة السامية.

صحيح ان التحريف تقريباً لم يستطع ان يغير من الصورة العامة له صلى الله عليه وآله لعوامل كثيرة - لا مجال لها هنا - ولكنه استطاع ان يغير ولو فترة من الزمن - الصورة الحية الناطقة لاهل البيت عليهم السلام وواقعهم المقدس الى صور تتراوح من حد الافراط الخيالي المحاد الى حد التفريط التسامحي المزري.

فبرزت في هذا المجال صور مختلفة لهم ﷺ فكانت الصورة الاولى تعالى في التقديس مغالاة عجيبة حتى بلغت بالامام علي امير المؤمنين عليه السلام تارة، وبالائمة الآخرين عليه السلام، او مجموعهم تارة اخرى، بلغت حدا يتجاوز حدود الانسان القصوى، بعد أن انسقت وراء تخيلات كاذبة، وبهرتها جوانب العظمة فيهم فلم تقاوم الغلو الطاغى.

وهذه الصورة حوربت حربا شعواء من قبلهم ﷺ، ومن قبل الواقع المنكشف بعد حتى ذابت تقريبا من الوجود، وان كانت تتواجد هنا وهناك بعض النظرات التي تمت اليها بوشيجة أو أكثر.

وكانت الصورة الثانية منحرفة ايضا، وهي تقول فيهم ما يقوله منطق الحسد المتراكم من جهة وشهوة الحكم الطاغية من جهة اخرى، وهما تتغذيان جميعا من منابع جاهلية بحتة، فحاولت ستر الحقيقة، كما تستر الشمس بالاكف، فبلغت في مجال التنفير ان اعلنت سبهم سنة على منابر المسلمين، ووزعت هنا وهناك باعة الضمائر الميتة، ممن يروون الاحاديث الموضوعة، الى ما هنالك من الطرق الرخيصة لهذا المجال.

ولكن هذه الصورة - رغم ما تبقى منها من مجالات اصبحت من بعد منفثا خطرا لانحرافات اكبر، وابتعاد فظيع عن منهج اهل البيت عليه السلام، ومجالات طعن للمستشرقين، وامثالهم - رغم كل ذلك فقدت وجودها بعد لأي حينما طلعت شمس الحقيقة، وظهرت الاقلام الشريفة العلمية وذابت قطع الظلام هاربة. وهكذا تتابعت صور محرفة.

وبقيت الصورة الواقعية المعبرة عنهم في كلمات متواضعة. أناس سمت بهم انسانيتهم الى ابعادها القصوى وجسدوا كل تعاليم الرسالة الاسلامية سلوكا واعيا، حتى كانوا لا يثقون بأن يقول فيهم القرآن الكريم: ﴿انما يريد الله ليذهب

عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴿١﴾.

ولا بأس هنا في ان نشير الى كتاب صدر لاستاذنا العلامة المطهري يتناول جانباً من هذا الحديث العام حيث يصور لنا القوة المجاذبة والقوة الدافعة للإمام عليه السلام على اساس ان المسلم الحقيقي يمتلك هاتين القوتين في آن واحد، فيجذب اليه الرعيل الطالب للحق ويبصر الغافل عنه بأساليب الدعوة الحكيمة، في نفس الوقت الذي يدفع عنه العناصر ذات العقلية المعقدة، والتي لا ينفع الاصلاح معها على تقدير المسلم المتزن، وقد كانوا - كما ينتهي اليه الكاتب - فرقتين هما:

أ - المنافقون المخضرمون

ب - المتدينون الحرفيون الذين بلورت عقليتهم واقعة عاطفية اختلفت فيها زاوية نظرهم مع الحق فصعب بعد ارجاعهم الى الحق الذي يروونه بملء اعينهم باطلا، ونموذج لذلك الخوارج المتميزون بالتعصب الشديد للفكرة ولو كانت باطلا.

جانباً الافراط والتفريط

وقد كان الاسلام واعياً تماماً لعوامل التحريف، فحسب للامر حسابه، وعلم ان التحريف سواء سار في خط الافراط او في خط التفريط فانه يؤتي ثماره البشعة ولذا لاحظ كلا الجانبين في اعداد الضمانات.

اما جانب الافراط: - وأقصد به تحوير الشيء الى حد اخراجه عن واقعه - فهذا من اول مصاديقه شخصيات القادة التي تبهر الانظار بأعمالها العظيمة، ووجودها المعجزة، فينساق البعض الى تقديسها المفرط، ويتنامى هذا حتى يصور لها القائد في شخصية إله.

هذا الجانب كان موضع تركيز من قبل الانبياء والائمة عليهم السلام لفضله عنهم بكل صورة، لانه في الحقيقة يؤدي الى نفس جهودهم من جذورها، وانخار المسيرة في دروب التيه والضلال.

فلاحظ التأكيد الشديد من قبلهم عليهم السلام على بشريتهم، وانهم أناس يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق، ولكنهم بلغوا مرتبة انسانية عالية اهلتهم لهذا المنصب كما نلاحظ في الآيات التالية:

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما ألهمكم الله واحد ﴾^(١).

﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولا ﴾^(٢).

﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلاّ بشر مثلكم ﴾^(٣).

وكذلك الائمة عليهم السلام حاربوا كل نزعة مغالية فيهم، واكدوا العنصر البشري فيهم.

والذي اعتقده ان من عوامل التحريف المهمة -بالاضافة لما سبق ولغيره - عامل المجدل العنيف الذي قد يدخل في طرق مسدودة احياناً بين ابناء الاديان، فيحاول كل ان يخطط الصورة التي في ذهنه عن الشخص حتى يصل بها الى تلك المرحلة الخطرة.

اذا عرفنا ذلك توضح كيف انهم عليهم السلام كانوا اكثر تعرضاً للتحريف، لان بعض من بدأوا معهم بداية طبيعية، ونظروا اليهم نظرة واقعية - هؤلاء - قد تبهرهم العظمة احياناً، ويُلجأوا الى النقاش - الذي هم ليسوا في مستواه - احياناً اخرى، وتصلهم روايات التشويه المغرضة فيقبلونها بكل ترحاب، ويشبعون بها نهمهم،

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) الاسراء: ٩٢.

(٣) ابراهيم: ١١.

٨٠..... من حياة أهل البيت عليه السلام

لضعف في شخصياتهم وجهل فطيع في ثقافتهم، ومن هذا وذاك يتم التحريف والتحويل.

وكونهم عليه السلام اشد تعرضا للتحريف نابع من انهم سيواجهون حينذاك رتلا من اعداء الاسلام الى جنبهم الاعداء المسلمون الذين لم ينغرس الاسلام فيهم، والذين غماهم الحسد والجهل، وحينذاك تكون ردود الفعل قوية لدى الاتباع. واما جانب التفريط : فان المنفذ الرئيس له يكمن في رواية (على الاصطلاح القديم).

وقد وضعت للوقاية من هذا الجانب ضمانات اهمها التأكيد الشديد له صلى الله عليه وسلم ولهم عليه السلام على ضبط الحديث، ونقله بأمانة، وملاحظة الراوي ملاحظة دقيقة، وذم المتقولين، والوضاعين الذين باعوا ضمائرهم للشيطان، ليشتروا بها ثمنا قليلا. ما اتفقه تجاه ما ابدعوه من ضلال.

وكان ان ورد الذم الشديد لعمل القصاصين الذي كان منفذا لهذا الجانب ونكتني في هذا المجال بذكر بعض النصوص التي أكدت على ذم هؤلاء وحرمت الاستماع اليهم.

فعن الصادق عليه السلام «لعنهم الله انهم يشيعون علينا»^(١).

وسئل عليه السلام عن القصاص أيحل الاستماع لهم؟ فقال: «لا»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ان امير المؤمنين رأى قاصا في المسجد، فضربه وطرده»^(٣).

ومما يجدر بالذكر ان نشير هنا الى ان النهي عن القص لا يعني النهي عن

(١) البحار ٦٩ / ٢٦٤.

(٢) البحار ٤٥ / ٢٦٤.

(٣) البحار ٦٩ / ٢٦٥.

القصة مطلقا، فالقصة من اعظم وسائل ايصال المفاهيم الفعالة الى الآخرين، وهي التي استعملها القرآن الكريم اروع استعمال، وكذلك نفس المعصومين في ايصال مقاصدهم، وانما غرضهم اولئك الوضاعون الذين كانوا يملأون المساجد بالثفاهات المجة لاجل غايات مشبوهة او تكسبية، في حين كان المسجد يشهد نموا حركيا فعالا للعقليات التي ستصنع الحضارة التي انبعثت منها رغم بعض الانحرافات فيها - وفيها الكبيرة - كل حضارات الارض التالية فكيف بها لو بقيت على صورتها الحقيقية.

ولو استرجعنا تلك الصورة الكالحة، التي عرضها بعض تواريخ الخلفاء^(١)، وقارناها بتلك الصورة التي رسمناها لاهل البيت عليهم السلام، لرأينا البون شاسعا، ولأيقنا بأن عين الله هي التي حفظت لنا الصورة ذخرا، وقدوة، ورحمة وابتقتها لنا من بين هذا الركام العجيب من التصورات الخاطئة، نبراس حياة، ومنهج انفتاح على السعادة.

في الظلام تتساوى الاشباح

كثيرا ما يمكن ارجاع الآراء المختلفة الى رأي واحد بعد عملية تجميع سهلة أو معقدة، فاذا بالكل وهم متفقون على شيء واحد، وان بدا أول وهلة انهم مختلفون، كل ذلك لانهم لم يحددوا منذ البدء نقطة الخلاف، او (محل النزاع) باصطلاح الاصوليين من العلماء، وهذا امر له مبرراته ولكن الصعب المستصعب ان تقنع انسانا ينظر في الظلام الى الاشياء لا يرى منها الا شبحيتها الماثلة امام عينيه عبر الآفاق السوداء المترامية، يراها متساوية تماما تعبر نقاط الضوء

(١) اكثر مؤرخينا القدامى يكادون ان يكونوا مؤرخين للحاكم، اما الشعب فهو كمية مهمة، لذا ندعو الى تاريخ سليم يؤرخ للصفات الانسانية قبل الخليفة.

عبوراً باهراً، حتى انها لا تدع مجالاً لان يميز بينها.

اقول هذا لان البعض نظروا الى اهل البيت عليه السلام هكذا في الظلام، ظلام البقايا التقليدية، والصور المتوارثة، فلم يستطيعوا تبين تلك المعالم المميزة لهم عليه السلام عن غيرهم.

﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين﴾^(١).

والحقيقة ان الموضوعية اليوم وقبله كانت شعارا يرسمه الكثيرون اوسمة على صدور كتبهم، ولافتات كتبت بعبارات بارزة للاستهلاك. فما ان تمضي مع الكتاب لحظات حتى يتجلى لك البرهان الساطع على انتفائها او اختفائها وراء حجب من سراب.

ان الموضوعية هي الظرف الملائم لاجتياز الموانع نحو الحقيقة، في حين تكون الذاتية ارتكاسا الى الوراثة، ودفعاً للحقيقة، لتجتاز الموانع وتدوس واقعها وتكون بالتالي مجرد مبرر - لا غير - لمصالحنا، واعمالنا نحن، فاقدة بذلك صفتها حقيقتها مجردة.

الخلاف الفكري والصراع العملي

وها آن لنا ان نشير الى ظاهرة خبيثة في اعماقنا نحن المسلمين - وان لم نختص بها نحن دون غيرنا - تلك هي عملية تحويل للخلاف الفكري الى صراع عملي، وسب وشتم، ونظرات احتقار، وتقسم وتوزع، وتآمر وانتقام، وهذا من اكبر علل الانحسار، وهبني اعتقد شيئاً.. وتعتقد خلافة، وهب انك بنيت على اسس لم ابن عليها، لانها وفق ما انتهيت اليه خاطئة، فهل هذا يبرر ان تنتشائم

او نصطرع ونحن جميعا يؤطرنا اطار التوحيد والاسلام؟
اترى ذلك يعطي احدنا الحق في تعيين مصير الآخر عند الله مما يخدشه
بمقدساته؟

فلندع - عزيزي القارئ - خلافا يثمر على صعيد الفكر، ويوقننا معا على
صخرة الحقيقة، فعساها تكون معي، أو تكون معك.
أليس هذا قرآنا العظيم يعلم الرسول الاكرم ﷺ اسلوبا في المحاوره ما
أروعه حينما يقول على لسان نبيه ﷺ مخاطبا الذين لا يؤمنون: ﴿وانا او اياكم
لعلى هدى او في ضلال مبين﴾.

الست تعتقد معي ان هذا الانزال الى مجال الصراع العملي يقضي على
التعقل والموضوعية، فتضيع الحقيقة بين العواطف الثائرة من جهة، وردود الفعل
القوية من جهة اخرى؟

ألست تعتقد معي ان من اسباب هذه العملية ان يحاول من ليس هو بأهل
للتقاش - لانه لا يملك اولياته، ولا يعرف مسالكه وفوق كل ذلك لا يدري ما هو
الهدف - يحاول ان يظهر نفسه بأكبر مما هو عليه؟!

اصحيح ان ينبري طالبان في المرحلة الثانوية فيناقشا نظرية النسبية مثلا؟
ان صح هذا فعلى العلم ومراحله السلام.

ان على كل طائفة تسعى نحو الحقيقة ان تؤدب اتباعها بأدب الاسلام، وان
تهذب عامتها بحيث يعون حقيقة واحدة، هي التي يؤمل لها ان تقود البشرية الى
الخير، ومن ثم يتركون الخلاف - ان لم يكونوا اهلا - الى المفكرين، وحينها يتجلى
النهار.

تلك الحقيقة هي «الاسلام» دين الرقي، والتعاون، والسعادة.

الفصل السادس

قواعد البحث المنطقية

في هذه الحلقة من الدراسة نحاول ارساء البحث الانفاً على قواعده المنطقية وتحسيس البعض من الباحثين بموارد نموذجية فاتهم ان يلتزموا فيها بتلك القواعد فوقعوا في اخطاء بعيدة الاثر في تصوراتهم عن اهل البيت عليه السلام، ومدرستهم الفكرية والعلمية^(١).

(١) يحلو للبعض من الباحثين (المتفرنجين) الذين تأثروا بنظريات التطور، التي اصبحت شعار هذا العصر، ان يتحدث عن تطور مدرسة اهل البيت فكرياً فينقلها من دور لا تزال فيه غير واضحة المعالم، وانما تعتمد وهي اسيرة قوى على مجرد عاطفة سطحية، الى دور تفرضه الظروف عليها، فتكتلها في مجموعة سياسية منظمة، الى دور آخر، تجد المدرسة لنفسها حاجة ملحة في خلق اطروحة متفردة فتعمل لايجادها.

وهذا القول لا يعبر عن الواقع أي تعبير ان اريد منه الجانب الموضوعي من المدرسة، ولم يقصد منه ملاحظة اسلوب العرض، بل ان الباحث ليجد الاطروحة عند الامام الهادي مثلاً تماماً كما يجدها عند النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم والامام امير المؤمنين عليه السلام والفارق - ان دققنا في الامر - يكمن في اسلوب اعطاء اطروحة من قبلهم عليهم السلام فكلنا يعلم انه قد مرت الامة بظروف عصيبة وملايسات جعلت من البعيد عن الصواب ان تلقى الاطروحة بكل معالمها الى الامة وعلى صعيدها العام، نظراً لاستلزام ذلك الذهنية المحددة لمركز الائمة من اهل البيت عليهم السلام بوصفهم أناساً اوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرجوع اليهم بأمر منه تعالى.

فاذا اضعنا الى ذلك ما هو الواقع من ان اطروحة مدرسة اهل البيت لم تكن الا تعبيراً عن الاسلام الصافي من كل شائبة والمطهر من كل زيغ، وتأکید اهل البيت على ذلك، عرفنا ان مدرسة اهل البيت واطروحتهم عن الاسلام لم تكن شيئاً جديداً حتى يختمر في الاذهان، كما تخيل البعض. اما ما نراه من التأکید الشديد على هذا الجانب في كلمات الائمة الباقر والصادق والكاظم عليهم السلام مثلاً بالشكل الذي لا نجده في كلمات الامام الحسن عليه السلام مثلاً فانه تابع كما قلنا للوظيفة المرحلية التي أداها أولئك في عصرهم عليهم السلام بعد ان كانت نفس الوظيفة تستدعي شكلاً آخر من العمل من قبل، وهي وظيفة اعادة الذهنية الاسلامية الصافية واستعادة النظرة الواقعية التي اعطاها القرآن والنبي الكريم لاهل البيت عليهم السلام بعد ان عمل الامويون لتشويه الصورة بكل ما يستطيعون، فمعرفة مركز قائد اية اطروحة ضروري جداً للبدء بعملية طرحها.

وسنرى بعد ذلك، ان كل ما ادعي من عقبات موهومة في سبيل توحيد فهمنا لهم وبالتالي توحيد مسيرتنا نحو الحق والخير، وان كل ما تلبد به أفق الاخوة الاسلامية من جراء ذلك، ما هو إلا خيال، وسراب، او سوء فهم، كان يمكن ان نتلافاه ونحن في حلق صراعنا مع العدو، وفي عز معركتنا مع التخلف المرير، والتآمر العالمي المنظم على وجود امتنا، الذي يستهدف تمزيقها إرباً، كي يتمهد له طريق افنائها كما نلاحظه اليوم بوضوح.

قواعد البحث المنطقية ومدى تطبيقها

وهذا البحث ضروري لأية دراسة في أي مجال بصورة عامة، واكثر ضرورة بالنسبة للدراسات التاريخية والاجتماعية، بصورة خاصة، وذلك تبعا لطبيعة هذه الدراسات واعتمادها الكبير على عنصر الحدس والافتراض في احيان كثيرة مما يؤكد ضرورة التقيد بقواعد عامة، تكون بمثابة صمام الامان، كي لا تنحرف الدراسة عن مسيرها، فتخطئ هدفها المنشود منها، وقد تنقلب على هدفها نفسه.

ولئن كنا من قبل قد اشرنا اشارة عابرة الى بعضها، فانا هنا سنحاول استقصاءها أولاً، ثم توضيح بعض الموارد التي انحرفت فيها، فأدت الى ما لا تحمد عقباه، وان لم يكن مقصودا لبعض الباحثين.

فنحن نعترف بان الكثير منهم طلبوا الحق وان كانوا اخطأوه و (ليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فادرکه) كما يقول امير المؤمنين عليه السلام في معرض النهي عن قتل الخوارج من بعده^(١). ويمكننا ان نقرر اهم هذه الخطوات

(١) نهج البلاغة ج ١ / ص ١٠٨ شرح عبده.

العامّة في ما يلي:

- ١ - تحديد مركز البحث، ونقطة البدء.
- ٢ - مراعاة التناسب بين المقدمات والادلة، والنتائج المراد حصولها.
- ٣ - تواجد مقومات المستوى الذي يتلاءم والمشكلة المبحوث عنها.
- ٤ - توفر الموضوعية في الطريق ما بين البدء والنتيجة.
- ٥ - تحديد المسلمات الفكرية التي يؤمن بها كل من طرفي البحث المتناقضين.

ولئن لم يكن المجال المخصص قادرا على ايفاء هذه الخطوط حفظها من التوضيح وما لها من تطبيقات متكررة في مختلف الحقول العلمية، فانه يسعه - ان شاء الله تعالى - ان يشير الى موارد انتقاضها من قبل بعض الباحثين في خصوص موضوعنا (اهل البيت) عليهم السلام تاركا التفصيل الى مكانه.

أ - تحديد مركز البحث

ويسميه علماء الاصول بـ (تحرير محل النزاع).
فما يبعث على الالم والامتعاض احيانا، وعلى السخرية اخرى، ان نجد طرفين يتنازعان في قضية معينة، فتصرف الجهود، وتبذل الاوقات، وقد ينجر الامر الى الصراع العملي متجاوزا حدوده الفكرية المفروضة، ثم يصحو الطرفان بعد مدة، فاذا كل يشير الى جانب مغاير للجانب الذي يشير اليه الآخر.
ويعود النزاع الذي كان يظن انه مستحكم، نزاعا لفظيا عقيما.
ذلك لانهما لم يحددا منذ البدء ما هي القضية المتنازع عليها بالضبط، واين يكمن الخلاف في وجهات النظر، وانما اکتفوا بالصورة الظاهرية للالفاظ، فرتب كل منهم ما يتصوره من لوازم على احد الوجهين، وانجر النقاش، وهذا بالضبط ما

٩٠ من حياة أهل البيت عليه السلام

لاقت منه دراستنا الامرّين في مختلف المجالات، مما خلق بعد ذلك نوعاً من السفسطية الجدلية، والمحلّ الفكري، لاجل دعم الفكرة التي قد يقتنع حتى اصحابها بخطئها، ولكن تعوزهم الجرأة الادبية الى التراجع عنها، وهذا - لعمرى - اكبر الادواء.

وقد سبق أنه يمكن ان يعثر المرء على الكثير من الامثلة لذلك، ولكننا سنكتفي بعرض امثلة ثلاثة نجدها عند من ارخوا لحياتهم عليه معبرين ذلك المهمز الذي يمكن ان يوجهوه اليهم، ونقطة الضعف الكبرى التي يمكن ان تصممهم - والعياذ بالله - بانهم ربوا شيعتهم، واتباع اطروحتهم على بعض الاخلاق، والمبادئ التي خلقت فيهم ما يرفضه الاسلام مثلاً. وهذه الامثلة هي:

١ - التقية.

٢ - حب اهل البيت عليه السلام.

٣ - الامام المهدي عليه السلام.

المثال الاول: التقية بين الاثبات والنفي:

وقد تبني اهل البيت عليه السلام هذا المبدأ خطأ عاماً يتناسب مع جميع الظروف المختلفة ونادوا به على اختلاف. طبعاً في جانب التطبيق تبعاً للاحوال التي كانت تحيط الامة، تجهها تارة وانفراجاً اخرى.

ففي حين نجد ان البعض يصرون على ان هذا الخط يعتبر من الامور التي رفضها الاسلام، واعتبرها علامة على (النفاق) أو (العمل السري المخاتل) و.. الى غير ذلك من النعوت حتى ان البعض منهم - ولا داعي لتسميتهم - جعل هذا المبدأ العقبة الكأداء الرئيسية في سبيل الوحدة الاسلامية والتعرف، وانفتاح المذاهب الاسلامية على بعضها، وألف ونشر مؤلفه بالملايين من النسخ، وتبرع اهل

الاحسان بالمبالغ الطائلة. كل ذلك لاجل توعية المسلمين بهذا المبدأ (الخطر).
في الوقت نفسه الذي يصرخ فيه الواقع بالمسلمين ان يتبرعوا للمجهود
الحربي لقتال اعداء هذه الامة او مداواة جرحى المسلمين.

هذا في حين ذهب البعض منهم يفتش عن الجذور التاريخية العميقة للفكرة
ليجد لها عند بعض الاقوام والملل خيوطا حاولوا ان يمدوها الى التاريخ الاسلامي،
والى مدرسة اهل البيت عليه السلام بالذات كأحد المنافذ الواسعة لتلك المبادئ الغريبة
على الاسلام. وهكذا اتسعت الدائرة شيئاً فشيئاً، حاملة معها كل ما يتوقع من
البغضاء والشحناء والتناحر.

كل هذا ونحن نجد من جهة اخرى ان مدرستهم عليه السلام تؤكد هذا المبدأ وتصر
عليه، بل تعتبره من الضروريات الواضحة لأية عقيدة لها مساقطها العلمية في
حياة اتباعها، وانها الدرع الحصينة للفكر، والعامل المحقق للجو الصحيح الذي
تستطيع معه الفكرة ان تؤدي عملها وقد يأتي ظرف يأبى الله معه الا ان يعبد سرا.
ويعن للباحث - بعد هذا - ان يقع على سر الامر وهو يعلم ان في الامر
لسرا، اذ كيف يمكن ان تكون التقية (دينا) في الاسلام، على رأي اهل البيت عليه السلام
وانحرافا عنه على الرأي الآخر، وكلا الفريقين يستمدان عقائدهما من مصدر
واحد؟

وبعد ان يستعرض نصوص الطرفين وحججهم بتأمل وتدبر، وبروح
موضوعية مخلصه، يجد ان الطرفين يشيران الى جانبين مختلفين تمام الاختلاف،
اكتنف كلا منهما نوع من الغموض.. فعادا بالتالي شيئاً واحداً يثبت به البعض،
وينفيه الآخر.

ويجد ان الذي تبنته مدرسة اهل البيت، شيء طبيعي يسلكه اي عاقل قام
عنده البرهان القاطع على صحة الفكرة بما لها من بناءات فوقية وانعكاسات عملية

تستوعب جوانب حياته كلها، فنذر نفسه لها، وعمل جهده على تحقيقها ولكنه وجد نفسه في نهاية المطاف محاطا بظروف قاهرة عاتية تفرض عليه ان يتنازل كليا عما يعتقد ويترك بالتالي تطبيق كل القواعد العملية المبتنية على ما يعتقد.

فهو اذاً بين فروض عليه ان يختار احدها، وهي كما يلي :

١ - ان يستجيب لهذه القوة القاهرة، باكثر مما يتطلب منه الموقف، محققا بذلك كل اهدافها، فيترك عقيدته اولا، ثم يتجنب بالتالي كل جوانبها العملية التي تقوم عليها.

٢ - ان يصبر على الاحتفاظ بعقيدته التي اقتنع بها متنازلا تماما عن كل مقتضياتها العملية، حتى التي لا تتناولها يد البغي والقهر.

٣ - ان يحتفظ بعقيدته، ويلتزم بمقتضياتها، ومنها الدعوة اليها ونشرها ومحاولة تهئية الجو المناسب لتؤدي مفعولها بكل حرية. كل ذلك بالمقدار الذي يحقق له ضمانه البقاء عاملا لها، ورافدا لمدها المتنامي في النفوس، راجيا ان تنفجر الازمة بخسائر اقل، ونتائج اكثر لصالح القضية التي آمن بصحتها، وهذا ما يمكن ان يكون مرادا من التعبيرات الاسلامية المتكررة في هذا المجال، من امثال (الصبر) من جهة و(الفرج وانتظاره) من جهة اخرى.

٤ - ان يرفض بكل اباء كلا من التنازل عن العقيدة، والتنازل عن كل مقتضياتها، وحتى لو كلف هذا الاصرار أن يضحي الانسان بالنفس والنفيس.

وعندما نريد ان نختار أحد هذه الفروض لمثل هذا الشخص نجد ان الفرض الاول رأي غير وارد قطعا، فهو يتنافى على الاقل مع افتراض الايمان المسبق الكامل بالمبدأ، والتفاعل مع معطياته الحيوية، واقل ما يقال فيه انه لا يمتلك ما يبرره وليس هذا من دأب العقلاء ان يقوموا بأمر لا مبرر له، بل هناك دافع لعدم القيام به.

اما الفرض الثاني، فهو ايضا لا يمتلك مبرراته، وان كان اقل تعرضا للاشكال عليه، كالفرض الاول، ولكنه على اية حال التزام بلا ملزم، والا فالمفروض ان الضغط الخارجي يشبع بمقدار يدفعه من جهة، ويضمن بقاء الشعلة من جهة اخرى، ولا داعي لان يعطى فوق ما يتطلب، وما لديه من طاقة الضغط. والفرض الرابع وان كان يعبر بادئ ذي بدء، عن شهامة وبطولة، واصرار انساني رفيع، ومناقبية شائخة، الا انه لا يمكن ان يعد خطأ عاما يشمل كل الاحوال والاشخاص، بل انه يعتبر تصرفا له ظروفه الخاصة به، والتي يقدرها الانسان الواعي تقديرا دقيقا موازنا بين ما يقدمه، وما تحصل عليه عقيدته وقضيته من نتائج، فاذا رجحت كفة النتائج فحينذاك تتجلى تلك المناقبية العالية، ويقدم كل ما لديه مؤثرا او مضحيا بالنفس والنفس.

وهذا بالضبط ما نجده في ظروف نهضة الامام الحسين عليه السلام بالذات، حيث توفرت كل الدواعي القوية التي تتطلب تضحية عظيمة، وعلى صعيد القمة البشرية التي تتجاوز الابعاد الوقتية والمكانية لها وبعد ان تمزقت كل الموانع الموضوعية من القيام بمثل هذه النهضة الخالدة والتضحية التي لن ترى البشرية نظيرها اذا ما لوحظت كل العناصر الدخيلة، واكبر تلك الدوافع نداء الرسالة التي ديست مقدساتها وانتهكت حرمانتها.. والامة التي قضي على وجودها الرسالي من جهة، والمحاسب من جهة اخرى.. فلم يعد لها اي صوت مسموع.. او قيمة موجهة. كما وان اكبر الموانع يكمن في سياسة مؤسس دولة الامويين (معاوية)، التي كانت تتلبس بكل لبوس في سبيل اسباغ الصفة الشرعية على ما تقتضيه من مآثم، وعملیات اجرامية من طرف، وفي سبيل تحطيم كل حركة اسلامية ناهضة.. تعمل على توعية الأمة.. وتحسيسها بواقعها، وواجبها تجاه هذا الواقع من طرف آخر، وقد ارتفع هذا المانع في عهد الحسين عليه السلام باعتبار انكشاف زيف العمل

الاموي.. ووضح اهدافه.

وهذا نفسه نجده في مواقف الابطال من تلامذة مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام، من امثال حجر بن عدي الكندي.. وميثم التمار. وان تغير الهدف من التضحية هنا واصبح يستهدف ابقاء صوت اهل البيت - بالمقدار الممكن - مدويا في ضمير الامة، بعد ان حاول الامويون اطفاء كل اشعاعات اطروحتهم وفضائلهم بالمرّة عن طريق اساليب تشريع السب والطعن على المنابر للامام عليه السلام بشكل يأنف ان يسجله القلم.

والفرض الاخير - أي الثالث - هو الفرض الذي يبقى قابلا وحده لان يتخذ شكل سلوك عام.. ومبدأ مرّن دائماً.. وهو بالضبط ما تعنيه مدرسة اهل البيت عليه السلام من قولها: (التقية).

كما هو بالضبط ما يختاره اي مؤمن عاقل واع تماما لاهدافه، وهو بعينه ما نادى به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير ﴾^(١).

وهو ما طبقه الرسول العظيم محمد ﷺ في بدء مراحل حياته التبليغية، وعمله العظيم لارساء قواعد الاسلام.. اذ انتج ذلك العمل: (التقية) هذا الانفتاح العالمي على منهج الله.. ولعمري هل يمكن لاية دعوة عقائدية عامة، او حتى أية دعوة اصلاحية جانبية.. ان تقوم وتنمو بدون ذلك لو واجهت نفس الظروف؟ فن الخيال المتطرف، ومن مجافاة الصواب والمنطق، ان نندفع مثلاً مع الدكتور احمد امين فنقول إن (افضل طريق للاصلاح في مختلف الظروف أن ينهض القائد ومعه

اتباعه، ويتعرض للتعذيب والتنكيل، ويكثر اتباعه شيئاً فشيئاً، وأخيراً يصبح قوة لا تقهر، وعندها يكون النصر^(١). يقول الدكتور هذا المضمون، وهو يتناسى أنه ضرب من الطوبائية المغرقة، وخصوصاً حينما ندرك أبعاد بعض الظروف، التي تكون فيه السلطة مركزية، أو شبه مركزية، يستحيل معها إعلان أي رأي مخالف لها ولذوقها العام.. وهذا بالضبط ما اشتملت عليه سياسة العباسيين والامويين من قبلهم وهو مما لا يحتاج إلى إقامة دليل، أو عرض شواهد.

إن الأمر ليس بهذه السهولة والبساطة في الحركات الإصلاحية الجانبية.. فكيف به في مبدأ يعلن أن الحكم القائم أمر لا تبرره أية مشروعية.. ويثبت للامة المسلمة حقها في عزل من لم يقوم بالسير المستقيم على الصراط المستقيم؟.

إلى هنا نكون قد عرفنا بدقة ما يشتهه أهل البيت، وما يقصدونه من مبدأ التقية حينما أعلنوه شعاراً يجد له تطبيقاته الصارمة كلما اشتد الضغط المعادي.

أما ذلك المبدأ الذي رفضه الكثيرون من المؤرخين، فهو يرجع إلى العمل المخاتل للقضاء على الامة.. والتأمر على مكتسباتها العقائدية لأجل مصلحة شخصية رخيصة وهو أمر يتفق الجميع على رفض الاسلام له واصفاً إياه بـ(النفاق) تارة و(الزندقة) أخرى.

ولربما نوفق فيما يأتي لاستعراض موقف مدرسة أهل البيت عليه السلام الصارم - وخصوصاً الامام الصادق عليه السلام الذي ركز مفهوم التقية، وأرساه على قواعده - من أولئك الزنادقة، وحركتهم الهدامة التي ولدت لعوامل تخريبية.. مما كان له أبعد الأثر في دحرهم، والقضاء على شبهاتهم التي لاقت بعض الرواج من قبل الآذان غير الواعية.. مما يؤكد أن أهل البيت عليه السلام وبمقتضى وظائفهم العامة كانوا الدرع

الحصين الذي يدفع عن الامة الغوائل، ويرد عنها كل السهام.. ولولا هم لما استطعنا ان نحدد ما هو مسير هذه الامة^(١).

وعلى هذا فاذا نظرنا للتقية بمنظارها الواقعي نجدها تؤكد جانبين مهمين من جوانب هذه الرسالة الخالدة... وهما: «الواقعية» و«المرونة».

فالمبدأ - اي مبدأ - لا يستطيع ان يدعي لنفسه ضمان البقاء لفترة طويلة فضلا عن ضمان البقاء الى يوم القيامة، دون ان يعترف بضغوط الواقع ومتطلباته المختلفة من حين لآخر مع الاحتفاظ الكامل بالمعالم الحقيقية المميزة له، ودون ان يمتلك مرونة تتجلى في نفس مواد نظامه وبرامجه العملية.

ومن هنا.. فانا نعتقد بان مبدأ التقية الذي أكد عليه أهل البيت عليهم السلام هو تطبيق ايجابي واع للمبدأ القرآني ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ فهي تحقق لنا النتيجة المهمتين التاليتين:

١ - الاحتفاظ بالدعوة عقيدة حية متفاعلة، قد يكون للضغط نفسه أثره في تنميتها.

ب - توفير المناخ الملائم لعملها، في سبيل الانتشار في القلوب، والحفاظ على حياة العناصر البشرية، وهي المدد الضروري لانتشار أي مبدأ.

(١) من المناسب هنا ان نشير الى حديث خاص جرى مع الكاتب السيد ابي الحسن الندوي عندما قام واصحابه بزيارة قم المقدسة موفدين من قبل رابطة العالم الاسلامي الى هذه البلاد المسلمة، فلقد قال من جملة ما قال بعد ان وضع له هذا المفهوم:

(ان التقية بهذا المعنى ضرورة لكل عمل مخلص، يحاول ان يركز نظاما عاما قائما على اساس عقيدة مستوعبة).

وقال ايضا ما مضمونه: (اني اعتقد انه لولا أهل البيت عليهم السلام ووجودهم المعطاء، في العصرين الاموي والعباسي.. وهم يزودون الفكر الاسلامي، وينمون المعارف لكانت العقبات الكبرى التي مرت بها الامة كافية لتحطيم معنوياتها واضعاف عقيدتها، والانحراف بها الى سير لا يعلمه الا الله).

التطبيق الدقيق وشبهة الاختصاص

اما لماذا نجد هذا المبدأ الاسلامي واضح الخطوط وبهذا التركيز عند مدرسة اهل البيت عليهم السلام في حين لا نجد به هذا المستوى عند المدارس الاخرى؟ فان ذلك يرجع الى الظروف الحادة العصيبة، التي مرت بها هذه المدرسة التي مثلت جوهر الاسلام والتي احاطها بها المحكام الامويون والعباسيون على حد سواء الا في فترات خاصة لانهم وجدوا فيها الخطر الحقيقي، الذي يهدد واقع استغلالهم لهذه الامة وتلاعبهم بمقدراتها، وتحويلهم الحكم الى سلطة وراثية، لم يعرفها الاسلام بل وأكد على رفضها باجماع كل الراء في الامامة والحكم الاسلامي.

وقد حدثنا ابو بكر الخوارزمي في رسالة مطولة من رسائله عن ما لاقاه أهل البيت واتباعهم من ظلم وجور وضغط، فيقول مثلاً متحدثاً عن جور العباسيين:

«ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً أو مانوياً، ويقتلون من عرفوه شيعياً، ويسفكون دم من سمى ابنه علياً.. ويتكلم بعض شعراء الشيعة في ذكر مناقب الوصي بل في ذكر معجزات النبي، فيقطع لسانه، ويمزق ديوانه، كما فعل بعبد الله بن عمار البرقي، وكما نبش قبر منصور النمرى.. حتى أن هارون (صاحب العصر الذهبي) والمتوكل كانا لا يعطيان مالا ولا يبذلان نوالاً لمن شتم آل أبي طالب».

ويقول:

«يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها، ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها، وخارج مصر والاهواز، وصدقات الحرمين والحجاز، تصرف الى ابن أبي مریم المدني وإلى ابراهيم الموصلی، وابن جامع السهمي (وابن أبي مریم من ندمان الرشيد والآخراں مغنيان)».

ويطول بنا المجال لو اردنا التوسع اكثر في وصف ذلك الظلم..
وعليه فان التطبيق الدقيق والطويل زمانا هو الذي وضح هذا المبدأ في
سلوكهم عليه السلام وسلوك اتباعهم.. اكثر من غيرهم.. واوجد شبهة اختصاصهم عليه السلام
بهذا المبدأ دون غيرهم لدى هذه الازهار، مما خلق تلك الدعاوي الفارغة
والهجوم الذي لا مبرر له.. اذ يتوجه الهجوم الى مفهوم لا يقول به اهل البيت
مطلقا.. ويلتزم اهل البيت عليه السلام بمبدأ لا يرفضه اي واع للرسالة والعمل لها ومبادئ
هذا العمل على ضوء القرآن.

ولئن كنا قد اسهنا في الموضوع الى حد ما، فنحن نجده بالتالي يحتاج الى
بحث اكثر تفصيلا، لتوضيح الحقائق.. ويزول سبب قديم من اسباب سوء الفهم بين
المذاهب الاسلامية.. وتتوحد الجهود في وقت تمر فيه الامة الاسلامية باحراج
ظروفها وهي تصارع اعنى القوى الكافرة.. وتشتد المؤامرات على وجودها من
قبل اعداء الله والانسانية.

المثال الثاني: حب أهل البيت وآثاره العملية:

فما لا ريب فيه، ان النصوص الاسلامية، سواء كانت قرآنا كريما او سنة
نبوية شريفة، او احاديث مباركة عن اهل البيت قد تواترت على العموم في مسألة
ربط الامة المسلمة بأهل البيت عليه السلام برباط الحب والمودة.. حتى ان ذلك اصبح من
ضروريات الاسلام التي لا ينكرها الا مكابر او جهول.

فالقرآن العظيم يجعل مودة ذوي القربى - وهم اهل البيت عليه السلام^(١) - اجرا

(١) قال السيد الحجة شرف الدين في كتابه (الفصول المهمة): «اجمع اهل البيت وتوافق أولياؤهم في كل خلف على
ان القربى هنا انما هم علي وفاطمة وابناهما، وان الحسنة في الآية انما هي مودتهم، وان الله تعالى غفور شكور
لاهل ولايتهم، وهذا عندنا من الضروريات المفروغ عنها، وفيه صحاح متواترة عن ائمة العترة الطاهرة.. واليك =

للمرسالة الإسلامية وتبليغها، وذلك عندما يخاطب الرسول الكريم بقوله الكريم: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

ومما يروى عن الرسول ﷺ في ذلك ما جاء في تفسير الامام الثعلبي عن جرير بن عبد الله البجلي، من حديث مفصل عنه ﷺ جاء فيه: «الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له، الا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً».

ومما يروى ما عن الزهري قال: «سمعت انس بن مالك يقول: والله الذي لا آله الا هو سمعت رسول الله ﷺ يقول: عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب عليه السلام»^(١).

الى غير ذلك من النصوص التي لن نطيل بذكرها وانما تراجع في مظانها، ومنها الجزء ٢٧ الطبعة الجديدة من كتاب بحار الانوار للعلامة المجلسي. وقد ركز اهل البيت عليهم السلام انفسهم على مسألة الحب، ووردت احاديث كثيرة عنهم في هذا الصدد، حتى كان الحب شعاراً لمن وعى منزلتهم، واتبع اسلوبهم الحياتي في تطبيق الاسلام الحنيف.

الربط بينه وبين الحقيقة الكونية للحب:

لقد علمنا القرآن الكريم ان هناك اطارا رحيا عاما شاملا لكل انحاء

= ما هو ماثور عن غيرهم: أخرج أحمد والطبراني والحاكم وابن حاتم عن ابن عباس كما نص عليه ابن حجر في

تفسير الآية ١٤ من الآيات التي اوردها في الفصل الاول من الباب ١١ من صواعقه قال: «لما نزلت هذه الآية قالوا:

يا رسول الله من قرابتك...؟ قال ﷺ: علي وفاطمة وابناهما». وهذا الحديث اخرجه عن ابن عباس ايضا ابن

المنذر، وابن مردويه، والمقرئزي، والبغوي والثعلبي في تفاسيرهم، والجلال السيوطي في دره المنثور، والحافظ ابو

نعيم في حليته الحمويني الشافعي في فرائده وغيرهم».

(١) العمدة - لابن بطريق ص ٣٧٠ جماعة المدرسين.

الوجود يضم العلاقات المتواجدة فيها، من اسماءها، وهي علاقة الخالق بالخلق، الى ادناها من العلائق الشخصية والعائلية.. بل وحتى بين الانسان والطبيعة، وهكذا اراد الله تعالى للحب ان يسود، ومبرراته واضحة على ضوء العقيدة الاسلامية، واذا بدأنا بالاطار السامي بين الانسان كأفضل مخلوق ورب الانسان لاحظنا اروع علاقة حب تتفاوت درجاتها.. من حب يقوم على المصلحة، من زاوية نظر الانسان، ولكنه على أية حال حب جارف.. الى حب خالص واع، يعتبر قمة في هذا المعنى، انه حب الاولياء المخلصين، الذين لم يحبوا طمعاً أو خوفاً، بل غورا في الواقع القائم، وسبراً لابعاده وأعماقه.

والاسلام يمتلك خاصية جليلة هي انه يبدأ بالاشياء ببداية بسيطة، كإقامة حب على أساس مصلحي، ثم يرتفع بذاك الواقع الى مستوى يجعله جزءاً من كيان الانسان، ودافعا ذاتيا، يتحكم في سلوكه ويوجهه لصالح القضية الانسانية العامة. اما الحب من طرف الباري فهو ان كان يخلق في نفوس السذج من المؤمنين نفس الايحاءات البشرية عن الحب بين الكائنات، ولكنه في الواقع يعبر عن مرتبة من التعرض للعطاء الالهي بصورة اكثر قربا، والاختصاص بالرحمة والرضوان. هذا مع انني قد اجزم بأن الايحاء الاول حاصل حتى عند الكثير من المؤمنين الواعين ولكن بالنظرة الاولى، وهذا ايضا بنفسه هو المقصود.. اذ ان الحب حرارة ولوعة وشوق... ومن هنا نجد ان النصوص القرآنية الكريمة تركز على عملية خلق الانفعال وشد العواطف للباري جل شأنه، ولكل ما يرتبط بتركيز فكره في السبيل المستقيم الى حيث هدفه المنشود. وذلك من مثل الآية الكريمة: ﴿ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا﴾ * ويخرون للاذقان

يبكون ويزيدهم خشوعاً^(١). ﴿واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾^(٢).

ومن هنا ينطلق الباحثون الاسلاميون لاستعراض تطبيقات عملية لاسلوب مزج الوعي العقلي الخالص بالعواطف المبنية على اساس من توجيه صحيح مما يضمن لنا الموجّه الرائد، والطاقة الحرارية الدافعة.. وهذا ما تؤكده الآية القرآنية الشريفة: ﴿الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾^(٣). فالايمان لن يكون خالصاً الا اذا نفذ الى الشعور والعواطف والاحاسيس، فجعلها مؤمنة وجندها لصالحه، ويتصاعد ذلك الحب شيئاً فشيئاً خصوصاً بعد تصور المحبوب وعطائه بصورة اشمل.

نماذج من الحب في الكون:

اننا نجد القرآن الكريم يركز على ان الله تعالى يحب اصناف المؤمنين من امثال: (المحسنين، التوابين، المطهرين، المتقين، الصابرين، المتوكلين المقسطين، الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)، ويبادل المؤمنين الله بحبهم الجارف ﴿يحبههم ويحبونه﴾^(٤). كما يحدثنا عن علاقة الحب القائمة بين المؤمنين انفسهم ﴿يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا﴾^(٥).

(١) الاسراء: ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) المائدة: ٨٣.

(٣) الحديد: ١٦.

(٤) المائدة: ٥٤.

(٥) الحشر: ٩.

وقد اشتهر الحديث الشريف «انت مع من احببت»، معبرا عن الترابط العاطفي الذي شد العاملين نحو هدف واحد، وهكذا نصل الى حلقة الحب في الاطار العائلي ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

وقد قلنا ان الحب يصل الى مرحلة عاطفية بين الانسان والطبيعة. فقد ورد عن النبي العظيم ﷺ انه قال عندما رجع من غزوة تبوك وأشرف على المدينة: «هذه طابة وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه»^(١). ولهذه العلاقة مبرراتها وأثرها في تصور المسلم. هذا من جهة ومن جهة اخرى فانا نرى القرآن يقطع هذه الصلة بين الله والمنحرفين، فهو تعالى لا يحب: (المعتدين، الكافرين، الظالمين، من كان مختالا فخورا، من كان خوانا اثيما، المعتدين المسرفين، المستكبرين وغيرهم).

وكذلك ما بين الافراد المهتدين بهدى الله، والآخرين الذين استزلمهم الشيطان ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله﴾^(٢). كل هذا كان اسلوبا نظريا لتركيز الحب.

وقد اتبع النبي ﷺ اسلوبا عمليا مؤثرا لتركيز الحب، ويمكن ان نعد منه هذه العواطف المتأججة التي تحدثنا عنها الروايات نحو اهل بيته عليه السلام كالزهراء والحسن والحسين بشكل ظن البعض معه انه مندفع الى ذلك فقط بدافع عاطفي، ناسين ان كل حركاته ﷺ تعبر عن واقع تربوي معين، وانه كان يقوم بتطبيق عملي لأحد الاهداف الضرورية للمسيرة الانسانية بذلك.

كما ويمكن ان نعد من ذلك قيامه ﷺ بتقريب يد عامل مكدود، وهو يقول: «يد يحبها الله».

(١) سفينة البحار: مادة أحد.

(٢) المجادلة: ٢٢.

بل ويدخل في ذلك مسألة تقبيله ﷺ للحجر الاسود باعتباره رمز الصلة
بالسما.

والان اين تقع عملية حب اهل البيت من مراتب هذا الحب الواسع
الابعاد؟ ان حبهم ﷺ يستقي من نفس المبررات العامة لذلك الحب، ويصب من
حيث النتائج في نفس المصب.

انه الاسلوب الذي استهدف الاسلام بمنابعه ان يشد الامة بأفضل وعاته،
والنماذج الحيرة التي قدمها للامة كقدوة ومحتذى لها، فالمسألة كما تقدم مسألة بناء
عقائدي وعلمي للأجيال البشرية، وهذه المسألة تحتاج الى انعطاف حماسي للامة
نحو قائدها الذي يرى أن الاسلام افضل من يستطيع ان ينهض بالامر.

فبمقدار ايمانها الرصين بقيادته وانشادها العاطفي به يكون القرب،
وبمقدار قربها من هذا القائد واحتذاء اسلوبه مثلاً تتحقق النتيجة المرجوة.
فالانشاد بالنبي العظيم وأهل بيته يحقق الاقتداء، وبالتالي يحقق كل مبررات
الحب الالهي التي اشار القرآن اليها، كما يحقق اروع تلاحم داخلي بين فصائل
المؤمنين المهادفين الى هدف واحد... وهكذا نشاهد ان كل هذه الروافد تصب في
مجرى كماله، يقوم على ارواء المسيرة الانسانية بالري المطلوب، ويقودها نحو
اكمال المسيرة التي ارادها لها الله وهداها للاسلام كي يقودها في الطريق، ونعرف
ان غرس هذا الحب ضروري جداً لبقاء الاسلام والقيادة الاسلامية المؤهلة التي
تتجاوب معها الامة تماماً.

ضوابط ضرورية للحب :

والاسلام بمقتضى واقعيته واحاطته وعى ان الحب مع شدة ضرورته
باعتباره امراً فطرياً لا يمكن الاستغناء عنه، فالعالم بلا حب خواء وتفكك، ووعى

ايضا ان الحب في بعض درجاته ومساقطه قد يترك اثارا تؤدي إلى خلاف الغرض، لذا فاننا نجد قد قام بوضع ضمانات وضوابط لهذا الحب بما يجنب هذه العلاقة كل تلك المساوئ. انه أراد للانسان ان يحب «حبا انسانيا» لا حبا حيوانيا، والذي يميز الاثنين ان الاول «حب واع» والثاني «حب اعمى». ومعنى ان يكون واعيا هو ان يقوم على المقاييس العامة للاسلام وينسجم مع روحه السارية في مختلف المجالات، وان لا يتجاوز حدوده، وينقلب على اهدافه في تحريك الطاقات، ليكون سببا لتعطيل الطاقات، وفي تلاحم المسيرة الانسانية ليكون مسببا لتمزيقها، وفي حفظ سنن الله ليكون عاملا على نبذها والاستهانة بها. ومن هنا نجد ان الاسلام حارب الكسالى الذين اكتفوا بمسألة الحب عن العمل فقال: ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾^(١).

وحارب النزعات الرهبانية والصوفية التي تعتبر التجرد عن كل العلائق المادية والانفراد والعزلة من مبررات ومقتضيات الحب الخالص لله، فقال الرسول الكريم: «لا رهبانية في الاسلام» وجعل ذلك من نفثات الشيطان في القلوب كما قال الامام أمير المؤمنين عليه السلام لمن ظن من اصحابه ان الزهد يعني ذلك. ورد القرآن على اليهود والنصارى حينما تصوروا انهم احباء الله فهم ابناؤه في مواضع كثيرة منها:

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾^(٢).

﴿قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء الله من دون الناس فتمنوا

(١) المائدة : ١٨.

(٢) المائدة : ١٨.

الموت ان كنتم صادقين»^(١).

كما وهاجم بشدة مسألة تحمل الخطيئة التي بناها البعض على اساس من كون المتحمل محبوبا من قبل الله فهو يتحمل خطايا الاخرين فقال: ﴿ولا تزر وازرة وزر اخرى﴾.

وهكذا اقام الاسلام العلاقة بين الخالق والمخلوقين على اساس من الحب الواعي المحرك نحو تحقيق اهداف الله تعالى.

فمن خطبة للامام امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة يقول فيها: «عباد الله ان من احب عباد الله اليه عبدا اعانه الله على نفسه...».

«قد اخلص الله فاستخلصه، فهو من معادن دينه، وأوتاد ارضه، قد الزم نفسه العدل فكان اول عدله نفى الهوى عن نفسه. يصف الحق ويعمل به، لا يدع للخير غاية الا امها، ولا مظنة الا قصدها»^(٢).

وكذلك بنى العلاقة بين المخلوقين أنفسهم على هذا الاساس، وانها يجب ان تكون في اطار (الحب في الله، والبغض في الله).

فقد روي عن الامام الصادق قوله: «من اوثق عرى الايمان ان تحب في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله»^(٣).

وقال عليه السلام: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الايمان حتى يحب ابعد الخلق منه في الله، ويبغض اقرب الخلق منه في الله»^(٤).

وعلى هذا الاساس ايضا قامت علاقة الحب بين أهل البيت والامة لا غير،

(١) الجمعة: ٧.

(٢) نهج البلاغة ج ١: ١٥٢، خ ٨٧.

(٣) تحف العقول: ص ٣٦٢.

(٤) أعيان الشيعة ج ١: ٦٦٨.

١٠٦..... من حياة أهل البيت عليهم السلام

انها علاقة حب دافع نحو العمل بتعاليم الاسلام والسير على خطاهم في سبيل تحقيقه في كل نواحي الحياة.

فقد اعتبر اهل البيت في مجموع وصاياهم هذا التطبيق العملي للاسلام مقياسا للايمان ومعيارا لشدة المحبة لهم، وحاربوا الغلو والافراط حربا شعواء تجنبا لما سبق وان قلناه.

ولفظة «الشيعه» مأخوذة من التشيع والمتابعة المؤطرة بأطر الولاء والحب. * يقول امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «العمل العمل، ثم النهاية النهاية، والاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر، الورع الورع، ان لكم نهاية فانتوها الى نهايتكم، وان لكم علما فاهتدوا بعلمكم، وان للاسلام غاية فانتوها الى غايته، واخرجوا الى الله بما افترض عليكم من حقه، وبيّن لكم من وظائفه، انا شاهد لكم وحجيج يوم القيامة عنكم».

* روى الطيالسي عن الفضيل بن عثمان قال: «سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول: اتقوا الله وعظموا الله وعظموا رسوله ﷺ ولا تفضّلوا على رسول الله ﷺ أحداً فان الله تبارك وتعالى قد فضّله، واحبوا أهل بيت نبيكم حباً مقتصداً ولا تغلّوا ولا تفرّقوا ولا تقولوا ما لا نقول، فانكم إن قلتم وقلنا متّم ومتنا ثم بعثكم الله وبعثنا فكنا حيث يشاء الله وكنتم»^(١).

* وروي عن الصادق عليه السلام: «ادنى ما يخرج به الرجل من الايمان أن يجلس الى غالٍ فيستمع الى حديثه ويصدّقه على قوله»^(٢).

* وعن الامام علي بن الحسين عليه السلام قال: «كان علي عليه السلام والله عبداً لله صالحاً اخو رسول الله ﷺ ما نال الكرامة من الله الا بطاعته لله ولرسوله، وما

(١) بحار الانوار ج ٢٥: ص ٢٦٩.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٧٠.

نال رسول الله ﷺ الكرامة من الله الا بطاعة الله»^(١).

* وعن الصادق عليه السلام «ما نحن الا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضر ولا نفع، وان رحمتنا فبرحمته وان عذبتنا فبذنوبنا، والله مالنا على الله من حجة، ولا معنا من الله براءة، وانا لميتون ومقبورون ومنشرون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون»^(٢).

* ويقول: «وكذلك نحن الاوصياء من ولده عبيد الله لا نشرك به شيئا ان اطعناه رحمتنا، وان عصيناه عذبتنا، مالنا على الله من حجة بل الحجة لله علينا وعلى جميع خلقه»^(٣).

* عن محمد بن شريح عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام: «ان الله فرض ولايتنا واوجب مودتنا، والله ما نقول بأهوائنا ولا نعمل بأرائنا ولا نقول الا ما قال ربنا عز وجل»^(٤).

* واجتمع عند الامام الباقر عليه السلام ناس من بني هاشم وغيرهم فقال عليه السلام: «اتقوا الله شيعة آل محمد، وكونوا النمرقة الوسطى يرجع اليكم الغالي ويلحق بكم التالي، قالوا له: وما الغالي؟ قال: الذي يقول فينا ما لا نقوله في انفسنا، قالوا: فما التالي؟ قال: التالي الذي يطلب الخير فيزيد به خيرا، والله ما بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله من حجة ولا يُتقرب اليه الا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعا لله، يعمل بطاعته، نفعته ولايتنا اهل البيت، ومن كان منكم عاصيا لله، يعمل معاصيه لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغتروا - ثلاثا - أي قال هذه

(١) نفس المصدر: ص ٢٨٦.

(٢) بحار الانوار ج ٢٥: ص ٢٨٩.

(٣) نفس المصدر: ص ٣١٧.

(٤) نفس المصدر ج ٢٧: ص ١٠٢، ح ٦٥.

الكلمة ثلاثاً»^(١).

* وقال الامام الباقر عليه السلام: «ما شيعتنا الا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون الا بالتواضع والتخضع وأداء الامانة، وكثرة ذكر الله...»^(٢).

* وقال: «انما شيعة علي المتبذلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا، المتزاوون لإحياء أمرنا، الذين إذا غضبوا لم يظلموا، وإذا رضوا لم يسرفوا، بركة على من جاورهم، وسلم لمن خالطوا»^(٣).

* وعن الصادق عليه السلام انه قال: «فوالله لحدثني أبي: ان الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام فيكون زينها، فأداهم للامانة، واقضاهم للحقوق، واصدقهم للحديث، اليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه ويقولون: من مثل فلان؟ انه أدانا للامانة، وأصدقنا للحديث»^(٤).

* ومن وصية للامام الصادق عليه السلام الى أبي اسامة:

«عليك بتقوى الله، والورع، والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الامانة، وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة الى انفسكم بغير السنتكم، وكونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا، وعليكم بطول الركوع والسجود»^(٥).

نقطة الخطأ

ولقد اطلنا في نقل هذه الاحاديث لتؤكد - كما اكدنا مراراً - على الاطار

(١) نفس المصدر ج ٧٥: ص ١٨٧، ح ٢٨.

(٢) تحف العقول: ص ٢٩٥.

(٣) نفس المصدر: ص ٣٠٠.

(٤) المظفر، دلائل الصدق ج ٢: ص ٥٣.

(٥) السبيتي، حياة الامام الصادق: ص ٣٧.

الصحيح لما يقصده الاسلام من حب اهل البيت عليهم السلام وما ارادوه هم عليهم السلام من ذلك - وليس قولهم غير الاسلام - .

هذا في حين ان بعض المؤرخين تجاهلوا كل هذه الحقائق او غفلوا عنها، فجعلوا ذلك سبباً للغمز واللمز، بل وهدم المبدأ القرآني للمسؤولية العامة، وذلك من مثل صاحب ضحى الاسلام اذ يقول: «ففي الاعتقاد بان الحب لآل البيت والائمة غناء، اهدار ركن من اعظم اركان الاسلام وهو المطالبة بالعمل الصالح وارتباط الثواب به، والنهي عن العمل السيء وارتباط العقوبة به، اذ يكفي حب آل البيت ثم ترتفع التكاليف!!!»^(١).

والمرجو من القارئ الكريم ان يلاحظ ما يدعيه هذا الكاتب، وهل يتفق مع ما سبق من نصوص هي رشفة من بحر، وغيض من فيض في هذا المجال. والذي يبدو لنا بعد هذا، وبعد التجاوز عن اية سوابق ذاتية لأمثال صاحب هذا القول انهم نظروا للامر بعين واحدة، وفصلوا نصا معينا عن مجموعته المتكاملة ثم راحوا يبنون على اساس من هذا الاستنتاج الخاطئ، متناسين كل ما يمرون به من نصوص موضحة ومكملة.

ولئن كان هذا في بعض الامور خطأ فهو في مثل هذا الامر الذي يتعلق بالفهم الاسلامي الاعمق والقيادة البشرية المثلى يعتبر شيئاً تنتزه عن التصريح به. فصاحب القول آنفاً لاحظ رواية لابن بابويه القمي عن الفضل بن عمرو انه قال: «قلت لابي عبدالله: لم صار علي قسيم الجنة والنار؟ قال: لان حبه ايمان وبغضه كفر. وانما خلقت الجنة لأهل الايمان والنار لأهل الكفر، فهو قسيم الجنة والنار، لا يدخل الجنة الا محبوه ولا يدخل النار الا مبغضوه»^(٢).

(١) ضحى الاسلام ج ٣: ص ٢٣٥.

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٣٤.

١١٠ من حياة أهل البيت عليهم السلام

ثم يقول: «وكتب الشيعة مملوءة بالاحاديث والاخبار الدالة على هذا المبدأ»^(١).

ولا أدري كيف غفل عن جود هذا المعنى بكثرة في كتب السنة ايضاً، ويكفي ان يراجع المرء العمدة لابن بطريق ليلاحظ بعض ما يدل عليه. كما لا أجد أي مبرر لجعل هذا الحديث دالا على ما فهمه بعد ان جعل «حب علي عليه السلام» ايمانا، وهو في خلد الانسان المسلم لن يستكمل خواصه الا اذا كان متعديا الى مجال العمل.

ان حب علي عليه السلام ليس الا حبا لمبادئ علي، ولأطروحاته التي هي الاسلام بعينه بلا أية زيادة، ومتى عفا علي نفسه من الواجب حتى تفهم هذا الحديث كما فهمه هؤلاء؟!

ويبدو هذا واضحا بملاحظة هذه الجملة «لا يدخل الجنة الا محبوه ولا يدخل النار الا مبغضوه» فبشيء من التأمل وبإدراك للخطوط العريضة التي لا يختلف اثنان في اتباعها في الاسلام يبدو ان الغرض هو جعل ود علي عليه السلام كاشفا عن الاهتمام بهديه والسير على نهجه الوضاء، فهما خطان لا ثالث لهما: خط الحق وهو خط محمد وعلي والمؤمنين، وخط الباطل وهو خط كل من انحرف عن مبادئ الاسلام الحنيف فكان بمنزلة المبغض لعلي عليه السلام.

هكذا اذن لاحظنا ان ما ينفيه بعض الدارسين السطحيين شيء، وما يلتزم به أهل البيت ومدرستهم شيء آخر يقع على النقيض منه تماما. تعرضنا لمثالين نقضت فيهما المسلّمة الاولى من مسلّمات النقاش الصحيح وها نحن نتعرض لمثال ثالث نقضت فيه المسلّمات الاخرى.

(١) نفس المصدر.

المثال الثالث: قضية الامام المهدي عليه السلام:

وهي القضية التي كانت في مطلع الايمان بها من اشد الضروريات التي اعتقد بها المسلمون خلال قرون، ولكنها عادت بعد ذلك فاصبحت موردا للطعن والتشكيك من قبل البعض تبعا لتغير المنطلق في البحث والنظرة الى الاسلام ومصادر احكامه، من نظرة ايمان وتعبد مصحوبة بالمقارنة الموضوعية الى نظرة هي اشبه الى رؤيتنا ومعالجتنا لأية قضية اجتماعية وجدت كظاهرة جديدة، واستنادا الى ذوقنا الشخصي. وتعبير ادق انها اصبحت موردا للتشكيك بعد ان حاولنا ان نفرض على العقيدة من عنديتنا التي استنبطناها من دراسة خاصة او تاريخ معين او موقف مذهبي متميز، وحتى هذا الموقف ايضا لم يراع ما يجدر به ان يراعيه.

فالمراجع لهذه القضية الهامة يجد ان مقومات البحث المنطقي مفقودة بكل اصولها عند المشككين فيها فيتصدى للبحث اشخاص ليسوا هم في مستواه او هم ذوو اختصاص ولكن في جوانب اخرى لا تمت الى البحث الا بصلة بعيدة. فتساق رواية او روايتان، مثلا او قول لمؤرخ ثم تبنى على اساس ذلك نظرة عامة تجعل مقياسا للحكم في قضايا كبرى دون النظر الى سند هذه الرواية، او مبرر ذلك القول وشخصية صاحبه، وبلا ملاحظة لمعارضتها مثلا حتى بالروايات المتواترة التي لا تدع شكاً في مضمونها، او تحمل على الطرف الاخر امور تحسب على اساس انها من مسلمته وهو لا يؤمن بها مطلقا. وهكذا يمر البحث في منعطفات ملتوية ومقدمات واهية لأجل جر الحقيقة الى الفكرة التي وضعت مسبقا.

المهدي من المسلمات الاسلامية:

مما لا يتطرق اليه ريب ان اهل البيت عليه السلام بمجموعهم ركزوا على مسألة الامام المهدي والاعتقاد به قبل أن يولد، وذلك تبعا للرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وبشارته به.. ولا يختلف اثنان في هذا المعنى وفي انهم اكدوا - من خلال الروايات الكثيرة - على عنصر الانتظار الذي يجب ان يتحلى به الانسان المسلم في غيبة الامام، مما يؤكد بعدا رائعا للشخصية الاسلامية بعد الغيبة امتدادا لصفة الانتظار التي تحلت بها شخصية المؤمنين عبر التاريخ. ونعني بها انتظار اليوم الموعود الذي يكون فيه الدين كله لله والذي ينتشر فيه العدل فيملا الأرض بعد ان ملئت ظلما وجورا.

ومن الواضح ان صفة الانتظار هذه تعتبر من أشد الدوافع نحو تهيئة الارضية اللازمة لتحقيق الوعد المنتظر ليستغلها في صالح الهدف المنتظر، حتى ان بعض علماء الاجتماع المحدثين لا يطلقون اسم الانسان الا على (المنتظر). وقد ركزت الاديان كلها على القائد المنتظر الذي يحقق اليوم الموعود واشارت اليه بالاجمال، ولكننا نجد ان الرسول الاعظم محمدا صلى الله عليه وآله بالإضافة الى تركيزه على المنتظر قد سماه بالخصوص وعينه في أهل بيته ومن ولد الامام امير المؤمنين عليه السلام وركز عليه في جملة تركيزه على الاثني عشر خليفة وأميرا من بعده. وقليلة تلك المواضع التي وردت فيها اخبار متواترة كالتي وردت في المهدي مما لا يدع للشك سبيلا في هذا المجال.

ونحن وان لم يكن صدر هذا الكتاب يسع البحث المطول في هذا الخصوص الا انا نشير اليها والى روايتها بسرعة، معتمدين على بعض المصادر وما اكثرها هنا.

أ - يتجاوز عدد الصحابة الذين رووا احاديث المهدي عليه السلام أعلى حد

موضوع للتواتر عند علماء الحديث وفيهم: عثمان، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، والخدري، وابو هريرة، وانس بن مالك، وابن اليمان، وابن اياس، وغيرهم كثير.

ب - كما خرّج احاديث الامام المهدي بالاضافة الى كل المعاجم والمسانيد الشيعية ما يقارب الاربعين او اكثر من كتب السنة التي فيها الائمة والحفاظ فيهم ومنهم: ابو داود والترمذي وابن ماجه، والنسائي، واحمد، وابن حبان والحاكم، وابن شيبه، وابو نعيم والطبراني، والدارقطني، والبارودي، والبزار، والخطيب، وابن عساكر، وابن منده، والحري، وتمام الرازي، وابن جرير، وغيرهم كثيرون.

ج - وقد الف الكثيرون كتباً مفصلة موجودة في الامام المهدي عليه السلام ومنهم: ابو بكر بن أبي خيثمة، والحافظ ابو نعيم، والسيوطي، وابن كثير، وابن حجر المكي، وعلي المتقي الهندي، ومرعي بن يوسف الحنبلي، والقاضي الشوكاني، ومحمد بن اسماعيل الصنعاني، وغيرهم.

د - وقد حكم بتواتر احاديث المهدي عليه السلام كثيرون منهم: الحافظ السجزي، وابن القيم، ومحمد البرزنجي، والشيخ محمد السقاريني، والقاضي الشوكاني، والشيخ القنوجي، والشيخ محمد بن جعفر الكتاني، وغيرهم. والباقون جميعاً اعتقدوا بانها مستفيضة، بل لم ينكرها من الماضين سوى رجلين اثنين^(١) - على ما نقل الشيخ محسن العباد في محاضراته في جامعة المدينة المنورة^(٢) - وهما: أبو محمد ابن الوليد البغدادي الذي وصفه ابن تيمية نفسه بأنه ليس مما يعتمد عليه لضعفه. وقال الشيخ العباد: «ولم اقف على ترجمة لابي محمد المذكور».

(١) وهذه ظاهرة تستحق التأمل.

(٢) راجع مجلة الهادي، العدد الاول والعدد الثاني، السنة الاولى / ص ٤٣.

واما الثاني فهو ابن خلدون المغربي، ولم ينكر صريحا وانما تردد في ذلك، وقد ناقشه الكثيرون من العلماء في ذلك. فقد جاء في كتاب الاذاعة تعقيبا على ذلك: «لا معنى للريب في امر ذلك القاضي الموعود والمنتظر المدلول عليه بالادلة بل إنكار ذلك جرأة عظيمة في مقابلة النصوص المستفيضة المشهورة البالغة الى حد التواتر».

والأعجب ان ابن خلدون يقول في صدر الفصل الذي عقده للمهدي ما يلي:

«اعلم ان في المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على ممر الاعصار انه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيد الدين». ويعقب عليه الشيخ العباد قائلا: «الايسه في ذلك ما وسع الناس على ممر الاعصار، كما ذكر ابن خلدون نفسه، وهل ذلك الا شذوذ بعد معرفة ان الكافة على خلافة؟ وهل هؤلاء الكافة اتفقوا على الخطأ؟ والامر ليس اجتهدا يا وانما هو غيبي لا يسوغ لاحد اثباته الا بدليل من كتاب الله او سنة نبيه ﷺ والدليل معهم وهم اهل الاختصاص.

وقد وردت في كلامه نقاط أهمها الاشارة الى غيبية المسألة ومعالجتها من قبل غير اهل الاختصاص بمقاييس لا تتلاءم معها.

هـ- ورغم زعم البعض فقد وردت الاحاديث التي تشير الى المهدي اجمالا في الصحيحين..

منها ما رواه البخاري عن ابي هريرة، قال: «قال رسول الله ﷺ: كيف انتم اذا نزل ابن مريم فيكم وامامكم منكم».

ومنها ما رواه مسلم، قال: «فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول اميرهم: تعالى صل لنا، فيقول لا ان بعضكم على بعض امراء تكرمة الله هذه الامة».

كل هذا اذا تجاوزنا عن الاحاديث التي نبخسها ان وصفناها بالمتواترة لكثرتها - عن اهل البيت عليه السلام وهم امناء الرسالة والذين ارجع الله اليهم الامة بعد النبي صلى الله عليه وآله طبق احاديث متواترة اخرى بما لا يدع اي مجال للانسان الواعي ان يشكك في قضية الامام المهدي عليه السلام .

ان لم يكن هذا كافيا فكيف نصل الى الاسلام؟

والحقيقة أننا نتساءل - بكل تحد وتعجب في آن واحد - اذا لم تكن كل هذه الادلة كافية لإثبات ان قضية الايمان بالمهدي المنتظر قضية ضرورية فكيف يمكننا ان نؤمن بأية قضية ضرورية اخرى، او أي مفهوم اسلامي آخر فضلا عن القضايا الفرعية غير البديهية والمتنازع عليها سواء في مجال الفكر او مجال النظام؟ ويا ترى هل يسمح المسلمون بأن يتركوا قضاياهم تحت رحمة الفكر المطّعم بشبهات الغرب المستمد مبادئه من أسس تتغاير جوهريا مع الاسس الاسلامية؟

ونحن اذ نذكر هذا نشير الى ما يمكن ان نسميه مدرسة (احمد امين) الفكرية وأتباعها من أمثال الدكتور علي سامي النشار، والدكتور أحمد محمود صبحي، والنشاشيبي وغيرهم.

ولأجل ان نلقي بعض الضوء على معالم هذه المدرسة التي تتركز احيانا في بعض اقطابها وتخف في الآخرين أحيانا أخرى فاننا نلاحظ :

انها مدرسة اعطت نفسها فوق ما ينبغي، فالقائمون عليها اناس مهما بلغوا فانهم لن يتعدوا ان يكونوا باحثين اجتماعيين. وكلنا يعلم ان البحث الاجتماعي حقل من حقول المعرفة لم تتوضح اصوله بعد ولم تصل نتائجه الى المرحلة العلمية، حتى ان علماء الاجتماع انفسهم ما زالوا يحارون في تعريفه وفصله عن باقي العلوم.

وفي حين انهم ارادوا دراسة الحالة الاجتماعية السائدة في العصور الاسلامية فقد تعرضوا وبكل سرعة وبلا امعان الى كل القضايا الفكرية الرئيسية التي عاشها المجتمع خلال اربعة عشر قرنا، واصدروا احكامهم في كل منها دون ان يلاحظوا ان كل جانب من تلك الجوانب يحتاج الى اختصاصيين هم بالمستوى المطلوب لمناقشتها. فليس من السهل ان يحكم الانسان بمثل هذه العجالة على قضايا رسالة عالمية واحداث مهمة رافقت ظهورها وسارت معها وهي تنتشر في الوجود.

فالمدرسة اذن تفقد شرط توفر مقومات المستوى في النقاش وهي بالتالي تعتنق الفكرة التي تتلاءم مسبقا مع الهدف المقصود ثم تبحث عما يمكن ان يكون دليلا على فكرتها، وما يمكن ان يرد الرأي الآخر في الطرف المقابل. وانما تميزت بهذه الخاصية لأنها وبمقتضى طبيعة عملها الاجتماعي لم تتبع الاسلوب المنطقي الصحيح الذي سار عليه المسلمون انطلاقا من مبادئهم العقائدية في اثبات القضايا ونفيها بالقرآن الكريم والسنة الشريعة مع ضم القرائن الموضوعية اللازمة، وانما حاولت ان تمنح كل فكرة بعدا خارجيا اجتماعيا، خالطة بين قضايا التاريخ وقضايا العقيدة المؤرخ لها.

ومن ثم لم تعتمد مطلقا على المصادر الاصيلية في مناقشة اية فكرة عقائدية سادت المجتمع، وانما رجعت الى ذوقها هي وساعدتها على ذلك بحوث المستشرقين التي تنطلق من نفس المنطلق في مناقشة القضايا، غافلة عن الاختلاف الجوهرى في زوايا النظر بيننا وبينهم.. ومن منا اليوم لا يدرك خطر بحوث الاستشراق على العقيدة الاسلامية والتاريخ الاسلامي؟

ولو اردنا ان نسوق مثالا توضيحيا قبل ان نذكر المثال الذي يتعلق بموضوعنا نحن فاننا نسوق ماركس ونظريته التي يسميها (الاشتراكية العلمية)

مثالا على ذلك. فمن الواضح انه حين استهدف أن يقضي على النظام الرأسمالي ويحل محله نظامه الاشتراكي وجد نفسه لكي يحكم اسس فكرته مضطرا لأن يعود الى القواعد المنطقية البديهية فيقلبها، وان يقول بمبدأ الحركة المادية من جهة والاسلوب الديالكتيكي من جهة اخرى، ليحاول ان يطبق ذلك على الكون كله فيجعله كله مجموعة تناقضات تتطور على اساس منها. ومن ثم ينتقل الى المجتمع باعتباره جزءا من الكون فيطبقه على تاريخ المجتمعات متسلسلا في ذلك حتى يصل الى ما اراد من السابق وهو (اضفاء طابع الحتمية التاريخية على مذهبه في الاشتراكية) باعتباره مرحلة تاريخية يتطلبها (وضع القوى المنتجة) ومن ثم عمل على ان يلتمس الشواهد من هنا وهناك من التاريخ والكون على صحة هذا التسلسل الذي اعتبره منطقا اخر.

وهكذا مدرستنا هذه التي نشير اليها، والتي تحاول ان تفسّر ما تستطيع تفسيره على ضوء الوضع الاجتماعي نظرا لطبيعة عملها^(١).

فلنلاحظ كيف تعرضت هذه المدرسة لقضية الامام المهدي. فبعد ان يستعرض احمد امين حديثا واحدا عن الصادق عليه السلام يقول: «ومن هذا او نحوه يظن ان فكرة المهديّة وعصمة الائمة وتقديسهم واعلاء شأنهم نبئت في ذلك العصر عصر الامام الصادق».

وهكذا وبكل بساطة انتهى الحكم على هذه القضية بعوامل اجتماعية كانت تتوفر في عصر الامام الصادق عليه السلام بلا اية ملاحظة لأي دليل شرعي. ومن ثم يقول:

(١) راجع آراء الدكتور احمد امين في المرأة والحرية وغيرها في كتابه (الاخلاق) تجده لا ينطلق ابدا من منطلق اسلامي صحيح بل يمشي وفق ذوقه الاجتماعي حتى ليجعل المرأة الامريكية نموذجا تسير المرأة الشرقية لتصل اليه.

«فكرة المهدي هذه لها أسباب سياسية واجتماعية ودينية ففي نظري انها نبتت من الشيعة»^(١).

ويأتي بعده الدكتور احمد محمود صبحي في كتابه (نظرية الامامة) فيستعرض اقوال المستشرقين في رد هذه العقيدة ناقلا اياها بلا نقد، ثم يصدر حكمه رأسا مقلدا احمد امين في ردها للظروف السياسية^(٢) تبعا للمستشرق (فان فاوتن). ومن الطريف المبكي حقا أنه يجعل ايمان السنة بالمهدي أيضا نابعا من الظروف السياسية، ناقلا عن يوسف بن يحيى الدمشقي في (عقد الدرر) نصا يوضح صاحبه ان الحاجة في عصره قد اشتدت للامام المنتظر، مع انه أي الدمشقي يوضح في نفس النص ان الاحاديث جملة في ظهوره عليه السلام^(٣).

وقد تجيء لحظات يشعر معها اتباع هذه المدرسة بأنهم بالغوا كثيرا في ادخال العنصر الاجتماعي، فيقول الدكتور صبحي نفسه بعد ان يشير الى المنكرين من اتباع هذه المدرسة: «غير ان موقف هؤلاء الباحثين المتأخرين قائم على عامل الزمن من ناحية حيث مر اربعة عشر قرنا، وعلى التفكير الوضعي الحديث الذي ينكر الحكم الثيوقراطي من أساسه من ناحية اخرى»^(٤).

هكذا اذن كونت هذه المدرسة الفكرة المسبقة ثم راحت تلتمس لها الادلة، فما هي طبيعة هذه الادلة؟!

وفي مجال اقامة الدليل تتغافل تماما عن كل ما ورد من احاديث او تتغافل عن الاستناد وعنصر الالتزام العقائدي الذي تحمله هذه الاخبار ولا تقيم وزنا

(١) ضحى الاسلام ج ٣: ص ٢٤١.

(٢) نظرية الامامة: ص ٣٩٩.

(٣) نفس المصدر: ص ٤٠٥.

(٤) نظرية الامامة: ص ٤٠٤.

لذلك وانما تحاول ان تبرز ما اعترض به على العقيدة بالمهدي عليه السلام.
فيقول احمد امين: «هي نظرية لا تتفق وسنة الله في خلقه، ولا تتفق والعقل الصحيح»^(١).

ويقول صاحب نظرية الامامة: «ولا شك ان حياة المهدي اكثر من الف عام موضع الارتياح وكفيل ان يهدم العقيدة من اساسها». وهكذا اذن يكفي ان تكون اية عقيدة (حتى ولو كانت من الضرورات الدينية) باطلة لانها تخالف العادة الملحوظة او العقل التجريبي الذي يعبر احمد امين عنه بـ (الحصيح).

ولسنا في مقام مناقشة هذا القول، ولكن هل يمكن الحكم على قضية قام أساسها على (الغيبية) بمثل هذه المقاييس؟ اذن اين الاعتقاد بقدرة الله تعالى؟! وهل ان بقاء انسان طول هذه المدة من المستحيلات العقلية؟! اننا لو اردنا ان نتبع هذا المنهج في البحث وجب علينا ان ننكر الكثير من القضايا التي هي ثابتة قطعاً بنص الكتاب العزيز.

فهل تكلم الطفل في المهد أمر يتفق وما جرت عليه سنة الله في الامور العادية او يوافق عليه (العقل التجريبي الصحيح)؟! وكذلك مسألة انقلاب عصا موسى الى ثعبان، او تنشق الجبل فوق بني اسرائيل كأنه ظلة او مسألة بقاء طعام عزيز لم يتسنه مائة عام والتي خرقت العادة الجارية في بقاء الطعام أي طعام كان آلاف المرات.

ان العقل انما يكون حاكماً في قطعياته وضرورياته، ونحن بذلك نؤوّل حتى النصوص اما ظنياته فلا قيمة لها امام النص، والا كان ذلك اجتهاداً في مقابل

(١) ضحى الاسلام ج ٣: ص ٢٤٥.

النص.

ان المنهج الصحيح هو ان نلاحظ مسألة النسبة الى الشريعة فإن تمت لاحظنا الموانع المتناسبة مع تلك المسألة لا ان نحكم جزافا بمقاييس لا ترتبط بها. نجد هنا ان الدكتور صبحي يعترف بأنه لا يرفض الاحاديث بل لم يحضها، ولكنه يدخل مسبقاته التي تصورها في تفسير الامر فينطبق عليه قول برتراند راسل الذي جاء به رادا على غير الموضوعين^(١).

والموضوع المهم الآخر الذي يوجهه هؤلاء نقدا الى الاعتقاد بالمهدي هو مسألة ادعاء المهديونية من قبل من لم يكونوا اهلا لأن يملأوا الارض قسطا وعدلا، وهذا النقض من اعجب الامور اذ لو تم وجب علينا ان ننكر النبوة لانه قد ادعاها امثال مسيلمة الكذاب!!

ولنا هنا ان ننقل نصا عن الدكتور احمد صبحي في هذا المجال يوضح عدم موضوعيته اذ يقول: «ولقد قامت حركات كثيرة باسم (المهدية) وبعضها قد خرجت من صفوف الشيعة الاثني عشرية كالبايية والبهائية، ولكن التشيع من اشد المذاهب انكارا للحركات المهدية لأنها دعاوى كاذبة، ولكن لان اليوتوية في عقيدة الاثني عشرية لا تدع مجالا لامكان تحقق العقيدة في الواقع الملموس^(٢). فالشيعة اذن لم يقفوا في وجه البهائية استنادا لأصولهم المذهبية وعلائم التكذيب التي رافقتها بل لأن (يوتويتهم) منعتهم من ذلك.

وهذا مثل آخر على التأثير بالنظرة الاجتماعية في تحديد الموقف. والا فهل راجع موقف الشيعة من هذه واسلوب رفضهم لها ليتأكد أن حكمه هو ينبع من طوبائية تجريدية مغرقة في البعد عن الواقع؟

(١) نظرية الامامة: ص ٤٢٠.

(٢) نفس المصدر: ص ٤٢٦.

وبعد هذا فلست ادري كيف منح الدكتور احمد الاهواني - في مقدمة الجزء الرابع من ظهر الاسلام - احمد امين سمة البعد عن الدجماطيقية^(١) والجزم بالرأي قبل البحث والتنقيب؟

وهل ذلك الاكمل قوله فيه: انه «رفع علم المهادنة بين الشريعة والسنة حتى تتحد كلمة المسلمين».

وقفه احترام وتقدير لنظرة اهل البيت عليه السلام في المسألة. وأخيرا فان الذي ينبغي ان يقال في ختام هذا العرض الخاطف لبعض جوانب هذه المسألة:

اننا لو امعنا النظر في الامر ولا حظناه بكل موضوعية وتدبر وارتفعنا الى مستوى المقياس الصحيح للحكم على القضايا في اطارها الصحيح وجب ان ندعن وننحني لرأي اهل البيت عليه السلام في كون الامام المهدي عليه السلام هو الثاني عشر منهم وذلك بعد ملاحظة ما يلي:

١ - احاديث الثقلين المتواترة في حد ذاتها والتي استفدنا منها كما مر المقياس الصحيح في تشخيص الاشخاص الذين يقصدهم الرسول ﷺ بعبارة (وعترتي) وهو عدم الافتراق عن القرآن حيث جاء فيها (ولن يفترقا).

٢ - احاديث الاثني عشر اميرا او خليفة كلهم من قريش وهي بدورها متواترة ثابتة ايضا.

٣ - احاديث المهدي على اختلافها والتي يذكر كل منها جانبا معينا منه عليه السلام فاننا بملاحظة هذه الامور الثلاثة نطمئن تماما الى ان المقصود من الطائفة الثانية هي أهل البيت عليه السلام بشهادة الطائفة الاولى نصا بعبارة (وعترتي) وبطريق غير

(١) ظهر الاسلام ج ٤: ص ١١ - ١٥.

١٢٢..... من حياة أهل البيت عليه السلام

مباشر اي بواسطة المقياس الذي اعطته لتشخيصهم، فاذا ثبت هذا وجمعنا بالتالي بين الروايات المتفرقة والجوانب المعينة لشخصية الامام المهدي وقارناه بقول اهل البيت انفسهم بأنه الثاني عشر منهم تأكدنا وأيقنا بما لا ريب فيه بأن نظرتهم هي النظرة الاصيلية التي ركز عليها النبي الاكرم ﷺ.

وبالتالي فنحن نؤكد بأننا هنا لم نتعرض -لقضية الامام- بشكل تام وحتى بشكل موجز وانما تعرضنا لها بالمقدار الذي يوضح لنا عملية الانحراف عن المنهج المنطقي الصحيح في البحث التاريخي والعقائدي من قبل البعض تجاه اهل البيت عليه السلام.

القسم الثاني

موقف الامام علي (ع) من معاوية

الفصل الأول

الموقف السياسي لأهل البيت عليهم السلام

ماذا نعني بالموقف السياسي؟
لا يمكن فصل الموقف السياسي لهم عليهم السلام عن
باقي المواقف.
الخطوط العريضة له.

ماذا نعني بالموقف السياسي؟

ما نعنيه هو التحديد الذي وضعه الأئمة لموقفهم تجاه المسألة الاجتماعية، من الزاوية القيادية، أي من حيث «تسلم أزمة الحكم» و«قيادة المجتمع». وعليه فيدخل في بحثنا موقفهم ﷺ من المسألة ككل أولاً، ومن قدر له أن يتسلم الزمام ثانياً، ومن الأمة الإسلامية من زاوية موقفها تجاه شخصية الحاكم وأسلوب حكمه.

والملاحظ - أحياناً - من بعض الكتاب انهم ينكرون على الأئمة ﷺ اتخاذ موقف سياسي ايجابي معين، بل قد يعتبر البعض الفترات التي تسلم الأئمة فيها أزمة الحكم، فترات استثنائية تقتضيها الظروف، وسرعان ما يرجع الأئمة ﷺ إلى موقفهم الطبيعي - كما يتصور هذا البعض - وهو موقف الفتوى والتنمية العلمية. والذي غاب عن أذهان أولئك وهؤلاء ان الأئمة ﷺ حسب كل الشواهد والقرائن التاريخية القطعية، كانوا يمثلون امتداد مسيرة الأنبياء ﷺ عموماً وامتداد مسيرة النبي الأعظم ﷺ خصوصاً.

وهذا يعني انهم يضطلعون بمهمة مواصلة البرنامج التربوي الانساني العام في اطار الاسلام، ذلك البرنامج الذي استهدف منذ خطواته الاولى تركيز نظرة «خلافة الانسان» و«تحويله حق إعمار الأرض» والتي تستبطن استمداد الحكم والقانون من الخالق القادر العليم بعد الاقرار له بكل مراتب العبودية الخالصة، والتي تقارنها أيضاً فكرة ان الانسانية لها هدف عام شامل، تسعى إليه، وان

الجميع مؤهلون ومطالبون بتحقيق تقدم المسيرة نحو ذلك الهدف الذي هو أكبر من الأهداف الشخصية لكل فرد، وإن عمل هؤلاء الأفراد سيفتح عليهم عوالم من الخير والمجزء في حياة أخرى تُعدُّ هذه الحياة مزرعة ومقدمة لها.

هذه النظرة الشاملة للكون استهدف الأنبياء تركيزها، وتكاملت أساليب التركيز على يد الاسلام العظيم خاتم الاديان، ومن الواضح أن تركيز هذه النظرة يحتاج إلى اسلوبين متناسقين: الاسلوب النظري والاسلوب التربوي.

والاسلوب التربوي يحتاج إلى مقوم أساسي لتحقيقه واستثمار نتائجه وهو «عنصر الهيمنة والتسلط».

وقد قلنا إنه عنصر مقوم، لأننا نلاحظ وجود تناسب طردي بين درجة هيمنة المربي، ومدى تأثيره التربوي في العناصر المرباة.

ومن هنا - بالضبط - نجد أن الانبياء والمرسلين عليهم السلام حاولوا جهدهم - بعد خلق قواعد التقبل الشعبية - أن يستلموا زمام الامور مهما أمكن، ويمكن أن نلاحظ في ذلك موقف كل من موسى وداود وسليمان عليهم السلام ممن تسنى لهم ذلك، وأخيراً عملية تسلّم الرسول الاعظم ﷺ زمام القيادة التامة، لكل شؤون المجتمع الاسلامي.

فالائمة عليهم السلام اذن كانوا - بمقتضى ذلك - يطمحون ويعملون على إمساك أزمة الامور بأيديهم، اتماماً لعناصر التأثير المطلوب للعملية التربوية الكبرى للبشرية، واشعار الامة بذلك، بنصوص شريفة تدل على ذلك. يقول الامام أمير المؤمنين في وصف أهل البيت عليهم السلام وانهم وراث عملية التربية الكبرى، وهي وظيفتهم الاجتماعية: «هم موضع سره، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام انحاء ظهره، وازدهب ارتعاد فرائضه... هم أساس الدين وعماد اليقين، اليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي ولهم خصائص حق

الولاية وفيهم الوصية والوراثة، الآن إذ رجع الحق إلى أهله.. ونقل إلى منتقله»^(١). «وبينكم عترة نبيكم، وهم أئمة الحق، واعلام الدين، والسنة الصديق، فانزلوهم باحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش... فلا تستعملوا الرأي فيما لا يدرك قعره البصر ولا تغلغل إليه الفكر»^(٢). «نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة، ومعادن العلم وينابيع الحكم»^(٣). «وعندنا - أهل البيت - أبواب الحكم وضياء الامر الا وإن شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة»^(٤). «وهم دعائم الاسلام، وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير ورعاته قليل»^(٥).

ويقول الامام الحسن عليه السلام في مفتتح عهد توليه الخلافة: «نحن حزب الله الغالبون وعترة رسول الله الاقربون وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله في امته، ثاني كتاب الله الذي فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره، لا نتظن تأويله بل نتيقن حقائقه، فأطيعونا فان طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة»^(٦).

ويروي في البحار عنه عليه السلام نص الخطبة التي القاها بعد الصلح وكلها تؤكد

(١) نهج البلاغة، خ: ٢، ص: ١٣.

(٢) نهج البلاغة، خ: ٨٧، ص: ٧٨.

(٣) نهج البلاغة، خ: ١٠٩، ص: ١١٤.

(٤) نهج البلاغة، خ: ١٢٠، ص: ١٢٥.

(٥) نهج البلاغة، خ: ٢٣٩، ص: ٢٦٤.

(٦) صلح الحسن، للشيخ الجليل راضي آل ياسين ص ٥٩ مؤسسة النعمان، بيروت.

هذا المعنى بأجلى بيان^(١).

كما اتنا نجد أن الامام الحسين عليه السلام ردد نفس هذا المضمون عندما أقبل على العامل الاموي المأمور بأخذ البيعة منه «إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم»^(٢).

وهكذا يمكننا أن نقدم الدليل القولي، تلو الدليل على هذا المعنى، من باقي الأئمة عليهم السلام، ولعلنا لا نجد نصاً يوضح النظرة الحقيقية التي يجب ان يكونها الناس عن الامام أوضح من النص الذي ينقله عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السلام حيث وصف له الامامة باروع وصف، بعد أن حصرها في أهل البيت عليهم السلام وقد جاء فيها «ان الامام زمام الدين ونظام المسلمين... الامام اس الاسلام النامي وفرعه السامي... الامام يحلل حلال الله ويحرم حرامه ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله... الامام أمين الله في أرضه وخلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده... مضطلع بالأمر، عالم بالسياسة مستحق للرئاسة، مفترض الطاعة، قائم بأمر الله»^(٣).

الدليل العملي على ذلك:

ونحن إذ لم نطل في نقل النصوص الكثيرة عنهم في هذا الصدد واكتفينا ببعضها فانما كان ذلك يقيناً منا بأن الموقف العملي لأهل البيت أوضح دليل على ذلك، ونقصد به تسلم الأئمة لزمام الحكم أولاً، وعملهم الدائب بعد ذلك على إعادة هذا الزمام إلى أيديه الأئمة ولكن بصورة طبيعية وبشكل تشعر معه

(١) البحار ج: ١٠، ص ١٣٨، ح: ٥، دار احياء التراث.

(٢) أعيان الشيعة الجزء الأول، ص ٥٨٨.

(٣) تحف العقول ص ٤٣٨ - ٤٤١.

القواعد الفعالة في المجتمع بمرکزهم ﷺ تماماً، وسيأتي توضيح لذلك ان شاء الله.
إلى هنا قلنا انه لا بد من موقف سياسي رائد للأئمة ﷺ من الأحداث وعلى
أضواء ثلاثة:

- أ - طبيعة مهمتهم كامتداد لمهمة الأنبياء عموماً والنبي الأعظم ﷺ
خصوصاً مما يستدعي القيام بانجاح عملية التربية الكبرى في التاريخ الانساني.
- ب - نصوصهم الكثيرة المتواترة معنى في هذا الصدد.
- ج - الموقف العملي لهم ﷺ.

لا يمكن فصل الموقف السياسي عن باقي المواقف:

والحقيقة اننا لو كنا ازاء دراسة لشخص، أو أشخاص آخرين غيرهم
لاستغنينا بكل سهولة، أن نفصل الموقف السياسي لهم عن كل المواقف الاخرى،
من فردية واجتماعية. أما وإننا نحاول دراسة اناس كل جنبه من جنبات حياتهم
قدوة، وكل سلوك منهج وكل لفظة تشكل جزءاً من دستور فهذا أمر صعب
مستصعب، وآية هذا المعنى ما قلناه سابقاً من أن قيادتهم تنبع من قيامهم على
تجربة تربوية عالمية، وهذا يعني ان الأمة التي قادوها، بل كل جيل بشري آت
تنظر اليهم كوحدة متكاملة من جميع الجوانب، وذلك يتطلب منهم التخطيط لكل
موقف، على شكل تتعاضد المواقف كلها، مشكّلة تلك الوحدة.

ان قيام الأئمة ﷺ في المجال التربوي بتربية فئة واعية من الأصحاب،
ومنعها ذلك الزخم التربوي والأخلاقي العلمي مثلاً، لم يكن يعني موقفاً سلبياً من
الحكم، وتطورات الأحداث السياسية، بل انه - على العكس - كان يعني محاولة
خلق القاعدة التي سينطلق منها الاصلاح، والتي ستنبثق بين الامّة مؤججة
حماسها ومجموعة قواها، لتثبت وجودها المحاسب المراقب لتحرك الانحراف، ولتنبثق

بين الأمة فتحافظ عليها من الانحراف المتزايد نحو خط الطمع المادي أو الشهواني، الذي كان من أسباب انتشاره كون المحاكم مبتلى بهذا الانحراف، أو لتقوم بمهمة فضح المتلاعبين والمتسترين بستار العلم أو التقوى العاملين على تقويض أسس المجتمع الاسلامي.

والنموذج الآخر الذي يمكننا خلال هذا المقال أن نذكره دليلاً على التلاحم بين مواقفهم عليه السلام بحيث لا يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر ودراسته على حدة، هو مسألة «الادعية التي كان الامام السجاد يدعو بها أو يعلم من يدعو بها»، فهذه المسألة قد ينظر إليها على أساس انها تطهير فردي أو مجموعي، ولكن بالحث على البكاء والتضرع والاحساس بعباء الله المعنوي، بصورة تقربه من المحس، وهذا صحيح تمام الصحة، إن لم يكن المراد منه انه هو كل ما في الامر، وذلك انه من الواضح كون ذلك الاسلوب الرائع عملاً ايجابياً جليلاً يقف إلى صف عمل الأئمة الذين سبقوه عليه السلام ويصنف في نفس الاعمال التي قام بها آباؤه، بل هو الاسلوب المحتم لتلك الروح العملية في ظرف كظرف الامام عليه السلام أولاً، ولأجل سد مثل هذا الفراغ في الجانب الروحي الذي ينعكس اجتماعياً بشكل عمل فعال ايجابي ثانياً.

اننا نلاحظ في أمثال تلك الادعية تعاليم سياسية واجتماعية عالية، صبت في قالب دعاء وتبتل وابتهاال، تلقن الانسان موقفه من الواقع أمامه، ككل، وتعطيه الصورة التي يجب أن تشكل منهج تصوره وعمله معاً في حياته، اننا نلاحظ أمثال التعبير التالي منتشراً في ادعيته عليه السلام وهو: «اللهم صل على محمد وآل محمد وافعل بي كذا وكذا...» وهذا - بالتأمل - يعتبر من أنجح أساليب الربط العاطفي الشديد بأهل البيت فضلاً عن الربط الفكري وكذلك نلاحظ في هذه الادعية فقرات ترتبط بما قلناه من أمثال:

«اللهم اني اعتذر اليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم انصره ومن كل اثم عرض لي فلم أهجره»^(١).

«اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روحي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك، وتفكيراً في قدرتك وتديراً على عدوك»^(٢).

ونظر ﷺ إلى هلال شهر رمضان فدعا بدعاء جاء فيه «اللهم صل على محمد وآل محمد واجعلنا من خير من طلع عليه، وازكى من نظر إليه... وصل اللهم على محمد وآله الطيبين واجعل لنا فيه عوناً منك على ما ندبتنا إليه من مفترض طاعتك» ولنا إلى هذا الموضوع عودة ان شاء الله في البحوث الآتية.

ولكن، على الرغم من ذلك سنحاول التحدث عن كل جانب من الجوانب للتوضيح والتركيز دون أن نهمل ملاحظتنا لباقي الجوانب عند دراسة جانب معين.

الخطوط العريضة للموقف السياسي:

ولدى محاولة التعرف على هذه الخطوط، وذلك الاطار، الذي لا يمتدون إلا من خلاله، يجب أن نستحضر ذهنياً هذا المقام الذي تحدثنا عنه قبل وهلة، ونحاول أن نستنبط مقتضياته، ومن ثم نقوم بمقارنتها مع الواقع الذي ينقله لنا راو أمين، أو محدث نزيه.

اننا - بعد ان نلاحظ ذلك - نجد أن الخطوط العريضة تنبع من كونهم امناء على التجربة الاسلامية، بكلا عنصرها: المبدأ والامة، فهي اذن كما يلي:
أ - المحافظة المجادة المتواصلة على المبدأ والعمل المتواصل على إبقائه حياً

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي المشهور.

(٢) دعاء مكارم الاخلاق في الصحيفة السجادية، ص ١١٣، مؤسسة أنصاريان.

فعالاً محركاً، وصيانة صورته من أن تمسها يد التشويه والتحريف، أو تقلل من طاقاتها الفعالة.

ب - المحافظة التامة على 'الامة، وتربيتها تربية تؤهلها لحمل المبدأ، وتمنحها الطاقات المؤثرة في الوقوف أمام أي هجوم عليه، وهذان الخطان يستدعيان أحد أمرين، يأتي أحدهما بعد الآخر ويمكنهما أن يشكلا الاطار المباشر الذي نلاحظه ينعكس بوضوح على سلوكهم عليهم السلام وهما:

أ - مسك أزمة الحكم وذلك لتحقيق عنصر السيطرة الذي تحدثنا عنه والذي هو ضروري لدفع التجربة الاسلامية، نحو الامام والقيام بتلك المهمة.

ب - وان لم يمكن ذلك فالعمل المتسم بالواقعية والمرونة حسب مقتضيات الظرف لأجل الحفاظ على المبدأ والامة، من جهة ولو بصورة غير مباشرة أولاً، والتخطيط الواعي الموضوعي لتسلم أزمة الحكم باعتبارهم أصحابها الحقيقيين. بقي لدينا أن ننتبه لما قلناه من أننا نجد الشواهد التاريخية الكثيرة التي تدل على انهم عليهم السلام - ووفقاً لواقع الأمر - لم يكونوا يطلبوا الحكم ولو على اساس ثورة مفاجئة أو مؤامرات عاصفة فلم تكن تلك سنتهم عليهم السلام، وانما كانوا يعملون على تربية القواعد الشعبية الواعية لمركزهم بصفاتهم اوصياء للنبي صلى الله عليه وآله ومن ثم تقوم هذه القواعد بتهيئة الأجواء العملية لمسك أزمة الحكم من قبلهم عليهم السلام وهي بعد أن عادت تعيش أهدافهم الكبرى، تقوم بعد ذلك بحراسة المكاسب، التي يتوقع حصولها حينذاك ويمكننا أن نذكر مثلاً على ذلك قصة سهل بن حسن الخراساني الذي جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام يعرض عليه تبني حركة الثوار الخراسانيين قائلاً: يا بن رسول الله ما الذي يمنحك أن يكون لك حق تقعد عنه وانت تجد من شيعتك مئة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟!

فيأمره الامام بالجلوس متلطفاً ثم يطلب أن يسجر التنور حتى إذا ما صار

كالجمري أمره بدخول التنور، وحينذاك يستقيه الخراساني فيقبله، فلم تمر لحظات حتى يدخل هارون المكي أحد أصحابه، ونعله في سبابته فيأمره بدخول التنور فيمتثل لتوّه، وهكذا يلتفت الامام عليه السلام إلى الخراساني قائلاً له: كم تجد بخراسان مثل هذا؟ فيجيب والله ولا واحداً... فيعقب الامام على ذلك قائلاً: (نحن أعلم بالوقت)^(١).

وسنحاول فيما يأتي عرض أحد المواقف السياسية لهم عليهم السلام وملاحظة انطباق تلك الخطوط العريضة عليها معتمدين في روح ما نحلل ونحكم على ما تفضل به سيدنا الاستاذ آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر في محاضراته العامة القيمة في التاريخ الاسلامي التي كان يلقيها بين الحين والآخر على طلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

(١) مناقب الطالبين ص ٢٣٧ طبعة المطبعة العلمية بقم المقدسة.

الفصل الثاني

الموقف من معاوية وظاهرة عدم تقبّل انصاف
الحلول.

شبهة قديمة باقية.

نصوص ترتبط بالموقف.

البحث عن عناصر الموقف.

الموقف من معاوية وظاهرة عدم تقبّل انصاف الحلول

من المتعارف به دولياً اليوم، وفي عرف السياسة الحاضرة، أن يقوم البعض بالوساطة بين دولتين متنازعتين، قضتاً رديحاً من الزمن في النزاع المرير، وتعبتاً جرّاء ذلك، لينتهي ذلك النزاع بتلك الوساطة، أو يسير على درب السلام. وغالباً ما تكون الوساطة تعني تنازلات من كل من الطرفين لحساب الطرف الآخر، وعلى حساب المبادئ التي التزم بها أولاً، وذلك لأن الاصرار والالحاح على التمسك بتلك المبادئ سيبقي القضية في طريق مسدودة، وهذا ما يصطلح عليه بعبارة (الحل الوسط) وهو تعبير آخر عن (انصاف الحلول).

إلا أننا والحال هذه نترقب من كلا الطرفين أن يعتبر هذا الأمر تنازلاً مرحلياً من طرفه، ليخطط على ضوئه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً.

وقد يكون هذا الأمر صحيحاً، مع السكوت عن العناصر الدخيلة في الموضوع من جانب آخر وعن مدى الصلاحية التي يمتلكها المفاوض واقعاً، نعم قد يكون هذا صحيحاً، وقد يبتنى هذا على قاعدة انسانية لا يختلف فيها اثنان وهي مسألة تقديم الأهم على المهم، إذ ما إن يدور الأمر بين حالتين، إحداهما ضرورة لجانب من جوانب الحياة بلا شك، إلى جانبها حالة أخرى أشد ضرورة من سابقتها وأكثر فورية، فإن الموقف الصحيح عندهم - أي العقلاء - هو تقديم الثانية مع العجز عن ايفاء كليهما ما تقتضيانه من عمل على اساس أن (الأهم) يتقدم على غيره وان كان (مهماً)، ولن نجد مشقة في تعداد الكثير من مثل هذه

الحالات.

وقد جرى الشارع المقدس في الاسلام على هذا المجرى، فقرر هذه الظاهرة العقلائية وأمضاها، ومن هنا رأينا البحث عن تحديداتها وقواعدها الفرعية في علم أصول الفقه الاسلامي، سواء في ذلك بحثها بهذا العنوان كما في البحوث الشيعية أو تحت عنوان (الاستحسان) كأصل مستقل على أحد معانيه التي عبر بها عنه وغير ذلك كما في البحوث السنية، وقام الفقهاء بتطبيقها على حالات عديدة، كما رأينا - مثلاً - أنه رغم أن دم المسلم وسفكه من أشد الحرمات وخصوصاً إذا كان ممن لا يقدر على الدفاع عن نفسه لكنه يكون جائز السفك إذا كان بقاؤه حياً، يعني أن يكون عقبة في سبيل انتشار الرسالة الاسلامية الخالدة، وتطبيق العدل في الأرض، وذلك إذا تترس الكفار المحاربون اثناء الحرب بالمسلمين الأسرى، واضعين اياهم أمامهم ليتقوا هجوم المسلمين، ولم يكن للمسلمين سبيل لاختراق هذا الجدار البشري للوصول إلى العدو، وفي هذا يقول «الشهيد الأول» محمد بن جمال الدين مكّي العاملي في كتابه «اللمعة الدمشقية»: «وهكذا يجوز قتل الترس ممن لا يقتل، ولو تترسوا بالمسلمين كيف ما أمكن، ومع التعذر فلا قود ولا دية...».

كما أننا لا نعدم في التاريخ الاسلامي ما يعبر عن تطبيق النبي الكريم صلّى الله عليه وآله لهذه القاعدة، كما في قضية عبور الجيش الاسلامي على أرض رجل من المسلمين اضطراراً وتضرر ذلك المسلم، إذ من المنطقي أن تضرر المسلم ظلم لا محالة ولكن لو توقف على ذلك نشر العدل في ربوع الارض، وهو أهم بكثير من تلك الحادثة الجزئية فانه حينذاك سيكون عملاً ضرورياً يجب القيام به وصولاً إلى ذلك الهدف العظيم مع فرض انحصار السبيل بذلك.

شبهة واعتراض قديم:

ولما سبق أو لغيره من الاسباب حاول البعض أن يبدي عدم تفهمه لموقف الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) من معاوية، إذ رأى هؤلاء أنه من الصحيح جداً أن معاوية وأشباهه من الولاة لم يكن لهم أن يقوموا بإدارة اركان الدولة الرائعة التي كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يخطط لبنائها، الدولة التي أراد أن يجسد فيها تعاليم الاسلام السياسية والاجتماعية بكل أمانة ودقة، الدولة التي يكون جهازها الاداري مركزاً مشبعاً بتعاليم الاسلام ومركزاً لها في الامة وقطاعاتها في حين أنهم لم يكونوا على هذا المستوى مطلقاً، وهذا ما شهد به التاريخ بعد ذلك، حتى أن الامة الاسلامية وتعاليمها كانت ستدوب لولا جهاد الائمة الطاهرين والطبقة المخلصة للعقيدة مما كلفها ما لا يحصى من التضحيات.

نعم من الصحيح كل ذلك، ولكن هؤلاء وخصوصاً معاوية كانت لهم أقدام راسخة قوية وقواعد موارية لها خطرهما في الامة. ترى ألم يكن من المناسب للامام أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يطبق ما قلناه قبل قليل من قاعدة تقديم الأهم على المهم أو تقبل أنصاف الحلول، كما يعبر هؤلاء؟!

ويحاول هؤلاء أن يوضحوا اعتراضهم قائلين: إن إبقاء معاوية وإن كان أمراً مضراً جداً ويشكل خطراً على جزء كبير من قطاعات الامة إلا أن الأهم منه هو بقاء دولة الامام علي (عليه السلام) وانتشار نفوذه، وتفرغه للبناء العقائدي للامة، ونشر العدل، واعطاء الاطروحة الاسلامية الصافية من كل الشوائب في التنظيم الاجتماعي بالاضافة للجوانب الحيوية الأخرى، وبعد أن يتقوى (عليه السلام) فإنه يقوم بتصفية تلك البؤر الخبيثة واحداً بعد الآخر.

فالمعتضون إذن يتصورون قيام تراحم - كما يقال - بين أهم ومهم، وأن لا علاج هنا إلا بتقديم الأهم، وهو إبقاء معاوية كعامل - فعلاً - لابقاء دولة علي (عليه السلام)

ومن ثم القضاء على فتنة معاوية وأشباهه.

نصوص تاريخية مرتبطة بالموقف:

وقد حدثنا التاريخ عن وجود مثل هذا الرأي بين أتباع الامام أمير المؤمنين عليه السلام وغيرهم إلا أنه كان رأياً ينوء بضعفه ويقف في قبالة الوعاة للشريعة والأمر العامة من أصحابه عليهم السلام المخلصين له بكل حزم وقوة.

يقول نصر بن مزاحم في كتابه «صفين»:

«فأراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولاً فقال له جرير^(١): ابعثني إلى معاوية، فانه لم يزل لي مستنصحاً ووداً فأتيه فادعوه علي أن يسلم لك هذا الأمر ويجمعك علي الحق علي أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك...

فبعثه عليه السلام قائلاً له: «أيت معاوية بكتابي فان دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه وأعلمه أني لا أرضى به أميراً، وأن العامة لا ترضى به خليفة»^(٢).

وأثناء مكوث جرير بالشام يأتيه معاوية إلى منزله ويقول له: «يا جرير أني قد رأيت رأياً. قال: هاته. قال: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصرأ جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي وأسلم له هذا الأمر وأكتب إليه بالخلافة».

وعندما يكتب جرير إلى الامام بذلك يجيبه الامام عليه السلام: أما بعد فانما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما يحب، وأراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام وان المغيرة بن شعبة قد كان اشار علي أن استعمل معاوية علي الشام وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضداً

(١) يعني جرير بن عبدالله.

(٢) صفين ص ٢٧ - ٢٨.

فإن بايعك الرجل، وإلا فأقبل».

وهذا النص يوضح لنا أن المغيرة يشير عليه بذلك قبل مجيئه إلى الكوفة ووضوح الرؤية لدى الامام عليه السلام آنذاك في قضية معاوية وحديثه الواعية تجاهه بما لا يقبل المناقشة.

كما أن نصر بن مزاحم ينقل لنا قصة أحد الشاميين إذ يقول للامام: «يا علي، إن لك قدماً في الاسلام وهجرة، فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب حتى ترى من رأيك؟ فقال علي عليه السلام وما ذاك؟ قال: ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق ونرجع إلى شامنا فتخلي بيننا وبين شامنا، فقال علي عليه السلام: لقد عرفت، إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني، وضربت أنفه وعينيه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ، ان الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون علي من معالجة الاغلال في جهنم فرجع الشامي وهو يسترجع»^(١).

فعلي عليه السلام واثق كل الثقة من الأمر، وأن لا خيار فيه، وتلك الثقة انما هي قائمة على أساس من وعي كامل لوظيفة الامام العامة كما سيأتي في ذكر الجواب على هذه الشبهة.

ولقد كانت الفئة الواعية التي أشربت مبادئ علي عليه السلام والتي التفت حوله تدرك أبعاد الموقف ادراكاً يتفاوت تبعاً لنسبة الوعي العام وتحديد النظرة إلى علي عليه السلام كامام يعبر عن الواقع وإلى الواقع بابعاده الحقيقية.

فلقد كان الامام علي عليه السلام قد استشار اصحابه في هذا الموضوع تبعاً لما كان النبي العظيم صلى الله عليه وآله يفعل إبان الخطوات الهامة التي كان يعزم على القيام بها في حياته والتي تحتاج إلى وعي مسبق من قبل القائمين على اتمام العملية بما يتطلبه ذلك من ادراك أبعادها وأهدافها.

والذي يبدو لنا بعد ملاحظة أسلوب العرض العاطفي الواعي لكل من النبي صلى الله عليه وآله في قضية معركة بدر أو فتح مكة، والامام علي عليه السلام في حرب معاوية يدرك بوضوح انها كانا يدركان تماماً أبعاد الموقف وأن لا مناص من الاقدام، فما معنى الشورى؟ انها في الواقع اختبار للقوى النفسية ومدى ادراك الموقف أولاً، وإشعار للاصحاب بانهم اختاروا هذا الموقف وأن عليهم القيام بكل مقتضياته إلى النهاية، وفي هذا ما فيه من دخل كبير في نتائج أية عملية صغيرة أو كبيرة ولذا يقول لهم الامام علي عليه السلام إبان مسيره إلى الشام:

«فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل الحق، مباركو الفعل والامر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فاشيروا علينا برأيكم»^(١).

وهنا يتوضح ان التيار المؤكد على السير هو التيار العام، إذ يقول هاشم بن عتبة بن أبي وقاص: «فسر بنا إليهم، فإن اجابوا إلى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال وإن أبوا إلا الشقاق فذلك الظن بهم، والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى و [لا] يسمع إذا أمر»^(٢).

وينهض الصحابي الجليل عمار بن ياسر ليقول: «يا أمير المؤمنين ان استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فاشخص بنا قبل استعار نار الفجرة... فان قبلوا سعدوا وأن أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم والمجد في جهادهم، لقربة عند الله

(١) صفين ص ٩٢.

(٢) صفين ص ٩٢.

وهو كرامة منه»^(١).

ويقول قيس بن سعد بن عبادة: «انكمش بنا إلى عدونا ولا تعرد»^(٢) فوالله لجهادهم أحب إلي من جهاد الترك والروم لادهانهم في دين الله». ولم تعد امثال تلك الاجتماعات من معترض على ذلك لكنه شاذ كما يلاحظ من مجموع النصوص، فقد كان التيار الواعي يرد عليه بكل حزم ويناقش حججه، حتى اننا نلاحظ ان هناك من كان يستمهل في القتال حتى يأتي بعض الرسل فيرد عليهم الآخرون بأن التأنى انما يكون مع الشك فكيف وسبل اليقين واضحة، وهكذا يتيقن عليه السلام من اخلاص القادة سوى من شذ بعد ان يستمع لمقالاتهم.

وما أروع يقين عمرو بن الحمق الخزاعي إذ يخاطب الامام عليه السلام بقوله: «فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطوامي حتى يأتي علي يومي في أمر أقوي به وليك وأوهن به عدوك ما رأيت أني قد أديت فيه كل الذي يحق علي من حقك ليقول أمير المؤمنين عليه السلام: اللهم نور قلبه بالتق، واهده إلى صراط مستقيم، ليت أن في جندي مائة مثلك فقال حجر بن عدي عليه السلام: إذا والله يا أمير المؤمنين صح جندك أو قل فيهم من يغشك»^(٣).

وما أشبه رد القادة من أصحاب الامام هنا برد القادة من أصحاب رسول الله عندما استشيروا في مواقف مماثلة.

فالامام والخلص من أصحابه وباقي القادة والعامّة إلا من شذ، كلهم يؤكدون على عزل معاوية، وإن لم ينغزل فالحرب هي الكلمة الأخيرة، وهكذا

(١) المصدر السابق ص ٩٣.

(٢) الانكماش: الاسراع والجهد، والتعريد الفرار والاحجام والانهزام.

(٣) صفين ص ١٠٤.

كان الأمر.

البحث عن عناصر الموقف:

ويكاد يكون من نافلة القول أن نشير إلى منهج مطروح في أمثال هذه المسائل وهو منهج الاجابة بالعلم الاجمالي - كما يقال وكما أشرنا إليه من قبل - وملخصه: ان الامام كان أعلم بما يفعل، وأنه لا يمكن أن نورد على موقفه أي إشكال وإلاّ خالفنا قول النبي العظيم في حقه: «علي مع الحق والحق مع علي». «أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا» وغير ذلك من النصوص التي توجد القطع الاجمالي بصحة موقفه بالنظر لما يتطلبه الواقع ويفرضه الحق.

ونحن نؤمن بكل كلمة وردت في مجال التعريف بهذا المنهج ونراه كافياً لكل من يؤمن بأن النبي ﷺ «ما ينطق عن الهوى» إلا أن هذا لا يمنعنا مطلقاً عن البحث قدر الإمكان عن مبررات موقف الإمام عليه السلام وذلك:

أ - لكي نرد بها على أمثال الشبهة المذكورة رداً مقنعاً.

ب - لكي نستلهم منها ما يحدد لنا أمثال تلك المواقف باعتبار أن حياتهم عليهم السلام كانت القدوة للبشرية.

ج - بالاضافة إلى محاولة تكوين رؤية واضحة عن أسلوب تطبيق الأئمة عليهم السلام للخطوط العريضة التي مرت بنا في البحث الماضي.

فلنحاول إذن ان نبحث عن عناصر الموقف في ما يلي ان شاء الله.

الفصل الثالث

الجو الصالح لتطبيق الاطروحة الاسلامية

١ - المهمة الكبرى.

٢ - ابعاد الحكم الامثل.

٣ - عدة الاطروحة.

٤ - اهم مقومات التربية الاجتماعية.

الجو الصالح لتطبيق الاطروحة الاسلامية:

والآن فلنلاحظ العوامل التي تطلبت هذا الموقف الحدي من أمير المؤمنين عليه السلام وأول هذه العوامل ما يمكن أن نطلق عليه اسم الجو الصالح لتطبيق الاطروحة الإسلامية، ويتوضح بملاحظة النقاط التالية:

١- المهمة الكبرى:

لو رجعنا إلى ما سبق من حلقات حول الرسالة الإسلامية والدور الذي أعد للامام أمير المؤمنين كي يقوم به خير قيام من جهة، ورجعنا إلى الأحداث العامة التي رافقت طلب الأمة إليه أن يقبل السلطة، ودققنا في الأدوار الاجتماعية التي أصيب بها المجتمع المسلم آنذاك في مختلف نواحيه، سواء في ذلك الجانب السياسي والجانب الحقوقي والمالي، أو الجوانب التربوية والعقائدية، لو قمنا بكل ذلك لأدركنا بوضوح الحاجة التاريخية الكبرى لأن يقوم الامام عليه السلام بانزال اطروحة نابضة مفصلة، واقعية تعمل على إعادة الإسلام بكل صفائه وتنقية ما علق في الأذهان من انحرافات في مفاهيمه وإعطاء الصيغة التي ارادها الاسلام لتلك المرحلة بمقتضى مرونته، وواقعيته فقد رأى عليه السلام «أن المجتمع الإسلامي قد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي زادت عمقاً وحدة بسبب السياسة غير الحكيمة التي اتبعها ولاية عثمان مدة خلافته ورأى أن التوجيهات الدينية العظيمة التي عمل النبي ﷺ طيلة حياته على ارساء أصولها في المجتمع

الاسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس.

وإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم، وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم، والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس أن حكماً صحيحاً يهيمن عليهم لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم، ولكن هذا لم يكن سهلاً قريب الجنى، فثمة طبقات ناشئة لا تسيع مثل هذا، ولذلك فهي حرة بأن تقف في وجه كل منهج اصلاحي ومحاولة تطهيرية»^(١).

نعم لم يكن شيئاً يسيراً أن يقوم الامام بتخطي كل العقبات، خصوصاً وان اطروحته كانت يجب أن تكون واسعة الأبعاد بمقدار اتساع مدى الهدف منها: وهو تنقية العقيدة والنظام الاسلاميين بكل نواحيهما، من كل ما علق بهما من ابهام نتيجة الفهم الخاطئ، أو التطبيق غير التام. ويكفي لكي ندرك أبعاد هذه الأهمية ان نلتفت إلى ضرورة احتوائها على الجزء الأهم في الحياة الاجتماعية، وهو مسألة الحكم، والشروط التي يجب توفرها في الحاكم والولاة، وأساليب الادارة العامة ومشاكل التوزيع والتسيير الاقتصادي فضلاً عن الجوانب الأخرى التربوية والعقائدية التي لا تقل عنها أهمية.

فإذا كان الأمر كذلك، فإنه تنتظر الاطروحة العقبات الكبرى والمشاكل المبررة والتي تطرح نفسها، نظراً لطبيعة الاطروحة أولاً، وللوضع السائد الذي يتنافي مع كثير من مقرراتها في المرحلة العملية، وان تلاءم معها نظرياً. ولئن لم نكن الآن بصدد بيان هذه الأطروحة بكاملها إذ لها موضع آخر

(١) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين ص ٥٢.

فانه يمكننا أن نشير إلى الجزء الآنف بشيء من الاختصار وبشكل نصوص توضيح الموقف لنخلص بعد ذلك إلى النتيجة المطلوبة.

٢- ابعاد الحكم الأمثل:

يقول امير المؤمنين في هذا الصدد:

«وقد علمتم انه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل فتكون في اموالهم نهيمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»^(١).

ويقول عليه السلام: «أيها الناس ان لي عليكم حقاً ولكم علي حق، فأما حقكم علي فالنصيحة لكم وتوفير فيئكم وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والاجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم»^(٢).

«انه ليس على الامام إلا ما حمل من أمر ربه: الابلاغ في الموعظة والاجتهاد في النصيحة والاحياء للسنة، واقامة الحدود على مستحقيها واصدار السهمان على أهلها».

ويقول عليه السلام: «وان شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأما سنة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة، واني سمعت رسول الله ﷺ يقول (يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنم، فيدور بها

(١) نهج البلاغة، خ: ١٣١: ص ١٣٤. تعاليق.

(٢) نهج البلاغة، خ: ١٣١: ص ١٣٤. تعاليق.

كما تدور الرحى، ثم يرتبط في قعرها».

أما العلاقة بين الوالى الذي يبعثه الإمام مع الرعية، فيصورها لنا أروع تصوير عهد الإمام أمير المؤمنين إلى الأشر إذ يقول عليه السلام: «واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا...».

«فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاية عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمر...».

إلى ما هنالك من توضيحات رائعة لا يمكننا أن نسهب في ذكرها فهي توضح لنا عظمة هذا الجانب التي إذا لوحظت إلى صف الجوانب الأخرى وما فيها من خطط وتعاليم، تتشكل صورة إجمالية عن أطروحة عظمى ينتظر ان تقف امامها المشاكل والفتن الكبرى التي تترصد بها محدقة، ومنها بل أكبرها فتنة معاوية واتباعه إذ يقول فيهم أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيها الناس فاني فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجتري عليها أحد غيري بعد أن ماج غيبتها واشتد كلبها»^(١)، فما هي عدة الإمام لخوض ساحات الصراع؟

٣- عدة الأطروحة:

يحلو للبعض من سدج الباحثين أن يحصروا عدة العمل التنظيمي الكبير بخلق أو بوجود الايمان بخطوطه الرئيسية بين الأكثرية الساحقة، ولكن هؤلاء عندما يصطدمون بمجتمعات آمنت بقضية أو فكرة ولكنها عادت مغلوطة لنوازعها الخاصة التي عارضت التطبيق، أو لم تستطع أن تواكب عملية التطبيق إلى حيث الهدف المرسوم، وإنما تعثرت في المنتصف، وانحرفت بها الأمور حتى

(١) نهج البلاغة خ: ٩٣، ص ٩٥.

انقلبت على أهدافها التي آمنت بها من قبل وأخذت تعمل على خلق نقيض تلك الأهداف، عندما يصطدم هؤلاء بأمثال ذلك يضطرون إلى القول بضرورة التثقيف وإيضاح الأهداف بخطوطها العريضة وعدم الاكتفاء بمجرد الإيمان الساذج.

ولكننا نلاحظ أننا لم نتقدم في هذا المجال - مجال إنزال تلك الخطة إلى الواقع الاجتماعي - إلا خطوات، ونحس بالافتقار إلى بعض العناصر الضرورية الأخرى.

وهنا يمكن أن نلتفت إلى عنصر مهم لمثل هذا العمل وهو عنصر خلق العاطفة المتأججة، وإيجاد نوع من الترابط الاحساسي بين الأمة وموضوع التطبيق، وبين الفكرة وأبعادها، وذلك بعد أن تحس الأمة بنتائجها القيمة. ولحد الآن فإننا نكون أيضاً قد قطعنا نصف الطريق فقط.

ويبقى هنا أن نمسح العنصر الآخر أهميته الكبرى التي قد توازي تلك العناصر السابقة، وذلك العنصر هو عنصر تربية الوعاة العقائدين المتشبعين بتلك الاطروحة والواعين لكل أبعادها بالتفصيل والمنشدين إلى أهدافها، والذين يسخرون كل وجودهم لصالحها، وإذا كانت الاطروحة مما يرتبط بالسما فهم يربطون بين انتصارها وبين خلودهم ونعيمهم الدائم، ويحسون بعمق بأنهم يتعاملون مع عالم الدنيا والآخرة لا مع فترتهم الزمنية المحدودة..

إذن كان من الضروري أن يحاول الامام عليه السلام أن يبني هذه الفئة الواعية التي تنبث في الأمة مشكلة عروق وعي تسري فيها الدماء المحركة، ويتأكد هذا المعنى عندما نلاحظ أن الامام عليه السلام كان يحاول أن يكون العراق منطلق ذلك العمل الواسع، والعراق لم يزل آنذاك غض الاسلام لين العود فقير الأفكار.

نعم كان على الامام أن يبني كما كان على النبي ﷺ من قبل أن يبني أولاً

اولئك الوعاة طبعاً مع الاحتفاظ بالفوارق الموضوعية بين العمليتين، ولكنها - على كل حال - حلقتان مترابطتان من عملية التربية الكبرى للبشرية، وعملية بناء فئة تاريخية، تتحمل ثقل تطبيق عمل تاريخي ليست بالأمر السهل وإنما تحتاج الى امور، فما هي تلك الامور؟

٤- اهم مقومات التربية الاجتماعية:

العملية التربوية الناجحة تتطلب من المقومات بمقدار سعة هدفها وضيقه، فكلما اتسعت الأهداف، وكلما ارتبطت بعوامل عميقة البعد في النفس والذهن الانسانيين - أي احتاجت الى قناعة فكرية ونفسية أكبر - أوجبت توفر عناصر أكثر.

وان عملية التربية لفئة يراد منها أن تحرك الامة وتشكل عصبها لمن أشد أنواع التجارب تطلباً للجهد واقتضاء للعناصر، فاننا والحالة هذه نحتاج الى: أ - توفر المبدأ الصالح الحي الذي يستطيع بطبعه أن ينفذ الى أعماق الانسان ويتفاعل مع وجدانه ويتحد مع وجوده.

ب - وجود المربي الكبير الذي يشكل وجوده وجود ذلك المبدأ وحركته، الخبير بالأساليب التي يضعها له نفس المبدأ للقيام على التجربة بكل جدارة. ج - توفر الاستعداد في المواد وموضوع التجربة وتحصل الخبرة بهذا بعد لأي من الاختبار.

د - وأخيراً توفر الجو النظيف لئلا تقوم العناصر الخارجية المتنافية مع روح التجربة بتشويه الصورة، أو الاجهاز على النتيجة. وهذا العنصر الأخير هو مفتاح السر في جوابنا هذا على المشكلة التي طرحت في البحث السابق.

إذ مما لا ريب فيه ان أول الشروط التي يجب توفرها في مثل هذا الجوهر مطابقة عمل القائد لمبادئه التي طالما أعلنها وركز عليها وبنى خطه المتفرد على أساس منها.

ان أي تنافر يمكن أن يحس بين المبدأ والعمل هنا، وحتى لو كان يجد له مبرراً قوياً، سوف يؤثر أثره العميق في تلويث الجو الخاص لعملية التربية، وزرع بذور الشك في روحية الفئة مادة التجربة.

فاذا توضح لنا هذا يتوضح لنا سر الموقف الحدي الصارم للامام عليه السلام الذي بنى حياته على مقارعة الظلم، ومحاربة الاستغلال، ورفع مبادئ الاسلام بكل نقائها، وعمل كل ما يستطيع في سبيل ازاحة الولاة غير اللائقين بهذا المنصب وذمهم أشد الذم بقوله عليه السلام: «ولكن آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولا وعباده خولا، والصالحين حرباً فان منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الاسلام الرضائع».

كما انه هو القائل في أوائل ما استهل به حكمه: «أيها الناس إني رجل منكم لي ما لكم وعلي ما عليكم، واني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيه ما أمر به» أجل ان علياً عليه السلام كان يمثل القائد الفرد الذي أوصى بولايته الرسول، والعقائدي الكفاء الذي يستطيع أن ينشر العدل ويزيل الظلم وأوكاره.

ومع هذا فهل يمكن أن نتوقع للمساومات، وانصاف الحلول موضع قدم في حياته وبيده أزمة السلطة بعد تلك السوابق والمبادئ الجليلة التي كان يتمتع بها قبل ذلك؟ ان انصاف الحلول أو «بيع الأمة مع خيار الفسخ».

- كما يعبر به أحد العظماء - لم يكن يعني مطلقاً إلا فشل التجربة العظمى في توفير الفئة الواعية المدركة المشربة بمبادئها وأهدافها، وذلك لضياح أهم ضمان

للنجاح، وهو الاطمئنان التام بالقائد، والثقة الكاملة بصلاحيته وجدارته، وإخلاصه. ولا يمكن أن يتصور هؤلاء قائدهم الذي يقول في أمثال معاوية من بني أمية:

«ألا وان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فانها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها وخصت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها... ترد عليكم فتنهم شوهاء مخشية، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى»^(١).

ويصف رايتهم بأنها: «راية ضلال قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج من الملة، قائم على الضلة»^(٢). كما انهم «مطايا الخطيئات وزوامل الآثام»^(٣).

نعم لا يمكن أن يتصوروا قائل هذه العبائر وهو يساوم على بقاء هؤلاء في دست الولاية والسلطة وقائدهم «خارج من الملة قائم على الظلة».

ان ظلمهم حينذاك سينتسب إليه شخصياً وسيكون المسؤول غير المباشر عن كل أعمالهم. وهل يرضى علي عليه السلام بذلك وهو الذي يقول:

«والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجر في الأغلال مصفداً أحب إلي من أن القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها؟!»^(٤).

(١) نهج البلاغة، خ: ٩٣، ص ٩٥.

(٢) نهج البلاغة، خ: ١٠٨، ص ١١٠.

(٣) نهج البلاغة، خ: ١٥٨، ص ١٥٩.

(٤) نهج البلاغة، خ: ٢٢٤، ص ٢٥٤.

وفي نفس الخطبة يقول:

«والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في غلة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته». بل كيف نتصور موقف هؤلاء الذين يراد لهم أن يقتفوا اثر أمير المؤمنين حينما يروونه يساوم على مبادئه خصوصاً وأنه لم تتضح لهم تلك المبررات.

على أننا يجب أن نلتفت إلى ما أشرنا إليه من ذي قبل وهو ان الامام أراد أن يركز قاعدة حكمه في بلد جديد العمل بالإسلام، وينتقي من هذا البلد تلك الصفوة لبنائها من جديد محققاً أهم المقومات التي تكفل له القيام بمشروعه المقدس، فلم تكن الفئة متوفرة من قبل حتى يتفق معها - على مسألة المساومة وانصاف الحلول - إن أمكن فرض ذلك أصلاً.

فالامام يحتاج الى بناء هذه الصفوة لهذا الفرض الثانوي إضافة إلى وظيفته الأصلية العامة التي لا تختص بحالة دون أخرى وهي بناء الأفراد عموماً ومواصلة دفع العملية التربوية السماوية نحو الأمام.

وهكذا كان الأمر، وتخرج على يد الامام ﷺ اناس أفذاذ تفتخر بهم البشرية ويندر وجودهم. أدوا أدوارهم خير أداء وامتدوا معنى في نفوس تابعيهم باعثن نار الحركة نحو الإسلام في الأمة على مدى الأجيال.

يصفهم ﷺ فيقول:

«أنتم الأنصار على الحق، والإخوان في الدين، والجنن يوم البأس، والبطانة دون الناس. بكم أضرب المدبر، وأرجو طاعة المقبل، فأعينوني بمناصحة خلية من

الغش سليمة من الريب، فوالله اني لأولى الناس بالناس»^(١).

ويتأوه على مجموعة طاهرة منهم قتلت في صفين فيقول:

«ما ضر اخواننا الذين سفكت دماؤهم وهم بصفين ألا يكونوا اليوم أحياء؟ يسيغون الغصص ويشربون الرنق. قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم، أين اخواني الذين ركبوا الطريق، ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظرائهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة».

(قال نوف البكالي - وهو راوي الخطبة -: ثم ضرب بيده على لحيته

الشريفة الكريمة فأطال البكاء ثم قال عليه السلام:

اوه على اخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه،

أحيوا السنة وأماتوا البدعة دعوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه).

(١) نهج البلاغة، خ: ١١٨، ص ١٢٤.

الفصل الرابع

الفرصة المناسبة لإصلاحات الامام امير المؤمنين عليه السلام

الاقبال الفردي والاجتماعي:

امثلة من القرآن الكريم.

امثلة من حياة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

المهمة التي تنتظر القائد.

الانحرافات والمصالح اجبت نار الثورة.

الحالة الحماسية للامة عند البيعة.

تأجيج الحماس أو اخماده.

ولنتقل الى'العنصر الثاني الذي كان له تأثيره في صياغة هذا الموقف بعد ان نهد له بشيء من التوضيح.

الاقبال الفردي والاجتماعي:

يكاد يكون من الواضح لدينا ان هناك حالات متغيرة للنفس الانسانية وموقفها تجاه الاشياء.. فهي تارة تميل للتفكير فيها والقرب منها لعوامل معينة، واخرى يجد الانسان من نفسه الميل الشديد نحوها.. ويتأكد هذا المعنى بالنسبة للامور التي يفرضها الواقع العقائدي والوجداني من القوى الداخلية للنفس في حين تنكرها بعض الغرائز وخصوصا الجاحمة منها، ويتوضح هذا في ملاحظتنا للموقف النفسي للانسان المؤمن بالله والاسلام الذي ربى وجدانه على الانفاق في سبيل الله مثلاً.. فهذا الانسان نجده من جهة يقع تحت تأثير العقيدة والوجدان المذهب اسلامياً فيميل إلى الانفاق، ولكنه من جهة اخرى تؤثر عليه غريزة حب الذات غير المهذبة والجاحمة، فتمنعه من ذلك. وهكذا الموقف تجاه الشخصيات المختلفة وكذلك تجاه الاتيان بالنوافل المستحبة التي من شأنها تنمية الاستعداد لتقبل العطاء الروحي.

فاننا نجد من انفسنا احيانا نزوعا الى الجانب التضحي على اختلاف درجاته، واقبالا على الاستزادة، في حين نجدها في بعض الاحايين فاترة غير مقبلة.

وقد علمنا الأئمة من أهل البيت عليه السلام ان تستغل لحظات الاقبال النفسي في (عملية تخزين روعي، وتصعيد للسعرات الحرارية المؤمنة) ليكون ذلك التخزين وقوداً واحتياطاً لها في حالات الادبار، وهكذا شيئاً فشيئاً تنقلص اللحظات السلبية فلا تكاد تحسب الى جنب لحظات الانفتاح.

فقد ورد عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال:

«ان للقلوب اقبالاً وادباراً، فإذا اقبلت فاحملوها على النوافل وإذا ادبرت فاقصروا بها على الفرائض»^(١).

وقال عليه السلام: «ان للقلوب شهوة واقبالاً وادباراً فاتوها من قبل شهوتها واقبالها فان القلب إذا أكره عمي»^(٢).

وعلى هذا الغرار يمكننا أن نؤكد عبر ملاحظتنا الفعلية ومطالعنا التأريخية ان للحس الاجتماعي اقبالاً وادباراً أيضاً وذلك طبعاً بفعل عوامل معينة. وكما ان القائد الشخصي يجب ان يستغل لحظات الاقبال في نفسه، كذلك فإن القائد الاجتماعي الناجح البصير هو الذي يستغل لحظات الاقبال الاجتماعي فيعبي الأمة بالوقود اللازم، لابقائها على حرارتها أو على خط التغيير دائماً ليحقق التقدم نحو الهدف الذي يستلزم التضحيات الجسام التي لا يمكن ان تقدمها الأمة في حالة ادبارها وركودها وتقاعسها.. فهو اذن يرتقب الفرصة لحصول ذلك الوعي المرحلي والتأجج النفسي للامة الذي هو مادة التغيير.

وقد اطلقنا عليه لفظ (التأجج النفسي) لان اغلب الحالات الآنفة تقترن بمهيجات عاطفية مختلفة منها عامل الفطرة ومطابقتها الواضحة احياناً لبعض الامور أو مخالفتها لها، والعقيدة المقهورة خصوصاً إذا انضمت اليها المصالح المادية

(١) نهج البلاغة: الحكمة ٣١٢، ص ٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ١٩٣، ص ٣٨٠.

المغصوبة، وقد يكون لبعض الحوادث العرضية التي حدثت صدفة اثرها الكبير في خلق ذلك التأجج الاجتماعي وتقبل التغيير المستلزم للتضحيات. وقد يقوم المصلحون الاجتماعيون بخلق مثل هذه الحالة النفسية بمختلف الاساليب التي قد يصل بعضها الى مرحلة التضحية بالنفس والقيام بعملية انتحارية تهز ضمير المجتمع وتخلق فيه الحالة المطلوبة والتي يستغلها قائد اجتماعي آخر من نفس الخط.

من القرآن الكريم:

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا ان القصص القرآني استعمل هذا الاسلوب لغرس النكات العقائدية في نفوس الافراد والجماعات، إذ ان القصة القرآنية غالباً ما تعتمد على عنصر خلق الجو العاطفي الملائم، وفي لحظة تنفجر فيها العواطف وتشد فيها الحواس وغرائز الاستطلاع الى القصة، يجري المفهوم القرآني المراد تسريته كالسلسلة الى النفوس.

ففي قصة يوسف عليه السلام نتابع احداث قصة عاطفية تحمل في جنباتها الحسن والنزاهة بكل معانيها في يوسف عليه السلام، والعاطفة والتسليم الكامل في يعقوب عليه السلام، والحسد والانحراف في اخوة يوسف.. ومع كل مقطع تتأجج فيه العاطفة يسري مفهوم رائع.. حتى تكون قمة التأجج في تلك اللحظة التي يحدثنا عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون﴾^(١) ترينا كيف يبدو الصمود امام المغريات وعفة النفس والخوف من الله، والاشارة الى نعمه العظمى،

واخيراً أعطى المفهوم القرآني الكوني العام (انه لا يفلح الظالمون). وهكذا في قصة مريم عليها السلام وهي المرأة العفيفة الطاهرة القديسة إذ يحدث عن ذلك الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً، ويدور ذلك الحوار المقدس بينها وبينه فيبشرها بسلام زكي رغم انها لم يمسه بشراً.

وهكذا الى ان وضعته ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا﴾ يا اخت هارون ما كان ابوك امراً سوء وما كانت امك بغياً ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ قال اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴿^(١) في اللحظة التي تنشد فيها كل المشاعر الى هذا الطفل المعجزة وهو يتكلم، يعطى مفهوم عبودية الله والنبوة لعيسى وتنفي عنه الصور التحريفية التي خلعت عليه.

وقد تكون القصة حاكية عن موقف عاطفي قوي يوجده النبي في قومه لتبقى ذكره حافزة دائماً على السير نحو المقصد الذي دعاهم إليه.

ومن ذلك مواقف ابراهيم عليه السلام مع قومه حينما طعنهم بأعز ما لديهم إذ كسر أصنامهم وعندما سألوه ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم﴾ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ﴿.

ويمكن ان نعتبر قصة تنصيب طالوت الرجل الفقير ملكاً وقائداً لبني اسرائيل في لحظة من لحظات تنبهم وشعورهم العاطفي العميق باحتياجهم للقائد الكفو المحنك.. نعتبرها أيضاً على هذا الاساس.. إذ لعله لم يكن من الممكن في الحالات العادية لتلك الامة ان تتقبل هذا الامر.. ولكن لما تيقظ الايمان في نفوسهم ووعوا أن طريق الجهاد في سبيل الله مفتوح امامهم وتقدموا الى نبي لهم يطلبون

القائد المحنك.. أراد النبي حينها ان يمتحن صدق ذلك التيقظ والشعور و «قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا» فأجابوا «وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وأبنائنا» وحينذاك وفي حالة ارتفاع المقياس الحراري للحس الجهادي عين الله لهم ذلك الملك اللائق والقائد الخبير ليقوم بوظائف الجهاد الخطيرة... ولا نريد ان نسبق المراتب فنذكر بالتشابه الاجمالي بين هذا الموقف وموقف الامام أمير المؤمنين (ع) ونعين مواردنا وانما ننتظر حتى يأتي دور الاشارة إلى ذلك.

مع موقف الرسول الاكرم:

وقد كانت هذه سمة بارزة من سمات تعامل النبي (ص) مع قومه سواء كان ذلك قبل البعثة الشريفة في سنيها الاولى أو حين تسلم القيادة ومقارعة الظلام.. اما قبل البعثة فلنا ان نشير الى لحظات اشترك فيها (ص) في نشاطات قومه بمجرد ان وجد فيهم ذلك الاستعداد الملائم، وذلك في مثل حلف الفضول الذي كان بعد ان شعرت قريش بعد حرب الفجار بأن ما اصابها انما هو من تفرق الكلمة وحرص كل فريق على ان يكون صاحب الامر، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبدالله بن جدعان فصنع لهم طعاما فتعاقدوا وتعاهدوا بالله لكونن مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة، فحضر (ص) مشتركا في تشكيله وكان بعد ذلك يقول: «ما احب ان لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لاجبت». انها لحظة صحو للمجتمع المشترك يستغلها (ص) ليسرع في انتاجها الخير.

وهكذا نتبع خطواته في مطلع الرسالة، التي يستغل فيها (ص) كل فترة صحو فردية أو اجتماعية ليعمل بكل قوة في سبيل استنفاد اقصى طاقة ممكنة فيها

وذلك من مثل فترة الصحو التي اعقبت حصره عليه السلام في الشعب إذ تدخل عليه السلام بكل ما يستطيع لايجاد الجو العاطفي الناقم على هذا العمل كي ينتهي الامر بتمزيق الصحيفة الظالمة.

اما في حالة القيادة للمجتمع الاسلامي فإن هذه الظاهرة كانت واضحة تماما في اية خطوة كبرى.. وكانت أكثر الحالات التي يتحرك فيها عليه السلام لانفاذ خطته الكبرى هي في اللحظات التي يتصاعد فيها الحماس الشديد للمسلمين اما بفعل حادثة قام بها العدو أو التأثير ببعض الاهداف التي يجسمها هو عليه السلام امامهم في مجال النصر العقائدي.

ولنا ان نتبع اسلوب تعامله مع اليهود وقد كانوا قوة يحسب لها حسابها في المدينة فيرى الظرف المناسب والتأثير المتأجج في بعض اللحظات ليتحرك تحركا قويا للقضاء على ذلك الاخطبوط الذي كان وما يزال لعنة تصب على الشعوب وتقف امام التكامل والرقى الحقيقي لها.

كما اننا اشرنا الى عملية التشاور التي كانت تسبق كل خطوة كبرى وقلنا انها كانت تستهدف فيما تستهدف اشعال نار الحماس لتقبل المسؤولية الكبرى. بعد كل هذا لنعد الى تصور حالة الامة التي رافقت تسلم الامام زمام القيادة وعظم الآمال التي كانت معقودة على ذلك الشعور السائد بالعمل المجاد لنعرف مدى امكانية تأجيل القيام بالاهداف.

المهمة التي تنتظر القائد:

لا يختلف اثنان في ان المهمة التي كان يجب ان يقوم بها الامام كانت مهمة صعبة وخطوة بعيدة المدى ملأى بالمخاطر، إلا انها كانت مما لا بد منه. فمن اشد الضرورات الاسلامية آنذاك كان العمل على اعادة الوجه الاسلامي للقيادة

والمجتمع ونفي البؤر التي كانت تعشعش هنا وهناك لتمتص دماء الشعب المسلم باسم الاسلام ولتعطي الاسلام مزيفا بعيدا عن روحه للامة. نعم يجب القيام بخطوة عظمى لاجل توجيه مسيرة الامة الى الطريق المفروض المخطط لها من قبل الله تعالى لكي تكون بالتالي محور الحضارة في العالم.

وذلك يستتبع نفي التصورات الطبقيّة في الذهن العام ونفي الانانيات الشخصية عند من هيأت لهم الظروف بعض ما يجعلهم يتمتعون لاجله بامتيازات خاصة.

هذه العملية الجبارة كانت امرا لا بد منه وهي تحتاج كما سلف - إلى القائد البصير المحنك المؤيد بقوى الغيب، والاطروحة البعيدة المدى الصالحة للتطبيق، والمشبعين بهذه الاطروحة، واخيرا تحتاج الى حالة حماسية تتخذها الامة تجاهها. ومع حصول هذه الشرائط فقط يمكن ان يمتلك القائد الفرصة الذهبية للقيام بمحاولته الجديدة وعمليته الجبارة بعزم راسخ.

الانحرافات والمصالح اججت نار الثورة:

لو اردنا الرجوع الى الجذور الاساسية التي اججت نار الحماس في الامة وجعلتها تتوجه في حالة عاطفية لا مثيل لها الى الامام امير المؤمنين فانا سوف نجد امرين متناقضين في واقعها وروحها لكنهما متحدان في مجال النفور من التشكيل الاداري والنظام التوزيعي القائم قبل الامام ﷺ وهذان الامران هما:
أ - نقمة قطاع كبير من الامة نظرا للمآسي الفظيعة والانحرافات الخطيرة للولاة، ونظرا لما لاقتة الطبقة الخيرة من بقايا الاصحاب من غمط واهانة وذلك كعمار بن ياسر، وعبدالله بن مسعود، وابي ذر الغفاري، في حين يتسنى الطلقاء مراكز حساسة في الادارة.

وهذه النعمة هي التي كانت تستمد روحها من روح الاسلام المنافية لكل تلك المآسي والاعتداءات على حقوق الآخرين.

ب - نعمة الطبقة الارستقراطية المصلحية الطامعة التي فكرت بين الحين والآخر بانها تستطيع ان تتسلم الازمة دون غيرها متناسية المصلحة الاسلامية العليا، واهداف التضحية وبذل الغالي والرخيص في سبيل البناء الاسلامي الكامل للامة.

وهكذا كانت تلك الثورة العارمة، ولقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة في حين كان الوقود هو تصرفات الهيئة الادارية وانحرافاتهما «واما الذي اجبها فهم اصحاب المصلحة فيها. هم هؤلاء الزعماء الذين اوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة الدينية ما مكنهم من جمع الانصار حولهم، ومن سوء الاوضاع ما سهل عليهم ان يعدوا الناس بخير مما هم فيه»^(١). فإذا لاحظنا ما كان يعهده الناس في علي عليه السلام من مركز فريد لدى رسول الله ﷺ نتيجة لتضحيته العظيمة وبصيرته النافذة ووعيه للاسلام بصورة كاملة، والتربية المقصودة التي كان قد قام بها النبي العظيم لشخصه الكريم منذ اوائل الطفولة.. والاخلاص الشديد للرسالة.. إذا لاحظنا ذلك عرفنا سر ذلك الانتشال العجيب نحو الامام.. من قبل الامة وعرفانها بانها لا مسير لها إلا الى قيادته ولن تجد قائدا يقود السفينة المائجة إلا هو.

وقد كان للتربية الخاصة التي اولاهها الامام لجماعة من خلص اصحابه الاثر البالغ في تأكيد شوق الامة نحوه كما سنرى ان شاء الله تعالى.

(١) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين ص ٤٨.

الحالة الحماسية للامة عند البيعة:

ان المتتبع لما ينقله الامام نفسه عن حالة الناس عند البيعة وما يؤكده المؤرخون بعد ذلك عنها ليجد نفسه يقف امام حالة فريدة لم تحدث إلا قليلا عبر حياة الامة مع الرسول ﷺ.

فلننظر كيف يصف الامام حالة الامة ثم نتبع ذلك بنقل نصوص من بعض المؤرخين.

يقول الامام ﷺ: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع^(١) إلي ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفائي مجتمعين حولي كربيضة الغنم»^(٢).

وقال ﷺ: «لم تكن بيعتكم اياي فلتة»^(٣).

ويقول ﷺ: «فأقبلتم الي اقبال العوذ المطافيل علي اولادها تقولون البيعة البيعة، قبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها»^(٤).

ويقول ﷺ: «وبسطتم يدي فكففتها ومددتوها فقبضتها، ثم تداكتم علي تذاك الابل الهيم علي حياضها يوم وردها، حتى انقطعت النعل وسقط الرداء ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم اياي ان ابتهج بها الصغير وهدج اليها الكبير وتحامل نحوها العليل وحسرت اليها الكعاب»^(٥).

وهل بعد وصف الامام لحالة الناس من وصف؟ انها البيعة المدركة

(١) ما كثر علي عنقها من الشعر.

(٢) نهج البلاغة، خ: ٣، ص ١٦.

(٣) نهج البلاغة خ: ١٣٦، ص ١٣٨.

(٤) نهج البلاغة خ: ١٣٧، ص ١٣٩.

(٥) نهج البلاغة خ: ٢٢٩، ص ٢٥٨.

للخيرات التي ستجنيها والتي لم تكن بلا تقدير مطلقا البيعة الشاملة التي تضم حتى العليل الكعاب، البيعة التي لم يسبقها ذلك التهويش وتلك الدعايات التي يقوم بها رجال السياسة ابان كل انتخاب.. البيعة التي لم تجبر احدا على القبول، ولذا رأينا البعض القليل جدا يعدهم بعض المؤرخين بثلاثة فقط - رفضوا فلم يجبروا على البيعة.. ولكنهم على ما يبدو عادوا الى السير في طريق الناس.

وقد اجمع المؤرخون على ان البيعة كانت بيعة لم يشهد لها تاريخ الاسلام مثيلا إلا القليل النادر يقول اليعقوبي:

«وبايعه طلحة والزبير والمهاجرون والانصار، وكان اول من بايعه وصفق على يده طلحة بن عبيدالله... وقام الاشر فقال: ابايحك يا امير المؤمنين على ان علي بيعة أهل الكوفة، ثم قام طلحة والزبير فقالا: نبايعك يا أمير المؤمنين على ان علينا بيعة المهاجرين، ثم قام أبو الهيثم بن التيهان وعقبة بن عمرو وابو ايوب فقالوا: نبايعك على ان علينا بيعة الانصار وسائر قريش.

وبايح الناس إلا ثلاثة نفر من قريش...»

ثم يحدثنا عن بعض ما قيل احتفالا بالبيعة:

إذ يقول خزيمة بن ثابت الانصاري وهو ذو الشهادتين: «يا امير المؤمنين ما اصبنا لامرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا اليك ولئن صدقنا انفسنا فيك فلأنت اقدم الناس ايمانا واعلم الناس بالله، وأولى المؤمنين برسول الله لك ما لهم وليس لهم ما لك».

ويقول صعصعة بن صوحان: «والله يا امير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ورفعتها وما رفعتك وهي اليك احوج منك اليها» وقد اثبت التاريخ ذلك. ويقول مالك الاشر: «ايها الناس هذا وصي الاوصياء ووارث علم الانبياء العظيم البلاء، الحسن الغناء الذي شهد له كتاب الله بالايمان، ورسوله بجنة

موقف الامام علي (ع) من معاوية ١٧١

الرضوان من كملت فيه الفضائل ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الا واهرا، ولا الاوائل».

واخيرا يحدثنا اليعقوبي عن قولة عقبة بن عمرو آنذاك وما اروعها من قولة: «من له يوم كيوم العقبة وبيعة كبيعة الرضوان، والامام الاهدى الذي لا يخاف جوره والعالم الذي لا يخاف جهله»^(١).

وينقل ابن قتيبة نصا عن ابي ثور أنه قال: «فلما كانت البيعة له - أي للامام - خرجت في اثره، والناس حوله يباليعون، فدخل حائطا من حيطان بني مازن فألجأوه الى نخلة، وحالوا بيني وبينه فنظرت اليهم وقد اخذت أيدي الناس ذراعه، تختلف ايديهم على يده»^(٢).

ويقول: «ثم ارسل بالبيعة الى الآفاق والى جميع الامصار فجاءته البيعة من كل مكان إلا الشام»^(٣).

تأجيج الحماس أو إخماده:

والآن وبعد ان رأينا هذه الحالة الفريدة للامة وذلك الاستعداد الشديد والتوق الاكيد لتحمل اعباء التطهير الشامل والرجوع الى معين الاسلام الصافي.. ورأينا شدة الحماس التي رافقت طلبها من الامام ان يتسلم زمام القيادة.. وانعطافها نحوه بشكل فوت على المصلحين الفرص لتمزيق الامة.. وخيب آمالهم التي دفعتهم لاشعال الثورة أو على الاصح دفعتهم لان يشاركوا الثائرين الواعين المتذمرين من التشكيل الاداري السابق، مشاعرهم ونفقتهم وثورتهم... بل وجدوا انفسهم

(١) تاريخ اليعقوبي ج: ٢، ص ٧٧.

(٢) الامامة والسياسة ص ٤٧.

(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

مسوقين مع مجموع الامة للانعطاف نحو امير المؤمنين بل من اوائل المبايعين له.
نعم... بعد ان رأينا كل هذه الانعطافات التاريخية نحو المسيرة المجادة فماذا
نتوقع من الامام امير المؤمنين؟.

بل ماذا كانت الامة تتوقع منه عليه السلام.. على ضوء انصهاره بالاسلام ووعيه
الكامل لأساليبه، وعلى ضوء تربية النبي القيادية الرائعة له.. وعلى ضوء منطق
الاحداث التاريخية؟

ان كل هذه الاضواء لتدعو الامام عليه السلام لان يغتتم الفرصة الذهبية التي
سنحت له.. وما اقل سنوحها للقادة... لكي يقوم بدوره التاريخي لتنفيذ المهمة
الشاقة الصعبة والتخلص من جيوب الانحراف وبؤر الفساد التي عاثت ببال الله
وبلاده فسادا.

ويجب ان لا يغيب عن بالنا ما عهدناه من امير المؤمنين في طوال حياته من
الهدفية والالتزام الكامل بتحقيق وتطبيق التعاليم الاسلامية، وان كل شيء يدوي
امام ذلك الهدف... وان كل شيء طريق له.. وبدونه فالخلافة عند علي عليه السلام لا
تعادل شسع نعل إلا ان يقيم حقا أو يبطل باطلا..

فهل نتوقع من امير المؤمنين إذ تسلم ازمة الحكم ان يعتبر ذلك - أي
المنصب - هدفه النهائي ويعمل جهده على توطيد اركان الدولة التي يقودها
شخصيا وبأي وسيلة كانت... حتى ولو كان ذلك على حساب الامة وضياع
آمالها.. أو على حساب اهدافه الاولى في انقاذ الامة من براثن النفعية والجاهلية
الفكرية والعملية والاضطراب الذي كان معاوية يمثل اقوى ذراع من أذرع
الامتداد.

فيقوم بالتالي بمهادنة معاوية وامثال معاوية وبيع الامة بانصاف الحلول أو
بخيال الفسح.. واتباع اسلوب الرشوة ورشوة زعماء القبائل والكتل السياسية
المختلفة لضمان الدولة وبالتالي تموت تلك الشعلة التي تأججت، وذلك الوحي الذي

تعمق.. وتلك الآمال التي كانت معقودة عليه للخلاص.. وتتقبل الامة والتاريخ بعد ذلك مثل هذا النظام البعيد عن روح الاسلام جملة وتفصيلا بعد ان امضاه المعارض الاول امضاء عمليا؟!

هل نتوقع ذلك ام نتوقع على العكس منه ان يقوم الامام وهو المخلص الاول للمبادئ والمجسد الاول بعد الرسول ﷺ للاسلام باستغلال انعطاف الوجدان الاجتماعي المتحمس نحوه.. وروحية تقبل العمل على محو الفساد.. ليؤدي مهمته الكبرى التي نذر وجوده لها.. ويتسلم موقعه الطبيعي الذي اراده الله له من قبل ليأتي على عوامل الفساد ويجدد الاسلام؟

اننا لن نتوقع كما لم تتوقع الامة.. والمنطق التاريخي والاسلامي منه إلا سلوك الطريق الاخير لا غير.

ومن هنا نعرف بالدقة معنى قوله ﷺ: «ولقد ضربت انف هذا الامر وعينه فلم ار فيه إلا القتال أو الكفر»، فكان علي ﷺ بهذا - كما وصفه عقبة بن عمرو - «الامام الاهدي الذي لا يخاف جوره».

وهكذا كان الامر... والظاهرة الرائعة انه ﷺ لم يكتف بذلك الحماس وانما عمل على ان يعطيه روحا بتطعيمه بامرین مهمين هما:

أ - وضوح الاهداف.

ب - الالتزام المسبق بها.

ولكن كيف ركز الامام ﷺ هذين المعنيين في قلب الثورة والحماس العام؟ هذا ما سنحاول التحدث عنه في مايلي ان شاء الله تعالى..

الفصل الخامس

غرس الهدفية والالتزام الثقيل في قلب الحماس
- أساليب ذلك -

أ - الامتناع.

الرفض لم يكن مطلقا.

التذكير بذلك.

ب - خطب الامام تبني الانسانية الواعية الملتزمة

الانسان الواعي... من هو؟

تحديد مركز الانسان من الكون وهدفه فيه.

المسؤولية العظمى.

المقياس الصحيح.

اسلوب العمل.

الاطار العام لاداء المسؤولية - اتباع الحق.

الموقف في الشبهة.

الدخول المجموعي في الاطار.

الخلاصة.

اشرنا إلى أن الامام عمل بكل تركيز على أن يعطي ذلك الحماس الروحي الشعلة التي تبقى متأججاً لفترة أطول مهما أمكن، وحسب الطاقات والاستعدادات المتوفرة في الأمة، تلك الروح تمثلت في تطعيم عملية التأجيج بعنصرين مهمين هما:

أ - ايضاح الأهداف العامة وإزالة ما علق بها من شوائب.
ب - خلق روح الالتزام المسبق بكل ما له دخل في تحقيق تلك الأهداف.
كل ذلك مع اعطاء النماذج الحيوية الحسية العالية للأمة لكي تتجسد لها المعاني فتتشد اليها بكل وجودها.
ولربما كان من الواضح أن يقال ان أي حماس اجتماعي - بل أي عواطف أخرى - وحتى على صعيد فردي لا يمكن ضمان بقاءه إلى فترة أطول وعلى نفس المستوى من الادراك - ان كان حماساً مدركاً - إلا إذا امتلك القاعدة والمنبع الذي يمد بالحرارة كلما طرأت عوامل الفتور والانحسار ويعين له مساره كلما لاحت في مسيره بوارق الانحراف أو الاستغلال.

وبدون ذلك فالحماس مؤقت سرعان ما يزول فينقطع المدد في عز المعركة مع كل قوى الانحراف التي انتشرت هنا وهناك فخلقت وضعاً خطراً وفتنة عمياء تحتاج إلى كل ما يمكن من الاخلاص والوعي والادراك في القائد، وإلى الكثير من التوضيحات ووضوح الأهداف في الأمة.

وهكذا كان الأمر في القيادة إذ يقول أمير المؤمنين بعد ذلك: «ان معي

لبصيرتي ما لبَّسْتُ على نفسي ولا لبَّسَ عليَّ»^(١).

يقول الدكتور طه حسين متحدثاً عن الموقف آنذاك:

«ونظر الخليفة الجديد، ونظر أصحابه معه فإذا هم يواجهون اموراً عظماً وقد احاطت بهم فتنة مشبهة معماة إذا أخرج الرجل فيها يده لم يكدرها. أمام هذه الامور العظام، وفي قلب هذه الفتنة المظلمة الغليظة وجد علي نفسه كأحسن ما يجد الرجل نفسه.

صَدَّقَ ايمان بالله ونصحاً للدين وقياماً بالحق واستقامة على الطريق المستقيمة لا ينحرف ولا يميل ولا يدهن من أمر الاسلام في قليل ولا كثير وانما يرى الحق فيمضي إليه لا يلوي على شيء ولا يحفل بالعاقبة، ولا يعنيه أن يجد في آخر طريقه نجحاً أو إخفاقاً، ولا أن يجد في آخر طريقه حياة أو موتاً، وانما يعنيه كل العناية أن يجد اثناء طريقه وفي آخرها رضا ضميره ورضا الله»^(٢).
هكذا كان القائد... فيجب أن تكون الامة أقرب إلى روح ذلك القائد.

غرس الهدفية والالتزام الثقيل في قلب الحماس:

ولقد قام الامام عليه السلام ببعض الاساليب الرائعة لغرس المعنيين الآنفين في قلب الحماس المؤقت، ليضمن دوام ذلك الحماس واتخاذ مسرى طبيعياً متلائماً مع الاسلام، وسائراً جنباً إلى جنب مع خطوات الامام الاصلاحية الكبرى التي تتطلب التضحيات الشديدة. فلم يكن من المتوقع أن تتحمل الامة كل ثقل تلك الخطوات لولا تلك الفورة، فاستغلها الامام أروع استغلال لأخذ العهد والالتزام بعد توضيح الهدف الذي يجب أن تسعى إليه، وازالة ما ربما عرض في اذهان

(١) نهج البلاغة خ: ١٠، ص ٢٠.

(٢) علي وبنوه للدكتور طه حسين ص ١٦.

البعض من أن مراكزهم وسوابقهم مثلاً تشفع لهم وتعوض عن الكفارة المطلوبة في تولي أي مركز معين في دولة الاسلام الفريدة.

أما تلك الاساليب التي اتبعها الامام عليه السلام في مجال غرس الهدفية والالتزام والاحتفاظ بالتأجج القائم فيمكن أن نذكر منها مايلي:

أ- الامتناع:

لا ريب أن الامام امتنع بادئ الأمر عن قبول الخلافة، وقد كانت صدمة للجميع أن يرفض الامام تولي القيادة وهو الذي كان زينتها وخير من هو أهل لها... ولكنه كان على حق تماماً في ذلك.. وكان ذلك ينسجم تماماً مع المهمة التي أرادها الله لها... فلقد رمى أمير المؤمنين من خلال ذلك الرفض أن يشعر الأمة التي هزتها تلك الثورة أن القيادة والخلافة ليست بالأمر الهين البسيط الذي يمكن أن تفرضه عاطفة أو تأجج مؤقت. إنها مسألة حيوية عظيمة في حد نفسها فكيف والمراد هو الانضواء تحت لواء وارث إخلاص الأنبياء وبعد نظرهم عليه السلام، والقائم على تنفيذ أطروحة الاسلام بدقة تامة، وفي ظروف ملأى بالكثير من التناقضات والانحرافات ولقد كان لذلك الامتناع الجريء الواعي اثره العميق في تشديد حماس ابناء الأمة وشدة تعلقهم بقيادته، في نفس الوقت الذي دفعهم لأن يتصوروا على الإجمال انهم مقبلون على مرحلة عمل صعب شاق للاسلام لأن ينبعث في نفوسهم الشوق نحو العدالة الاسلامية في ظل ذلك العمل فيفوزوا بخير الدنيا وخير الآخرة.

وتكررت المحاولات وامتنع الامام عليه السلام.. وشعر الناس بالخطر العظيم لو لم يقبل امير المؤمنين البيعة. يقول ابن قتيبة: «فأبى - يعني الامام - أن يبايعهم فانصرفوا عنه وكلم بعضهم بعضاً فقالوا: يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد

فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه ببيع لأحد بعده فيثور كل رجل منهم في ناحية، فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد فارجعوا إلى علي، فلا تتركوه حتى يبايع»^(١). ولا يمكن أن يكون هذا معبراً عن الدوافع الرئيسية للرجوع مرة ثانية ولكنه يعبر عن بعضها.. إذ إن الكثيرين كانوا يطمحون للوصول إلى عدل الامام وخير دولته، فكان امتناع الامام سبباً في تشدد الأمر عليهم، ولذا كان شعار البيعة «لا يصلح لها إلا علي»^(٢). وقام الناس بتوسط الأقربين من علي عليه السلام من أصحابه ليؤكدوا عليه كي يقبل.

الرفض لم يكن مطلقاً:

وأخذ الرفض شكلاً معيناً فلم يكن رفضاً مطلقاً وإنما هو رفض مشروط.. ثم يتجدد النظر إذا انتفت تلك الحالة، أي حالة عدم المبالاة بالحق، وعدم الشعور بالمسؤولية إنما كانت تبعثها وبأي قطاع تعلقت من الأمة أو قطعة من الأرض الإسلامية، حالة عدم الإقدام على التضحيات في سبيل الرسالة إلا إذا ضربت المصالح المباشرة، حالة عدم الالتزام بكل الأمور التي يحتاجها القائد لأجل أن ينشر العدل الإسلامي وينفي الشوائب الاجتماعية. انه خلال الامتناع كان يؤكد:

«دعوني والتمسوا غيري، فانا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد اغامت، والمحجة قد تنكرت، وأعلموا أني إن اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم اصغ إلى قول القائل وعتب

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص ٤٧.

(٢) البداية والنهاية ج ٧، ص ٢٥٤.

العاتب، وان تركتموني فأنا كأحدكم»^(١).

«واذن فقد كان علي عليه السلام يدرك، نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التي كانت تحتاج المجتمع الاسلامي في ذلك الحين، وأن المد الثوري الذي انتهى بالامور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً يتناول دعائم المجتمع الاسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ولما كانت البيعة عقداً حقيقياً يستتبع مسؤوليات وواجبات وحقوقاً لكل من الراعي والرعية، لذلك امتنع من الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بشأن قبول بيعتهم له بالخلافة، فقد أراد أن يضعهم امام اختيار يكشف به مدى استعدادهم لتحمل اسلوب الثورة في العمل، لئلا يروا فيما بعد انه استغفلهم، واستغل اندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب ان يناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها»^(٢).

وفكر الناس والزعماء في قلب ذلك الحماس فلم يجدوا بداً من الامام بعد أن كان نداء الفطرة ونداء الاسلام ورسوله العظيم متجسداً في ندائه عليه السلام. فلا بد إذن من القبول بل إن تلك الشروط هي التي كانوا يرغبونها بالاجمال وقد فصلها أمير المؤمنين وبث فيهم الوعي لها... فليندفعوا مرات وليوسطوا أكابر أصحابه... ومنهم الاشترا النخعي. وألح أصحاب الامام بطلب من الامة عليه فقبل عليه عليه السلام «وأخذ الأشر بيده فبايعه وبايعه الناس وأهل الكوفة. يقولون: أول من بايعه الاشترا النخعي وذلك يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة، وذلك بعد مراجعة الناس لهم في ذلك وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا علي، فلما كان يوم الجمعة وصعد علي المنبر بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة... ثم

(١) نهج البلاغة خ: ٩٢، ص: ٩٤.

(٢) ثورة الحسين لسماحة الشيخ مهدي شمس الدين: ٥٣، مطبعة نمونة / قم.

الزبير»^(١).

التذكير بذلك:

إن البيعة العامة التي تمت بهذا الأسلوب أكدت لنا عظم المسؤولية التي كان الامام يريد أن تحملها الأمة، كما أكدت لنا ان الأمة كانت قد استوعبت نوعاً ما تلك المهمة وفكرت خلال فرصة الامتناع طويلاً فلم تجد بداً من القبول بالحمل الثقيل إن هي ارادت لنفسها البقاء أمةً تعمل على حمل الاسلام للعالم. فالامتناع إذن شكّل بالاضافة إلى التأجيح المطلوب فرصة للتفكير وشهادة حية على سلامة البيعة ونزاهتها.

ومن هنا رأينا الامام عليه السلام يذكر الامة بها وبأسلوبها كلما خبت فيها جذوة أو خارت لها عزيمة في موطن من المواطن ليستطيع أن يثير فيها الحماس من جديد ويشعل فيها الجذوة.

فهو يقول في خطبته المعروفة بالشقشقية:

«فما راعني إلا والناس كعرف الضبع الي، ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان وشق عطفائي، مجتمعين حولي كرياضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى، وقسط آخرون. كأنهم لم يسمعو الله سبحانه يقول:

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ بلى والله لقد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها.

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٢٥٤.

أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يқاروا على كظۃ ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفة عنز»^(١).

فهو ﷺ يحاسب اولئك قبل كل شيء لتخلفهم عن مثل تلك البيعة بعد وضوح الرؤية ووعي مضمون الآية الكريمة، ومن ثم يذكر بأروع اسلوب بهدفة الواضح ولولاه لما كانت الدنيا تعني لديه شيئاً.

وفي مناسبة أخرى يخاطبهم ﷺ بعد أن رأى فيهم تلكواً فيقول:
«لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً اني أريدكم لله وانتم تريدونني لانفسكم.

ايها الناس أعينوني على أنفسكم، وايم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزائمه، حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً»^(٢).

إذن فالبيعة التامة الواعية تتطلب منهم أن يعينوه ﷺ في تنفيذ خطته الكبرى وتركيز العدالة الاجتماعية الاسلامية وتقليم كل انماط الشذوذ في المجتمع. كما أن ذلك الاسلوب من البيعة المدركة كان مورداً لا حتجاجة ﷺ على طلحة والزبير اللذين نكثا بعد ذلك فيقول ﷺ:

«فأقبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل^(٣) على اولادها تقولون البيعة البيعة. قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها، اللهم انهما قطعاني»^(٤).

(١) نهج البلاغة خ: ٣ «الشفشقية»، ص: ١٦.

(٢) المصدر السابق، خ: ١٣٦، ص ١٣٨.

(٣) العوذ: بضم العين جمع عائذة وهي التناج من الظباء والابل أو كل انثى، والمطافيل جمع مطفل بضم الميم وكسر الفاء: ذات الطفل من الانس والوحش.

(٤) نهج البلاغة خ: ١٣٧، ص: ١٣٩.

ويقول أيضاً بهذا الصدد:

«والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة ولكنكم دعوتوني اليها، وحملتوني عليها»^(١).

إن ذلك التذكير القوي كان يستمد التأثير من صدقه وكشفه الحقيقي عن الواقع التاريخي الذي يتذكره أولئك تماماً.

كما انه كان يستمد من سلوك الامام السابق على البيعة واللاحق لها، ذلك السلوك الزاهد عن زخارف الدنيا وملذاتها، والمتحرر من كل قيودها في سبيل تنفيذ المهمة الشاقة، وإيجاد التوازن الاجتماعي الذي عمل الاسلام على أن يسود كل القطاعات الاجتماعية.

ان هذا المدد كان يؤثر أثره البالغ في منح ذلك التذكير التأثير القوي عندما تمر الأمة في لحظات الاستسلام للتقاعس أو التشكيك في واقع المعركة بفعل عوامل عديدة ستأتي الإشارة اليها ان شاء الله. ومن هنا فقد رأينا الاستجابة السريعة في مواطن كثيرة لهذا التحريك والتذكير مما يشعر بعودة روح الحماس المطلوبة.

ب - خطب الامام تبني الانسانية الواعية الملتزمة:

وقبل الدخول في توضيح هذه الحقيقة نود ان نذكر - كما ذكرنا مراراً - بأننا هنا نحاول ان نشير اشارة عابرة إلى معالم الصورة التي نريد أن ترسم في ذهن القارئ الكريم.. اما التفاصيل والحقائق المتفرعة فلها مجالها الواسع في دراسات أعمق وأوسع نرجو ان يتوافر عليها مفكرو الامة ويستنبطوا منها أروع الافكار.

(١) المصدر السابق. خ: ٢٠٥، ص: ٢٣٥.

كما اتنا نود ان يكون القارئ الكريم على علم باننا - ونحن نتعرض لخطب الامام عليه السلام - نعلم بأن الكثير الكثير من كلماته القيمة وتوجيهاته السديدة قد طواها عامل الزمن واخفها يد الغير عن شعور أو لا شعور، ولعل أهم مصدر يمكن أن يعتمد عليه في هذا المجال هو الكتاب القيم الرائع «نهج البلاغة» الذي حاول فيه السيد الرضي رحمة الله عليه أن يجمع ما شاء له اختياره الرفيع شذرات من كلام الامام عليه السلام - لا كل الكلام - وهذا واضح من المقاطع التي ينقلها بعبارة «ومن خطبه عليه السلام» أو «ومنها» وغير ذلك من التعبيرات التي تعبر عن الاقتطاع من الخطب المروية التي تنقص هي في أصلها حتما عن مجموع كلماته التي عبر فيها خلال حياته وخصوصاً في اواخرها عن روح الاسلام بمخايفها.

ولكننا ندعي انه رغم ضياع الكثير من كلماته عليه السلام فإن المتبقي منها يمكنه أن يمنح الانسان الباحث المدقق صورة كاملة عن اطروحة البناء الفريدة التي خطط لها عليه السلام كي يبني الانسان المسلم الواعي الملتزم، ويبقى بالتالي على منابع الحماس الاجتماعي الثرة والتي تمكنه بالتالي من بناء الانسانية الواعية الملتزمة، كل ذلك على ضوء تعاليم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والقرآن العظيم ومتطلبات الواقع الانساني.

الانسان الواعي من هو؟

انه الموجود الذي يمتلك قدرة فكرية ميزته عن باقي الموجودات الكونية الاخرى، وبهذه القدرة العجيبة - وعلى ضوء هدى السماء - استطاع أن يعرف حقيقة الوجود العام ومبدأه وخالقه، كما استطاع على ضوء ذلك أن يحدد مركزه هو من الوجود، وبعد تحديد المركز عمل على ان يعرف هدفه في حياته، وبعد تحديد المركز والهدف رجع إلى تلك القدرة الفكرية يستنطقها عن مسؤوليته في الطريق إلى الهدف لتجيبه بالرجوع مرة ثانية إلى هدى السماء كي يعرف

مسؤوليته العامة تلك، ولكي يستمد منها مقياسه العام لتمييز المسار الصحيح، وأخيراً ليستمد نوعية الاطار الذي يجب ان يؤطر عملية تنفيذ مهام المسؤولية، ليخلص بالتالي إلى نوعية التنفيذ فتستريح نفسه الوالهة وتطمئن روحه إلى النتيجة، فينذر لها وجوده وحينذاك فهو الانسان الواعي الملتزم.

خطب الامام تحدد مركز الانسان وتوضح هدفه:

ولقد شكلت خطب الامام عليه السلام - كأصفي نفس انسانية تتبع الرسول الأكرم ﷺ وأروع تجسيد لتعاليم القرآن الكريم - شكلت واسطة الهدى السماوي الذي ارشد الطاقة الفكرية لدى الانسان نحو حياته المثلى التي اشرنا اليها. فأول ما يطالعنا في هذا البين هو تصنيف الامام للناس إلى ثلاثة اصناف، والتركيز على 'صنف واحد هو الصنف المتحرك العامل بأقصى سرعة، الواعي لما يدور حوله والمتتبع للطريقة الوسطى التي تضيء معالمها تعاليم الكتاب وآثار النبوة فلنسمعه عليه السلام يقول من خطبة له:

«شغل من الجنة والنار وأمامه. ساع سريع نجبا، وطالب بطيء رجبا ومقصر في النار هوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي المجادة عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، واليها مصير العاقبة»^(١)، ويعلن فيها بأروع تعبير «وكفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره»^(٢)، ويصف الانسان الواعي بأنه «نظر فأبصر وذكر فاستكثر وارتوى من عذب فرات سهلت له موارده، فشرب نهلا، وسلك سبيلا جدداً، قد خلع سراويل الشهوات، وتخلّى من الهموم، الا هما واحداً انفرد به فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، وصار من مفاتيح

(١) نهج البلاغة خ ١٦، ص ٢٣.

(٢) نهج البلاغة خ ١٦، ص ٢٤.

أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك من العرى باوثقها، ومن الحبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»^(١).

فما هو قدر الانسان وما هو مركزه الواقعي؟

انه ﷺ يوضح للانسان المسلم مركزه بتوضيحه الأسس العقائدية التي تحدد المركز، والنقطة العقائدية الأولى التي تلقي الاضواء على كل شيء يأتي بعدها، هي مسألة التوحيد الخالص التي تشكل روح كل النظرات الاسلامية في مختلف المجالات، التوحيد الذي ينزه الله عن كل شبهة شريك ونظير وكفاء والذي يرجع الأمور كلها إليه تعالى فهو الأول لا شيء قبله، والآخر لا غاية له، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس... وهذه قبسات من كلماته ﷺ في هذا المجال:

«الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود، فطر الخلاق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه، اول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له وكمال الاخلاص له نبي الصفات عنه... أنشأ الخلق انشاءً وابتدأه ابتداءً... احوال الاشياء لاوقاتها، ولأم بين مختلفاتها وغرز غرائزها...»^(٢).

فاليه ترجع الأمور كلها، وهو تعالى مبدأ الكون وخالقه، بمقتضى رحمته، ومن رحمته الواسعة خلق الانسان بهذا الشكل الرائع.

«ثم جمع سبحانه من حزن الارض وسهلها وعذبها وسبىها تربة سنها

(١) نهج البلاغة، ج ٨٧، ص ٧٧.

(٢) نهج البلاغة ج ١، ص ٧ - ٨.

بالماء، حتى خلصت، ولاطها بالبلّة حتى لزبت... ثم نفخ فيها من روحه فمثلت انساناً ذا اذهان مجيّلها، وفكر يتصرف بها وجوارح يخدمها وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل... واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديمهم وعهد وصيته اليهم في الاذعان بالسجود له والخنوع لتكرّمته...»^(١).

وهكذا تتقرر حقيقة كرامة الانسان كما تتحدد وظيفته كخليفة وأمين لله في الأرض عليه ان يعمرها في ظل هدى السماء فكل شيء حوله مملوك له تعالى «وانما المال مال الله»^(٢).

«ثم اداء الامانة فقد خاب من ليس من اهلها»^(٣)، فيجب ان يقوم بحقوق الامانة لما كان اميناً على اعمار الارض.

ويتكاثر ابناء آدم والفطرة تحكمهم بصفائها، يعيشون بنعمة من الله ورحمة، وشيئاً فشيئاً بدأ الانسان يبدل عهد الله ويجهل حقه، ولما صار المبدلون الاكثريّة شاءت الرحمة الالهية أن تبعث اليهم الانبياء «واصطفى سبحانه من ولده انبياء اخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة امانتهم، لما بديل أكثر خلقه عهد الله اليهم فجهلوا حقه واتخذوا الانداد معه واجتالهم الشياطين عن معرفته واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله وواتر اليهم انبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته... على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور»^(٤)، فرحمته تعالى وسنته قضت على مر الدهور ان ترسل السماء سلسلة من اعظم الانسانية كي يقودوها ويواصلوا عملية التربية الكبرى للبشرية وكان خاتم تلك السلسلة الطاهرة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله «إلى ان بعث الله سبحانه محمداً صلّى الله عليه وآله

(١) نهج البلاغة خ ١، ص ١٠.

(٢) نهج البلاغة خ ١٢٥، ص ١٣٠.

(٣) نهج البلاغة خ ٩٩، ص ٢٣٢.

(٤) نهج البلاغة خ ١، ص ١٠ - ١١.

لانجاز عدته و اتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده...»^(١).

ويقول عليه السلام فيه ﷺ في موضع آخر: «ارسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور، والنور الساطع»^(٢)، ويقول عليه السلام: «ارسله على حين فترة من الرسل، وتنازع من اللسن، ففقي به الرسل، وختم به الوحي»^(٣). فالنبي اذن خاتم الانبياء جميعاً ورسالته خاتمة الرسالات التي لا بد من ان تكون رسالة خالدة مع البشرية انفاذاً لسنة الله في الأرض التي لا بد ان تكون الرسالة السماوية هي التي تنهض بعبء هدايتها ما دام لها وجود.

ثم يأتي دور تحديد مركز أهل البيت عليه السلام من الرسالة الخالدة كحملة لها وعيبة علم، ولجأ أمر، وكقادة يواصلون عملية التربية الكبرى تلك ويبقون مع البشرية على امتدادها ليواصلوا نشر الاسلام والتعريف باحكامه من منابعه الصافية وصيانتهم من كل شبهة والتباس، ويلاحظ هنا التركيز الشديد على مركزهم عليه السلام وذلك نظراً لتضائل النظرة الحقيقية في النفوس وضياع مفعول الكثير من التوصيات والاحاديث النبوية الشريفة فيهم عليه السلام فتراهم عليه السلام يصفهم بانهم موضع سر النبي ولجأ أمره وانهم اساس الدين وعماد اليقين اليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، وهم ازمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، وهم خير العتر، وهم كمثل نجوم السماء إذا هوى نجم طلع نجم، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم، وينابيع الحكم وعندهم ابواب الحكم وضياء الأمر، وان نطقوا صدقوا، وان صمتوا لم يسبقوا، وهم عيش العلم وموت الجهل

(١) نهج البلاغة خ ١، ص ١١.

(٢) نهج البلاغة خ ٢، ص ١٢.

(٣) نهج البلاغة خ ١٣٣، ص ١٣٦.

وان بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه^(١).

وهكذا سار الامام أمير المؤمنين عليه السلام من بدء الخلق حتى وصل إلى مركز القيادة الحقيقية وهم أهل البيت الذين يمثلهم هو عليه السلام آنذاك... فهل يبقى بعد ذلك أي غموض عند المسلم بما يتصل بمركزه وهدفه؟ ان مركزه وهدفه يتلخصان على ضوء ذلك في ان الانسان فرد من المخلوقات الكونية التي خلقت كلها برحمة الله تعالى، وقد اقتضت رحمة الله ان تميزه بالعقل والمعرفة والارادة ليقوم باعمار الأرض عارفاً بالله محققاً رضوانه تحت ظل قيادة معصومة بدأت بآدم عليه السلام ومرت بالانبياء جميعاً وكان خاتمهم رسول الله ﷺ الذي جاء بالدين الخالد ونصب الاوصياء المستحفظين على الدين وهم أهل البيت عليه السلام الذين يمثلهم امير المؤمنين عليه السلام.

فالمنطلق هو حق الاستخلاف في الأرض والهدف تحكيم عبادة الله وتحقيق الانسانية الملتزمة بعهد الله تعالى السائرة إلى هداها تحت ظله، والطريق هو الاسلام والاسلام لا غير، والقائد الوارث لقيادة الانبياء كلهم عموماً والرسول الأكرم ﷺ خصوصاً هو الامام عليه السلام.

المسؤولية العظمى:

إذا توضح كل ذلك في خلد المسلمين توضح أن المسؤولية الكبرى التي يجب على الأمة حملها هي الاسلام، لأنه الطريق الوحيد لها «وان في سلطان الله عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها، والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام ثم لا ينقله اليكم أبداً حتى يارز الأمر إلى

(١) راجع ص ٧٣٣ - ٧٣٤ لتبيين مواضع تلك الصفات.

غيركم»^(١)، وذلك تحت لوائه ﷺ والعمل على نفي كل السبل التي يقودها فيها ﷺ فلن يجدوا غيره اماماً يظاً بهم طريق الدعوة والبناء. يقول ﷺ: «اتوقعون اماماً غيري يظاً بكم الطريق، ويرشدكم السبيل؟»^(٢)، ويقول ﷺ: «أين الذين زعموا انهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وأدخلنا وأخرجهم. بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى. إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم»^(٣).

المقياس الصحيح:

أما المقياس الصحيح الذي لا يزبغ فهو كتاب الله المجيد الذي يجب ان يشكل كل شيء في حياة المسلمين، فالحكم للقرآن الذي لا اختلاف فيه) و(كفى بالقرآن حجيلاً وخصياً) وهو (أحسن الحديث ربيع القلوب، وشفاء الصدور، وأنفع القصص)، وهو (كتاب الله بين أظهركم، ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم اركانه، وعز لا تهزم أعوانه) وهو (كتاب الله تبصرون به وتنطقون به، وتسمعون به) و (لا تخلقه كثرة الرد، ومن قال به صدق، ومن عمل به سبق) والخلاصة هي (ان القرآن عصمة للمتمسك)^(٤).

وأما اسلوب العمل بالاسلام فهو وعي الاحكام والعمل بها اولاً ثم حملها على وعي إلى الآخرين عن طريق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخلق الله سبحانه، وانهما لا

(١) نهج البلاغة، خ ١٦٩، ص ١٧٥.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٨٢، ص ١٩١.

(٣) نهج البلاغة خ ١٤٤، ص ١٤٣.

(٤) نهج البلاغة خ ١٥٦، ص ١٥٦.

يقربان من أجل، ولا ينقصان من رزق»^(١)، «فان الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(٢)، ثم القيام بحمل الجهاد الثقيل في مختلف المجالات وبمختلف الوسائل «فان الجهاد باب من ابواب الجنة فتحه الله لخاصة اوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة»^(٣)، «أين القوم الذين دعوا إلى الاسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فاحكموه وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى اولادها»^(٤) ويقول عليه السلام «وعضوا على الجهاد بنوا جذكم»^(٥).

الاطار العام لاداء المسؤولية:

بعد أن عرفنا ما هي المسؤولية، وما هو مقياس العمل لاجلها وما هي كيفية القيام بحملها وجب علينا أن نستبين الاطار العام الذي يجب ان يؤطر عملية التنفيذ وذلك كما توضحها لنا خطب الإمام عليه السلام وبعض معالم ذلك الاطار. والعنوان العام لذلك الاطار هو اتباع الحق اينما كان ومهما كانت المصاعب التي تترتب على اتباعه والعقبات التي تقف في طريقه من فقدان مصالح شخصية، وقلة النصير، وتقولات الناس إلى غير ذلك وهذا ما تؤكد النصوص التالية: «ان أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وان نقصه، وكرثه من الباطل وان جر إليه فائدة وزاده»^(٦).

(١) المصدر السابق.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٩٢، ص ٢١٨.

(٣) نهج البلاغة، خ ٢٧، ص ٣٢.

(٤) نهج البلاغة، خ ١٢١، ص ١٢٦.

(٥) نهج البلاغة، خ ١٢٢، ص ١٢٧.

(٦) نهج البلاغة، خ ١٢٥، ص ١٣٠.

«لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشك إلا الباطل»^(١).

«الذليل عندي عزيز حتى أخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى أخذ الحق منه»^(٢).

«أيها الناس اعينوني على انفسكم، وإيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولاقودن الظالم بخزائمه حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارها»^(٣).

الموقف في الشبهة:

هذا إذا كان الموقف واضحاً والحق منبجاً، أما إذا غامت الاجواء والتبس الحق بالباطل كما يقول عليه السلام: «وانه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا اظهر من الباطل»^(٤)، في مثل هذا الموقف لابد من ملاحظة أمرين:

الأمر الاول: نفي الأسباب الممهدة للانحراف عن الحق، والتي تلقي غبشاً في رؤية الانسان فيعشى عن تشخيص الحق من الباطل.

والأمر الثاني: الرجوع إلى السبيل الأقوم دائماً وهو القرآن وأهل البيت عليهم السلام، ففي الجانب الأول يعلن عليه السلام أن أكبر الاسباب التي تنحرف بالانسان عن الحق هو اتباع الهوى وطول الأمل «أيها الناس ان أخوف ما اخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»^(٥).

(١) نهج البلاغة، خ ١٣٠، ص ١٣٤.

(٢) نهج البلاغة، خ ٣٧، ص ٤٣.

(٣) نهج البلاغة، خ ١٣٦، ص ١٣٨.

(٤) نهج البلاغة، خ ١٤٧، ص ١٤٥.

(٥) نهج البلاغة، خ ٤٢، ص ٤٤.

«فرحم الله امرأ نزع عن شهوته وقمع هوى نفسه، فإن هذه النفس أبعد شيء منزعاً، وانها لا تزال تنزع إلى معصية في هوى»^(١).
«واعلموا أن الأمل يسهي العقل وينسي الذكر، فاكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور»^(٢).

ويصف الانسان الواعي في خطبة مر ذكرها فيقول: «قد أخلص الله فاستخلصه فهو من معادن دينه، وأوتاد أرضه، قد الزم نفسه العدل، فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه يصف الحق ويعمل به»^(٣).

وكلا هذين العاملين علاجهما يكمن في الزهد الذي يعني في مدلوله الصحيح ما تتطلبه العبودية الخالصة لله من تحرر من كل ما عداه. أما أولئك الذين تركوا الزهد فقد كان عليه السلام يصف لهم صفاتهم التي قد لا يشعرون بها لطغيان حب المادة عليهم، ثم يدفعهم لنبذها والتحلي بالزهد وان لا تغرهم الدنيا المادية الرخيصة فيقول عليه السلام: «ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم، وقلة صبركم عما زوي منها عنكم كأنها دار مقامكم»^(٤).

وكتب إلى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من أهل البصرة لحقوا بمعاوية «وانما هم أهل دنيا مقبلون عليها مهطعون اليها وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة فهربوا إلى الاثرة فبعداً لهم وسحقاً»^(٥).

(١) نهج البلاغة، خ ١٧٦، ص ١٨١.

(٢) نهج البلاغة، خ ٨٦، ص ٧٧.

(٣) نهج البلاغة، خ ٨٧، ص ٧٧.

(٤) نهج البلاغة، خ ١١٣، ص ١١٩.

(٥) نهج البلاغة، خ ٧٠، ص ٣٤٧.

ويقول عليه السلام: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع»^(١).

ويمكننا أن نعد التعصب نوعاً من الهوى المستحكم وقد حاربه عليه السلام بكل شدة «ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فانكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة... فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور»^(٢).

هذا في الجانب الأول اما الجانب الثاني فهو الرجوع مرة ثانية إلى موئل الحق الصراط المستقيم، وهو ما تركه النبي ﷺ للامة مستمسكاً ونقصد به (الكتاب والعتره)، فقد ركز على الرجوع اليهما إذ يقول في نص رائع جداً: «فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب، والبارئ من ذي السقم، وأعلموا انكم لن تعرفوا الرشده حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله فانهم عيش العلم وموت الجهل. هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم. لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق»^(٣).

الدخول المجموعي في الاطار:

ثم ان اتباع الحق له مجالان فردي واجتماعي، والثاني يجب أن يبتني على الأول ويتفرع منه، وذلك واضح في مجتمع يريد أن يكون طليعة الارض وقائدها

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢١٩، ص ٣٨٣.

(٢) نهج البلاغة، خ ١٩٢، ص ٢١٥.

(٣) نهج البلاغة، خ ١٤٧، ص ١٤٦.

نحو الحق، ومن هنا فيجب الدخول المجموعي تحت راية الحق يشد الكل إلى الآخرين شعور عميق بالوحدة وتربطهم عاطفة قوية ابتنيت على أسس واقعية عقائدية وهي الاخوة، وهنا يقول عليه السلام: «واياكم والفرقة، فإن الشاذ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب»^(١) وقال عليه السلام: «الخلاف يهدم الرأي»^(٢)، وفي مجال الاخوة وحقوقها يقول عليه السلام:

«احمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين... واياك ان تضع ذلك في غير موضعه أو ان تفعله بغير اهله... وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة»^(٣).

والوحدة، والاخوة يركز عليهما الإمام لانهما سمتان بارزتان من سمات مجتمع المتقين الذي أكد عليه كثيراً، بل كان هو الغاية من اطروحاته، اطروحة اعادة الإسلام بكل وضوح وقوة إلى النفوس وغرسه في قلوب الاجيال كلها ليبنى الانسانية المتمتعة بكل مزايا الكمال في كل جوانبه فيقول عليه السلام: «واعلموا عباد الله ان المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، واخذوا منها ما أخذته الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ، والمتجر الراجح، اصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم وتيقنوا انهم جيران الله غداً في آخرتهم»^(٤)، ونجد وصفاً رائعاً لهذا المجتمع في خطبة له يجيب فيها على سؤال عن صفاتهم فيقول عليه السلام:

(١) نهج البلاغة، خ ١٢٧، ص ١٣١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٢١٥، ص ٣٨٣.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٣١، ص ٣٠١.

(٤) نهج البلاغة، كتاب ٢٧، ص ٢٨٥.

«فالمتمتقون فيها (يعني الدنيا) هم أهل الفضائل. منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد.. عظم الخالق في انفسهم فصغر ما دونه في اعينهم.. فمن علامة أحدهم انك ترى له قوة في دين، وحزماً في لين...»^(١).

والخلاصة:

هي ان الامام عليه السلام بخطبه المقدسة عمل على 'تربية الانسان الواعي الذي حدد مركزه وعرف مسؤوليته بمعرفته بالحقيقة الالهية العظمى، وأنه مخلوق لها ومكلف بحمل رسالتها وبناء مجتمعه على ضوئها وتحت قيادة تعينها السماء تمثلت في النبوة وتمثلت بالامامة، إذ انحصرت النبوة إلى الأبد في نبوة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله والوصية في أهل البيت الذين يمثلهم هو عليه السلام فعلاً. الانسان الواعي الذي حدد مقياس حمل المسؤولية وعرف أسلوب الوفاء والقيام بعهدتها.

الانسان الواعي الذي عرف ان الاطار العام لحمل المسؤولية يكمن في اتباع الحق اينما كان، وما هو الاساس الذي يشخص فيه الحق عند الالتباس. الانسان الواعي الذي يعمل على اقامة مجتمع الاخوة والوحدة مجتمع المتقين. وبعد هذه اللوحة الخاطفة لما هدف إليه الرواء الفكري لخطب الإمام، بعدما سوف يأتي في المستقبل من خطوات يتوضح لنا التناسق والتلاؤم الكامل في مخططات الإمام الفريدة في الاستفادة من لحظة الوعي المتدفق التي حصلت في الامة إبان البيعة التاريخية له بالقيام باعباء الخلافة والقيادة.

(١) نهج البلاغة، ج ١٩٣، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

الفصل السادس

الاستثمار السريع.
اهم مجالات الاصلاح الاجتماعي.
أ - مجال الحقوق.
ب - المجال الاداري.
المشكلة المالية.
ضد البخل والترف - التزهيد بالدنيا.
المساومة الفاشلة.
الدقة في التوزيع.

الاستثمار السريع:

مرّ بنا ان الحماس الذي رافق توجه الامة نحو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام طالبة منه ان يقبل البيعة، كان يمثل عنصراً يقل وجوده لتحريك الامة ضد اعدائها واصلاح شؤونها، وفرصة مساعدة نادرة لتحقيق الخطوات الواسعة التي تتطلب الجهود الكبيرة... ورأينا كيف أن الإمام عليه السلام ركز هذا الحماس بالامتناع المشروط عن البيعة تارة، والرواء الفكري والتربية التوجيهية عن طريق خطبه التوجيهية تارة أخرى. وها نحن في هذا الفصل نتعرض للاستثمار السريع الذي قام به عليه السلام لهذه الحالة الفريدة، لتحقيق بعض أهم الخطوات المطلوبة له...

وقد كان لهذه السرعة في تطبيق الاصلاحات الجذرية اثرها المزدوج، الذي يتعاون شقاه في الايصال نحو الهدف، فهو من جهة يستفيد من الطاقات المتأججة فعلاً والتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النتيجة، ومن جهة أخرى يشارك في ابقاء الجذوة متقدة لفترة أطول مما يساعد على امكانية التقدم بعملية الاصلاح وتركيزها في المجتمع، كما أن هذه السرعة ستفاجئ القوى المنحرفة فلا تدع لها مجالاً للتخطيط للوقوف بوجهها.

وعلى ضوء ذلك نعرف ضرورة الموقف الجدي الصارم من كل انحراف، للاستفادة من هذه الفرصة بضرب أوكاره المنتشرة.

على أننا يجب أن لا ننسى أن هذا الأمر - وهو تحقيق الاصلاح بمختلف شؤونه التي سنتحدث عنها - هو الأمر الذي دعا الثائرين للاتجاه إلى الإمام عليه السلام

٢٠٢ من حياة أهل البيت عليه السلام

وليس من المعقول أن يتوانى الإمام عليه السلام في تطبيقه، خصوصاً وهو ينسجم تمام الانسجام مع الاطروحة الاسلامية الصحيحة التي يمثلها أروع تمثيل.

أهم مجالات الاصلاح الاجتماعي:

كان الانحراف يتركز في مجالات أهمها:

أ - المجال الحقوقي، وضمنه المجال المالي.

ب - المجال الاداري.

أ - المجال الحقوقي.

وقد أكد عليه السلام أن الامتيازات الحقوقية التي وضعتها الجاهلية وقدرها التركيب الطبقي آنذاك، ملغاة تماماً في نظر الإسلام، وأن الجميع أمام الدين متساوون، وأن الفرص ممنوحة للجميع على حد سواء في الاستفادة من الحقوق والقيام بالواجبات، فالحق هو المقياس لا غير.

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ

الحق منه»^(١).

ويوصي الأشر النخعي في كتابه القيم إليه:

«أنصف الله وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه

هوى من رعبتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون

عباده.. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل»^(٢).

ويقول في موضع آخر منه وهو يستوصيه خيراً بالطبقة الضعيفة: «واحفظ

(١) نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة رسالة ٥٣، ص ٣٢٢.

لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فان للاقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم، وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، وفرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع اليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالاعذار إلى الله يوم تلقاه، فان هؤلاء من بين الرعية احوج إلى الانصاف من غيرهم. وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه»^(١).

ويقول في موضع آخر منه: «واجعل لذوي الحاجات منك قسماً، تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعده عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متنتع، فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متنتع)»^(٢).

ويقول: «وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه، فان مغبة ذلك محمود»^(٣).

ويقول عليه السلام وهو يتحدث في أمر البيعة:

«أيها الناس أعينوني على انفسكم، وايم الله لا نصفن المظلوم من ظالمه، ولا قودن الظالم بخزائمه حتى أورده منهل الحق، وان كان كارها»^(٤).

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣، ص ٣٣٠.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٥٣، ص ٣٣٢.

(٤) نهج البلاغة، خ ١٣٦، ص ١٣٨.

ويكتب إلى سهل بن حنيف وهو عامله على المدينة في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية: «وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون اليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعده، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً!! إنهم والله لم ينفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل»^(١).
ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا من ترك مشورتها:

«لقد نقتما يسيراً وأرجأتما كثيراً. ألا تخبراني أي شيء كان لكما فيه حق دفعتكما عنه؟ أم أي قسم استأثرت عليكما به؟ أم أي حق رفعه إلي أحد من المسلمين ضعف عنه أم جهلته أم أخطأت بابه؟!...
أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر، ورحم الله رجلاً رأى حقاً فاعان عليه، أو رأى جوراً فرده، وكان عوناً بالحق على صاحبه»^(٢).
ويقول لعمر بن الخطاب:

«ثلاث إن حفظتهن وعملت بهن كفيتك ما سواهن، وإن تركتهن فلا ينفعك شيء سواهن. قال: وما هن؟ فقال: الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود. فقال له عمر: أبلغت وأوجزت»^(٣).

وقضى على رجل بقضية فقال: يا أمير المؤمنين، قضيت علي بقضية هلك فيها مالي، وضاع فيها عيالي، فغضب حتى استبان الغضب في وجهه، ثم قال: يا قنبر، ناد في الناس الصلاة جامعة، فاجتمع الناس ورفق المنبر، فحمد الله وأثنى

(١) نهج البلاغة رسالة ٧٠، ص ٣٤٧.

(٢) روائع نهج البلاغة خطبة ٢٠٥، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) البيهقي ج ٢ ص ١١٣ - ١١٤.

عليه ثم قال: اما بعد فذمتي رهينة، وأنا به زعيم، بجميع من صرّحت له العبر ألا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظماً على التقوى سنخ أصل...»^(١).

ومن كلام له عليه السلام، ونقله على طوله لأنه من أروع الكلام:
والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجر في الأغلال مصفداً،
أحب إلي من أن القى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء
من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى
حلولها؟!

والله لقد رأيت عقيلاً وقد املق حتى استأحني من برّكم صاعاً، ورأيت صبيانه
شعث الشعور غبر الالوان من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالعظم، وعاودني
مؤكداً، وكرر علي القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني، واتبع
قياده مفارقاً طريقي، فأحيت له حديدة، ثم ادنيتهما من جسمه ليعتبر بها، فضج
ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل
يا عقيل! اتئن من حديدة أحماها انسانها للعبه، وتجريني إلى نار سجرها جبارها
لغضبه؟! اتئن من الأذى ولا اتئن من لظى؟!

وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنتها، كأنما عجن
بريق حية أو قيئها، فقلت: أصله، أم زكاة، أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل
البيت، فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت: هبلك الهبول! أعن دين الله
أتيتني لتخدعني؟ أختبئ انت أم ذو جنة، أم تهجر؟ والله لو أعطيت الاقاليم
السبعة بما تحت افلاكها على أن أعصي الله في غلة اسلبها جلب شعيرة ما فعلته،
وان دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلني ولنعم يفتني،

ولذة لا تبقى! نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل، وبه نستعين»^(١).
 وشهد جماعة عند الإمام علي عليه السلام على النجاشي - وكان من أصحابه - أنه شرب الخمر فأخذه علي وحده، فغضب جماعة علي عليه السلام في ذلك منهم طارق بن عبدالله النهدي، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة وأهل الفرقة والجماعة عند ولادة العقل ومعادن الفضل سيان في الجزاء حتى ما كان في صنيعك بأخي الحارث - يعني النجاشي - فأوغرت صدورنا، وشتت أمورنا، وحملتنا على المجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار.

فقال علي عليه السلام: «انها لكبيرة إلا على الخاشعين» يا أخا بني نهدي، هل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمة الله فاقننا عليه حدها زكاة له وتطهيراً؟! يا أخا بني نهدي، انه من اتي حداً فأليم كانت كفارته، يا أخا بني نهدي، أن الله عز وجل يقول في كتابه العظيم: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ فخرج طارق والنجاشي معه إلى معاوية، ويقال: انه رجع^(٢).

وعن ابن نباتة أنه قال: «بينما علي عليه السلام يخطب يوم الجمعة على المنبر فجاء الاشعث بن قيس يتخطى رقاب الناس فقال: يا أمير المؤمنين: [حالت] الخملاء بيني وبين وجهك. قال: فقال علي عليه السلام: مالي وما للضياطرة؟ (أي الذين لا غناء عندهم) أطردهم قوماً غدوا أول النهار يطلبون رزق الله، وآخر النهار ذكروا الله، أفأطردهم فأكون كالظالمين؟»^(٣).

وروى هارون بن سعد: قال عبدالله بن جعفر بن ابي طالب لعلي عليه السلام: يا

(١) نهج البلاغة ص ٢٢٤، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٢) المناقب ج ١، ص ٤٠.

(٣) البحار ج ٤١، ص ١١٨.

أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة، أو نفقة، فوالله ما لي نفقة إلا أن أبيع دابتي، فقال: «لا والله ما أجد لك شيئاً إلا أن تأمر عمك ان يسرق فيعطيك»^(١).

وروى أبو اسحاق الهمداني ان امرأتين اتتا علياً عليه السلام احدهما من العرب والاخرى من الموالي، فسألتاه فدفعا اليهما دراهم وطعاماً بالسواء، فقالت احدهما: اني امرأة من العرب وهذه من العجم، فقال: اني والله لا أجد لبني اسماعيل في هذا الفء فضلاً على بني اسحق^(٢).

المشكلة المالية:

وعلى ضوء هذه السياسة الحكيمة العادلة، والتي لا تأخذها في الحق لومة لائم، ولا تقوم إلا على الأسس الإسلامية المرسومة بدون حيد أو حيف، عالج الإمام المشكلة المالية «وكانت تواجهه فيما يتعلق بهذه السياسة نقطتان هامتان، احدهما الثروات التي تكونت في ايام عثمان باسباب غير مشروعة، والثانية اسلوب توزيع العطاء»^(٣).

ولذا فقد قام بمصادرة قطائع عثمان للطبقة الارستقراطية «أيها الناس، اني رجل منكم، لي ما لكم وعلي ما عليكم، واني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ ما أمر به، ألا وان كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله، فهو مردود في بيت المال، فان الحق لا يبطله شيء» «والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق!»^(٤).

(١) البحار ج ٤١، ص ١٣٧.

(٢) البحار ج ٤١، ص ١٣٧.

(٣) ثورة الحسين ص ٥٧.

(٤) نهج البلاغة ص ٥٧.

وقال عليه السلام في خطاب آخر: «ألا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرماً ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وإيما رجل من المهاجرين والانصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى ان الفضل له على من سواه لصحبته فان الفضل النير غداً عند الله، وثوابه واجره على الله، وإيما رجل استجاب لله وللرسول فصدق ملتناً ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فانتم عباد الله، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية لا فضل لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للابرار. وإذا كان غداً - ان شاء الله - فاغدو علينا فان عندنا ما لا نقسمه فيكم ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر، إذا كان مسلماً حراً».

فلما كان من الغد، غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثن بالانصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم، الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد اعتقته اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك. فاعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ولم يفضل أحداً على أحد. وتخلف عن هذا القسم يومئذ طلحة والزبير، وعبدالله بن عمر،

وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرهم»^(١).

ضد البخل والترف:

وقد شن ﷺ حملة لا هوادة فيها ضد البخل والترف والتكون الارستقراطي، ليشل قدرته على خلق البون الشاسع بين الطبقات الاجتماعية وجعل المال دولة بين طبقة خاصة. فهو يخاطب البخلاء بالمال والنفس فيقول: «فلا أموال بذلتوها للذي رزقها، ولا أنفس خاطرتم بها للذي خلقها تكرمون بالله على عباده ولا تكرمون الله في عباده»^(٢).

ويذم حالة الترف التي تقعد عن الجهاد والعمل فيقول مهدداً: «ويل لسكككم العامرة، والدور المزخرفة التي لها اجنحة كأجنحة النسور، وخراطيم كخراطيم الفيلة، من اولئك الذين لا يندب قتيلاهم ولا يفقد غائبهم...»^(٣).

ومن كتاب له إلى زياد يذمه على ترفه: «فدع الاسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك. أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين؟! وتطمع - وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والارملة - ان يوجب لك ثواب المتصدقين»^(٤).

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٧، ص ٣٧ - ٣٨. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.

(٢) نهج البلاغة خطبة ١١٧، ص ١٢٤.

(٣) نهج البلاغة خ ١٢٨، ص ١٣٢.

(٤) نهج البلاغة رسالة: ٢١، ص ٢٨١.

التزهد بالدنيا:

وقد شاعت اقواله عليه السلام في التزهد بالدنيا الدنية التي جعلت هدفاً من قبل البعض والتحرر من أسر الشهوات، والانتقال بنقطة الهدف إلى مجال اوسع بكثير من اطارها الضيق، ونفي الحرص وتركيز الرضا في قلب المؤمن.

فقد كتب إلى عبدالله بن عباس يقول: «اما بعد فإن المرء قد يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن اسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثر به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً، وليكن همك فيما بعد الموت» وكان عبدالله يقول: «ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله ﷺ كانتفاعي بهذا الكلام»^(١).

وقد اشتهر عنه قوله عليه السلام: «أخوف ما اخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل» كل ذلك لتعالج به الحالة المالية المتردية عند الأغلب في حين يتكدر الذهب والفضة عند من استغلوا شيئاً من ماضيهم وقرابتهم بجمعه وحرمان الأمة منه.

المساومة الفاشلة:

«وبقدر ما كانت هذه السياسة مصدر فرح وجدل للطبقة المستضعفة الفقيرة الراححة تحت اثقال من الظلم، كانت أيضاً صفة لقريش ولغروورها وخيلائها واستعلائها على الناس، فمن أين لها بعد اليوم ان تحوز الاموال العظيمة دون ان تنفرج شفتان لتقولاً لها: من أين لك هذا؟ وكيف لها بعد اليوم ان تستعلي وتستبد، وتفرض على الناس في ظل الإسلام سلطانها عليهم في الجاهلية»^(٢)؟

(١) نهج البلاغة، كتاب، ٢٢، ص ٢٨١.

(٢) ثورة الحسين عليه السلام ص ٦٠.

ولم تنفع مساومات هذه الطبقة مع الامام عليه السلام وتهديدها له في تركه، فقد رفض كل مطالبيها وأعلن امام الملاء:

«فأما هذا النبيء فليس لأحد على أحد فيه أثره، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله وانتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به اقررنا وله اسلمنا، وعهد نبينا بين اظهرنا، فمن لم يرض به فليتول كيف شاء»^(١). وقد مشت طائفة من أصحابه إليه وهي مخدوعة بالموقف فقالت له:

«يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن نخاف عييه^(٢) من الناس فراره إلى معاوية. فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله ما أفعل ما طلعت شمس ولا ح في السماء نجم، والله لو كان ما لهم لي لو اسيت^(٣) بينهم، وكيف وانما هو اموالهم»^(٤).

الدقة في التوزيع:

وأخيراً فان لنا ان نشير إلى دقته في مسألة التوزيع وحرصه الشديد على ايصال الحقوق إلى اصحابها بشكل يدعو للاكبار، وقد ركز على مسألة التساوي في العطاء رافضاً أي امتياز لأي أحد محتجاً بأن ذلك كان من سنة الرسول ﷺ. عن هلال المحدثي قال سمعت جدي حرة - أو حوة - قال: شهدت علي بن ابي طالب عليه السلام أتى بمال عند المساء، فقال: اقسمو هذا المال، فقالوا: قد امسينا يا أمير المؤمنين فأخره إلى غد، فقال لهم: تقبلون أن أعيش إلى غد؟ فقالوا: ماذا بأيدينا، قال فلا تؤخروه حتى تقسموه فأتي بشمع فقسّموا ذلك المال من تحت

(١) شرح النهج ج ٧، ص ٤٠.

(٢) في أمالي المفيد: ومن نخاف عليه الخ.

(٣) هكذا في الاصل، والصواب: لساويت.

(٤) البحار ج ٤١، ص ١٠٩ - ١١٠.

ليلتهم^(١).

وعن ابن نباته أنه قال: كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إذا أتى بالمال أدخله بيت مال المسلمين، ثم جمع المستحقين، ثم ضرب يده في المال فنثره مينة ويسرة وهو يقول: يا صفراء يا بيضاء لا تغريني، غري غيري.

هذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

ثم لا يخرج حتى يفرق ما في بيت مال المسلمين، ويؤتي كل ذي حق حقه ثم يأمر أن يكنس ويرش، ثم يصلي فيه ركعتين، ثم يطلق الدنيا ثلاثاً يقول بعد التسليم: يا دنيا لا تتعرضين لي، ولا تتشوقين^(٢) ولا تغريني فقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي عليك^(٣).

كان هذا غيضا من فيض كلام علي عليه السلام في هذا الجانب الحساس خصوصاً في ذلك الطرف الدقيق.

ولئن لم يستطع عليه السلام أن يواصل مسيرته الرائعة إلى النهاية لبروز عوامل في الموقف فانه عليه السلام لم يكن يتعامل مع فترته الزمنية - كما سيأتي - بل كان يتعامل مع التاريخ ليشهدده روعة العدالة الإسلامية وعدم سماح الإسلام لأي تضخم طبقي على حساب الآخرين.

ولئن كان أعلن نظرياً - عن الاطروحة بخطبته التي رسمت الانسان الواعي فانه عليه السلام نفذ عملياً هذه الاطروحة وسار بها إلى ما استطاع ان يصل إليه مقتحماً كل الأذرع الاخطبوطية التي انتشرت امامه.

(١) البحار ج ٤١، ص ١٠٧.

(٢) هكذا في الأصل، والصواب بالجزم: لا تتعرضي، ولا تتشوقي.

(٣) امالي الصدوق ص ٢٣٣.

الفصل السابع

مقياس تعيين الموظف.
الكفاءة والقدرة الشخصية.
حسن السابقة بين الناس.
العدالة والورع.
المناقبية الإسلامية.
المثل الأعلى.
مبدأ المراقبة الدقيقة.

ونقصد بمجال الادارة مجال تعيين الموظفين عموماً ومن أعلى منصب في الدولة إلى أي منصب آخر بما يشمل جباة الضرائب مثلاً وأسلوب ادائهم لواجباتهم.

وقد شدد الإمام عليه السلام في هذا الجانب كثيراً، واستغل إيمان الأمة نظرياً بالعدالة ونقمتها الفعلية على ولاية عثمان في سبيل تحقيق النظام الإداري العادل الذي توخاه الاسلام فضرب بذلك أروع الامثلة التي يقل نظيرها، أو يقل يعدم نظيرها على مدى التاريخ الانساني كله.

وقبل الدخول في شيء من التفصيل نود الإشارة إلى أهم وثيقة ادارية وسياسية اسلامية على الاطلاق، وهي عهده عليه السلام الذي عهد به إلى الأشتر لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها، وقد وصفه السيد الشريف الرضي عليه الرحمة بانه «أطول عهد كتبه واجمعه للمحاسن».

ومن المؤسف ان المذكور في نهج البلاغة ليس هو كل العهد ولكننا نجد مع هذا تصويراً رائعاً لأطروحة الإمام عليه السلام في هذا الصدد..

واننا إذ نذكر هذا العهد لنطلب من كل المسلمين الواعين ان يرجعوا إليه ويدققوا النظر في مجالي عظمته... عسى أن يكون ذلك حافزاً لهم على العمل لتحقيق صورة أقرب إليه في واقعهم الإداري القائم.. ان ارادوا لانفسهم أن يكونوا مسلمين حقاً.

وانا لنتنظر ان يقوم مفكرون القانونيون بتحليل هذا العهد الجليل والبدء

بدراسة مقارنة بينه وبين جوانب التشريع في مختلف القوانين الأخرى، فإنهم لا ريب سيقعون على ما يبرهن الانظار ويهيج القلوب من روعة الاسلام وعظم حضارته وانسانيتها التي هي الغاية التي ما بعدها غاية في الشمول والواقعية.

مقياس تعيين الموظف:

كان أهم ما اعتمده عليه في هذا المجال هو ما يلي:

١- الكفاءة والقدرة الشخصية:

وقد أكد عليه كثيراً فقال من خطبة له: «أيها الناس، ان احق الناس بهذا الأمر اقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فيه»^(١).

وجاء في العهد الذي كتبه للاشتر قوله عليه السلام:

«ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة فإنهما جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء»^(٢). وفيه أيضاً: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الامور، ولا تمحكه الخصوم»^(٣).

وقد أكد عليه السلام في هذا المجال على عنصر التجربة العملية للموظف وعدم الاكتفاء بحسن الظن في هذا المجال فقال: «ثم لا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك، فان الرجال يتعرضون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم، وليس وراء ذلك من النصيحة والامانة شيء، ولكن

(١) نهج البلاغة، خ ١٧٣: ص ١٧٩.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٧.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٦.

اختبرهم بما وُلّوا للصالحين قبلك، فاعمد لاحسنهم كان في العامة أثرا، واعرفهم بالامانة وجهها، فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره»^(١).
ومن هنا ننفذ إلى تأكيدہ ﷺ على المبدأ الثاني وهو:

حسن السابقة والسمعة بين الناس:

وهو مبدأ ضروري التوفر لكي تتوفر الثقة المتبادلة بين الموظف والامة، وهي شرط مهم فيقول ﷺ:

«ثم الصق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوت الصالحة، والقدم في الاسلام المتقدمة فانهم أكرم اخلاقا وأصح اعراضا».
ويقول: «ان شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة، فانهم أعوان الأئمة، واخوان الظلمة، وانت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم، وليس عليه مثل آصارهم واوزارهم وآثامهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه، ولا آثما على اثمه»^(٢).

العدالة والورع:

يقول في كتابه لمحمد بن ابي بكر حين قلده مصر:
«فاخفض لهم جناحك وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك وآس بينهم في اللحظة والنظرة حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم»^(٣)، ويقول في العهد: «انصف الله وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٩.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٤٣٥.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٢٧: ص ٢٨٥.

اهلك، ومن لك فيه هوى من رعبتك فانك إلا تفعل تظلم! من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله ادحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فان الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد، وليكن أحب الأمور اليك أو سطها في الحق، وأعمها في العدل واجمعها لرضى الرعية»^(١).

«ثم ليكن آثرهم عندك اقولهم بمر الحق لك، واقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لا وليائه، واقعا ذلك من هواك حيث وقع. والصق بأهل الورع والصدق»^(٢).

وجاء في اول العهد: «أمره ان يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عند الجمحات فان النفس امارة بالسوء إلا ما رحم الله»^(٣).

ويقول عليه السلام: «فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما احبت أو كرهت»^(٤).

المناقبية الاسلامية:

وقد ركز الإمام على هذه الصفة كثيراً في غالب كتبه إلى عماله، إذ انها التي تخلق الحب المتبادل بين الوالي والرعية، فتجعلها معا متعاونين على تحقيق مجتمع المتقين الذي تحدث عنه عليه السلام في كتابه إلى محمد بن ابي بكر فقال: «واعلموا عباد الله ان المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٢.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٣.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢١.

(٤) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢١.

يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، وسكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت واكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذته الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ والمتجر الرابع.

أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقنوا انهم جيران الله غدا في آخرتهم، لا ترد لهم دعوة ولا ينقص لهم نصيب من لذة»^(١).

وهنا نحن نعرض نماذج للمناقبية التي أرادها الإمام عليه السلام في عماله:

يقول عليه السلام في العهد: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتم اكلهم، فإنهم صنفان: اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل ويؤتى على ايديهم في العمد والخطأ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه... اياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال»^(٢).

«وانما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للاعداء، العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم، وميلك معهم... أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك»^(٣). «واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا»^(٤)، «فول من جنودك انصحهم في نفسك لله ولرسوله ولا مامك، وأنقاهم جييا وأفضلهم حلما

(١) نهج البلاغة، كتاب ٢٧: ص ٢٨٥.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٣ - ٣٢٢.

(٤) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٤.

ممن يبطن عند الغضب»^(١). «واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من احسان المحسنين. واياك والمن على رعيتهك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو ان تعدهم فتتبع موعدك بخلفك.. واياك والعجلة بالأموال قبل أوانها، أو التسقط فيها عند امكانها، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت، أو الوهن عنها إذا استوضحت، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه، واياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة...»^(٢).

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي لا مجال لذكرها هنا وكلها تؤكد على أن يتوفر الوالي والموظف على مناقبية مثل توجب الثقة المتبادلة بينه وبين المواطنين.

المثل الأعلى:

وكان هو عليه السلام المثل الحسي الأعلى لهؤلاء في الكفاءة وحسن السابقة والعدالة والورع والمناقبية المثل في كل خطوة من خطواته. ولذا فهو يطلب منهم جميعاً أن يقتدوا به مهما استطاعوا، فيقول في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الانصاري عامله في البصرة: «ألا وان لكل مأموم اماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وان امامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، الا وانكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٥.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٤٤.

اعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا...»^(١).

بهذه الصفات والشروط، شرع ﷺ يغير الولاية ويثبت.. لا يلين في ذلك ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهو يعلن أن سر كل ذلك هو أن كل حيف يلحق أي فرد أو قطاع من الأمة من قبل أي موظف أو وال فان المسؤول عنه هو الإمام الذي عين ذلك الموظف. ومن هنا فسوف لن يألو جهداً في تطبيق هذه الشروط مهما أمكن ويأسى أن يلي هذه الأمة من لم تجتمع فيهم هذه الشروط ممن ولوا على رقاب الأمة مثل قوله:

«... ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولا، والصالحين حرباً، والفاسقين حزبا، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام وجلد حدا في الإسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائع»^(٢).

مبدأ المراقبة الدقيقة:

وتطبيقاً لمبدئه الآنف وتحقيقاً لعنصر الشعور بأتم المسؤولية فقد كان عليه السلام يراقب عماله فرداً فرداً فما ان يجد أي تهاون حتى يكتب محذرا وموعدا، وقد هيا لهذا الأمر الجليل عيوننا وثق من تقواهم وصدقهم ليأتوا له بالأخبار بأسرع وقت.

فقد روي ان شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين ﷺ اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ﷺ ذلك فاستدعى شريحا وقال له: «بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، وكتبت لها كتاباً، واشهدت فيها

(١) نهج البلاغة خ ٤٥: ص ٣١٢.

(٢) نهج البلاغة خ ٦٢: ص ٣٤٠.

شهوداً؟» فقال له شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فنظر إليه نظر المغضب، ثم قال له:

«يا شريح أما انه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسألك عن بيتك حتى يخرجك منها شاخصاً ويسلمك إلى قبرك خالصاً، فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك! فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة...»^(١).

ويكتب إلى الأشعث بن قيس عامل آذربيجان قائلاً:

«وان عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك امانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك أن تفتت في رعية ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يدك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانه حتى تسلمه الي، ولعلي الا أكون شر ولا تك لك»^(٢).
ويكتب إلى عبدالله بن العباس واليه على البصرة: «وقد بلغني تنمرك لبني قميم وغلظتك عليهم، وان بني قميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر... فأربع أبا العباس رحمك الله فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر! فإننا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك ولا يفيلن رأيي فيك»^(٣).

وكتب إلى بعض عماله:

«أما بعد فان دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة.. فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة...»^(٤).

وكتب إلى زياد بن ابيه وهو خليفة عامله على البصرة، يقول له: «واني اقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً،

(١) نهج البلاغة، كتاب ٣: ص ٢٧٠.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٥: ص ٢٧١.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ١٨: ص ٢٨٩.

(٤) نهج البلاغة، كتاب ١٩: ص ٢٨٠.

لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفرة، ثقل الظهر، ضئيل الأمر»^(١).

وكتب إلى عثمان بن حنيف يقول:

«أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فاسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنقل اليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم محفو، وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما ايقنت بطيب وجوهه فنل منه»^(٢).

وإذا رجعنا إلى العهد الرائع للاشتر وجدناه عليه السلام يوصي الاشتر بان يراقب عماله قائلاً له: «ثم تفقد أعمالهم، وأبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة لهم على استعمال الأمانة، والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان، فإن احد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً...»^(٣).

وهناك نماذج كثيرة أخرى تكشف عن المراقبة الدقيقة لعماله وهو أمر يعز نظيره في جميع العصور.

وقد أسفرت هذه الدقة في الاختيار عن تعيين أهل الكفاءة وعزل الكثيرين من الولاة السابقين، وقطع آمال الكثيرين ممن طمعوا في تسنم مناصب في الدولة وهم ليسوا بأهل.

«ففيما يرجع إلى سياسة الادارة أصر على عزل ولاة عثمان على الأمصار هؤلاء الولاة الذين كانوا من الأسباب الهامة في الثورة على عثمان، لظلمهم وبغيهم، وعدم درايتهم بالسياسة وأصول الحكم.

(١) نهج البلاغة، كتاب ٢٠: ص ٢٨٠.

(٢) نهج البلاغة، كتاب ٤٥: ص ٣١١.

(٣) نهج البلاغة، كتاب ٥٣: ص ٣٢٧.

وقد كلمه المغيرة بن شعبة في شأن ولاية عثمان فإشار عليه بأن يثبت هؤلاء الولاية على اعمالهم، ولكنه ابى عليه ذلك وعزلهم. وكلمه طلحة والزبير في شأن الولاية على الكوفة والبصرة فردهما رداً رقيقاً فولى رجلاً من أهل الدين والعفة والحزم، فولى على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الشام سهل بن حنيف، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة، وثبت أبا موسى الأشعري على الكوفة. وهذه هي الأمصار الكبرى في دولة الخلافة حينذاك، وقد أصاب هذا الاجراء قريشا بضرية قاصمة في كبرياتها وسلطانها ونفوذها لأن هؤلاء الولاية جميعاً من غير قريش»^(١).

كل هذه الدقة كانت أمراً من صميم الإسلام الرحيم بأمته، العليم بان إصلاح القيادة والتنظيم له أكبر الأدوار في حياة الأمة ليعمل الجميع معاً للوصول إلى أهدافه الكبرى.

وكان المنطق التاريخي الصحيح يقتضي أن يقوم الإمام عليه السلام باستغلال ذلك الظرف بالذات للقضاء جذرياً على الاخطبوط المستغل من الولاية المتاجرين بالدين في سبيل كسب المزيد من الاقطاعات ورؤوس الاموال والنفوذ المصلحي الشخصي ضاربين عرض الجدار كل اهداف الإسلام ونظمه، كل ذلك باسم الإسلام.

وقد قلنا ان المنطق كان يقتضي ذلك لأننا رأينا - فيما سبق من حلقات -:

- ١ - ان القضاء على هذا النظام المنحرف كان أمراً ضرورياً جداً.
- ٢ - انه كان يحتاج إلى قفزة اجتماعية كبرى وجرأة نادرة.
- ٣ - ان الظرف كان احسن الظروف لذلك باعتبار تحرك الأمة حركة كبرى ضد هؤلاء الولاية فهي مستعدة لكل تضحية في سبيل الاصلاح.

(١) محمد مهدي شمس الدين، ثورة الحسين: ص ٥٥، وكذلك راجع تاريخ اليعقوبي ج ٢: ص ١٧٩.

ومن هنا ضرب الإمام ضربته التاريخية الكبرى وعمل على انزال
الاطروحة الإسلامية الصافية بعد أن غذى الأمة بالأميرين المهمين جداً وهما:
الهدفية والالتزام، وذلك بالأساليب التي مر ذكرها وهي:

١ - الامتناع المشروط من البيعة.

٢ - الخطب المربية المحمسة.

٣ - الاصلاحات الجذرية في مجال الحقوق والادارة.

وكان في كل أمر من أمور الامة مثال القائد الواعي المشارك لها في كل
آلامها وآمالها، لا يألو جهداً في تقديم أروع نموذج سلوكي لها لتقتدي به فتحقق
أهدافه التي نذر لها حياته طفلاً وشاباً وكهلاً.

وسنحاول في ما يأتي التحدث عن جوانب أخرى من الصورة التي يجب أن
نكونها قبل أن نحكم على قيمة موقفه من معاوية وأشباه معاوية ممن ابتليت بهم
الأمة في ذلك العصر.

الفصل الثامن

التذكير بدور الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.
دور الأمة في ضوء تعاليم الإسلام.
المؤامرة الأموية على وجود الأمة.
الموقف الحازم للامام عليه السلام.

فيما سبق بينّا مبررين اساسين لموقف الإمام علي عليه السلام الحدي من معاوية
وأشباهه من الزعماء النفعيين هما:

أ - ان جو المساومة لا يتلاءم مع خططه التربوية الكبرى لبناء جيل
عقائدي قويم.

ب - ان الإمام تسلم الحكم في حالة وعي شديد حار مما يفرض عليه ان
يستغل هذا الوعي لتنفيذ اطروحاته الاصلاحية.

وها نحن فيما يلي نتعرض للمبرر الثالث لذلك الموقف الأصيل الذي كان
الحق فيه واضحاً أمام الإمام تمام الوضوح والذي لم يجد عنه أي بديل مطلقاً.
يقول عليه السلام في إحدى خطبه: «واني لعلّ بيّنة من ربي ومنهاج من نبيي واني
لعلّ الطريق الواضح ألقطه لقطاً»^(١).

ويقول عليه السلام: «الا وإن الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورجله وان
معي لبصيرتي ما لبست على نفسي ولا لبس علي»^(٢).

والمبرر الثالث الذي نريد طرحه هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم:
«الوقوف بوجه المؤامرة على الأمة، وقيادتها وتوجيهها لكي تستعيد
وجودها المفروض، وذلك لا يتلاءم مطلقاً مع جو المساومة».
ولنحاول الآن توضيح هذا المبرر.

(١) نهج البلاغة خ ٩٧: ص ٩٩.

(٢) نهج البلاغة خ ١٠: ص ٢٠.

دور الامة في ضوء تعاليم الاسلام:

يبالغ البعض من الباحثين في دور الامة - في النظرة الاسلامية - فيصلون به - من حيث لا يشعرون - إلى الحد الذي وصلت إليه الامة - نظرياً - في النظام الديموقراطي، إذ كانت هي التي تعين مصيرها بنفسها، فتنتخب حاكمها، وتنتخب من يضع لها قوانينها ودساتيرها، وبالتالي يكون الشعب هو المشرع وهو الحاكم. ويبالغ البعض الآخر في تضعيف هذا الدور حتى لتراهم ينفون أي اثر معتد به إلا بشكل يجعلها تنفذ فقط دون أن تبدي أي رأي في أي شأن من شؤونها. والحقيقة المسلمة التي لا يمكن التغاضي عنها أن الرأي الأول - بالاضافة لما فيه من النتائج الوخيمة - يتنافى مع طبيعة الإسلام كدين سماوي، وشريعة وضعها الله تعالى للبشرية إلى يوم القيامة، مع ملاحظة وجود جوانب مرونة فيها لا تخرجها عن هذه الصفة العامة.

اما الرأي الثاني فهو مرفوض أيضاً، لكن الموقف الراض له يختلف حسب اتباع الباحث لنظرية النص التشريعي على الإمام - وهو رأي الشيعة ووافقهم أكثر المعتزلة^(١) - أو اتباعه لنظرية الانتخاب وهو رأي السنة وبعض المعتزلة. فالنظرية الثانية تعطي الأمة دور المعين للحاكم^(٢) - طبعاً طبق شروط معينة - ودور المراقب له في الغالب^(٣) بالاضافة لدورها الآخر وهو التعاون مع الحاكم، وفيما بينها لأجل تطبيق أحكام الله تعالى.

أما النظرية الأولى فهي - بعد أن تستند إلى النصوص الواردة في هذا الصدد وإلى النتائج السلبية للنظرية الثانية - تقرر أن الإمام يجب أن يعين بالنص، ولكن

(١) آل ياسين، صلح الحسن: ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) ويستثنى من ذلك ما لو نص الخليفة المنتخب على من بعده.

(٣) وان بدأنا نلاحظ نشوء نظرية الطاعة للجائر بعد ذلك.

لما كان الإمام معصوماً من الانحراف فهل يبقى مع ذلك دور للأمة؟
ان دور تعاون الأمة مع الحاكم، وفيما بينهما لأجل تطبيق احكام الله، ونشر
الإسلام وللحضارة الإسلامية في ربوع الأرض كلها، دور محفوظ واجب أصيل
مقوم لشخصية الأمة الإسلامية.

وما أكثر الآيات الكريمة التي أكدت على هذا الدور:

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾^(١).

﴿كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾^(٢).

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول

عليكم شهيداً﴾^(٣).

﴿يا ايها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة﴾^(٤).

﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾^(٥).

وغيرها مما لا مجال للتعرض إليه مفصلاً.

والملاحظ أن هذا الدور يشمل محاسبة العمال والولاة ومراقبة نوعية
سلوكياتهم في تطبيق الاحكام الإسلامية، والعمل على ايقافهم عند حدهم عند
تجاوزهم عليها.

أما في علاقتها مع الإمام فان لها أن تكون في موضع الشورى في المواقف
التي يرى الإمام فيها ذلك طبقاً لمبدأ ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على
الله﴾.

(١) الانعام: ١٦٥.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) البقرة: ٢٠٨.

(٥) النساء: ١٣٥.

ويتضاعف هذا الدور عندما يستولي على الأمر أناس غير لائقين، إذ يضيف هذا إلى دور الأمة عنصراً آخر هو عنصر الوقوف بوجه الحكم وفضح مخططاته الانحرافية.

ولسنا في مورد المفاضلة بين النظريتين السالفتين وإنما ذكرناهما لنخلص إلى أن هناك اتفاقاً إسلامياً على بعض الأدوار الرئيسية للأمة، وهذه الأدوار تتطلب توفر وجود حي فعال لها، يقول للحاكم أو الوالي عندما ينحرف قف عند حدك، ويراقب موارد الانحراف فيقضى عليها وهو ما يعبر عنه النص المبارك ﴿يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ ويعمل على نشر الحضارة الإسلامية باعتباره «الوجود المستخلف على الأرض». يكتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى أصحاب المسالح قائلاً:

«أما بعد فإن حقاً على الوالي ألا يغيره على رعيته فضل ناله ولا طول خص به، وأن يزيده ما قسم الله من نعمه دنوا من عباده وعطفاً على أخوانه، ألا وإن لكم عندي إلا احتجز دونكم سراً إلا في حرب ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، ولا أؤخر لكم حقاً عن محله، ولا أقف به دون مقطعه، وأن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة، ولي عليكم الطاعة، وألا تنكصوا عن دعوة، ولا تفرطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق، فإن انتم لم تستقيموا لي على ذلك لم يكن أحد أهون عليّ ممن أعوج منكم، ثم أعظم له العقوبة ولا يجد عندي فيها رخصة، فخذوا هذه من أمرائكم وأعطوهم من انفسكم ما يصلح الله به أمركم. والسلام»^(١).

وما أروع ما كتبه عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة إذ

(١) نهج البلاغة كتاب ٥٠: ص ٣١٩.

جاء فيه: «أما بعد فأني خرجت من حيي هذا اما ظالماً واما مظلوماً واما باغياً وأما مبغياً عليه، واني أذكر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر إلي فإن كنت محسناً أعاني وإن كنت مسيئاً استعتبي»^(١).

وما أشبه أسلوبه هذا - مع علمه بأنه على الحق - بالاسلوب الذي يعلمه القرآن الكريم لنبيه ﷺ في جداله مع المشركين حيث يقول: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ إذ يساعد هذا الاسلوب على تهدئة الثائرة والتفكير للوصول إلى النتيجة بالاضافة إلى أنه يكشف عن تقديره ﷺ للرأي العام. وفي موضع آخر بين ﷺ أن تتخاذل الامة وضعفها هو سر وقوع الظلم والتعدي عليها فقال:

«أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهنوا عن توهين الباطل، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم، ولم يقوَ من قوي عليكم، لكنكم تهتم متاه بني اسرائيل، ولعمري ليضعفن لكم التيه من بعدي أضعافاً، بما خلفتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الادنى ووصلتم الأبعد»^(٢).

هذا وقد مرت فيما مضى من بحوث احاديث ونصوص حول هذا الموضوع فلا نطيل الحديث عنه اكثر من ذلك.

المؤامرة الاموية على وجود الامة:

يلاحظ أي مؤرخ للسيرة النبوية الشريفة ان امية كانت أشد العوائل نقمة على الدعوة الاسلامية وقائدها العظيم، وانها ما فتئت تكيد للاسلام وتجمع الجموع ضده ولكن الله كان ينصره فيندحر كيدهم وتكسر شوكتهم. وعندما

(١) نهج البلاغة كتاب ٥٧: ص ٣٣٧.

(٢) نهج البلاغة خ ١٦٦: ص ١٧٣.

ضاق الحصار الاسلامي عليهم واشتد الضغط، كبر على أبي سفيان أن يخضع للواقع، وقاوم ما أمكنه ولكنه خضع في النهاية وهو يدفن حقه في أعماق نفسه، وكم من مرة حاول فيها أن يستغل الموقف لضرب الدعوة - بعد الرسول ﷺ - فما استطاع.

ولا شك في أن الزعامة التي افتقدها والمصالح التي لم يعد يحني ثمارها قد خلقت في نفسه أحقاداً، وبثت في مخيلته خططا كان يرمي وراءها إلى استعادة مقامه من جديد لكي يصل الأمر إلى الحالة التي يعبر عنها بعبارة «تلاقفوها يا بني أمية»!!

وبدأت الخيوط الاموية تنسج نسيجها المحكم لكي تنسي الأمة ماضي أمية المخزي في ظل قاعدة «الاسلام يجب ما قبله» ولكي تحكم أقدامها في بلد ناء عن عاصمة الاسلام تختص به، وتعمل على أن لا يرى الاسلام إلا من خلالها هي وأعني بذلك الشام، وكانت الفرصة الذهبية التي تنفست فيها خطوط امية هي عهد الخليفة عثمان، فلقد استغلت أمية هذه الفرصة وراحت تركز أقدامها، وهدفها قبل كل شيء ان تذيب القوة التي تقف عقبة في وجه مطامعها وتطلعاتها الجهنمية، وتلك القوة هي «وجود الأمة».

وما أن وجد الاخطبوط الأموي أن الأمر انقض على عثمان حتى تقاعس - هو - عن نصرته وتركه تحت رحمة الثائرين وانزوى إلى الشام ينتظر فرصة الانقضاض على النتيجة^(١).

وقد كان الإمام عليه السلام عايش هذا المخطط الاموي وعرف نفسيات معاوية ومن لف لفه من الزعماء النفعيين ووعى ان هذا الاخطبوط يجب أن يقضى عليه في

(١) ثورة الحسين: ص ٥٠. والدولة العربية لولها وزن وتاريخ الاسلام السياسي ج ١: ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

أول أزمته، وإلا فإنه سينتشر أكثر فاكثرت وتطلي المؤامرة وتنجح في النهاية.
ولقد كان مجتمع الشام أول مجتمع يفقد وجوده أمام الاغراء الاموي فتطلي
عليه المؤامرة، أما عنصرا المحاسبة والدقة في الامور فليس في الحسبان ما دامت
المؤامرة والاغراء.

يقول طه حسين: «وكان بينه - يعني علياً عليه السلام - وبين معاوية اختلاف آخر
يغري الناس به ويجمعهم لخصمه. كان يدبر أمور أصحابه عن ملأ منهم لا يستبد
من دونهم بشيء وإنما يستشيرهم في الجليل والخطير من أمره، وكان يرى الرأي
فيأبونه ويمتنعون عليه، ويضطرونه إلى أن ينفذ رأيهم هم ويحتفظ برأيه لنفسه
وكان ذلك يغريهم به ويطمعهم فيه.

ولم يكن معاوية يعطي أصحابه بعض هذا الذي كان يعطيهم علي عليه السلام، لم
يكن يستشيرهم وإنما كان المشيرون من خاصته الذين فكان إذا أمر اطاعه أهل
الشام دون أن يجمعوا فضلا عن أن يجادلوا. ثم كان معاوية يحتفظ بسر كله لا
يظهر عليه إلا من أراد أن يظهره عليه من خاصته، وكانت أمور علي عليه السلام كلها تدبر
وتبرم على ملأ من الناس لا تخفى على أصحابه من أمره خافية مهما يكن خطرها.
كان علي عليه السلام يدبر خلافة، وكان معاوية يدبر ملكا، وكان عصر الخلافة قد
انقضى وكان عصر الملك قد أظلم»^(١).

والحقيقة هي ان الامام كان قد قرر ان يسير بسيرة النبي ﷺ وسيرة
الاسلام في اعطاء الأمة وجودها المشاور والمراقب على ان تترك بعض الأسرار
وبعض الأمور له ولخاصته - كما اخبر هو في النص المتقدم عنه: «الا وإن لكم
عندي ألا احتجز دونكم سرا الا في حرب...» - وذلك للمصلحة العامة فلم يكن

(١) الفتنة الكبرى ٢: ص ١٦٥.

يطلع الأمة على كل شيء لأن ذلك قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.
وعلى أي حال فقد كان معاوية يخطط للملك وسلب الأمة وجودها وكان
مجتمع الشام أول الضحايا، وقد رأينا بعد ذلك أنه عندما واتت الظروف معاوية
لكي يطبق خطته، كيف اتخذ سياسة التجويع والارهاب والتفريق بإثارة العصبية
القبلية وضرب الأمة بعضها ببعض وشراء الزعامات والقيادات المحلية، مما قد
تحدث عنه في البحوث القادمة إن شاء الله. وكم حاول معاوية أن يغطي على هذه
المؤامرة ويلبسها لباس الدين ويسنغ عليها صفة الشرعية، إلا أنها لم تنطل على
الذين لم ينشأوا في ظلها.

فقد دخل عليه سعد بن أبي وقاص - بعد أن استقر له الأمر - فقال له:
«السلام عليك أيها الملك! فضحك معاوية وقال: «ما كان عليك يا أبا اسحق لو
قلت: يا أمير المؤمنين؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكا؟ والله ما أحب أني وليتها بما
وليتها به!»^(١).

وقال ابن عباس لابي موسى الاشعري في كلام طويل: «وليس في معاوية
خصلة تقربه من الخلافة»^(٢).

وسئل سفينة مولى رسول الله ﷺ فيما أخرجه ابن أبي شيبة عن استحقاق
بني أمية للخلافة فقال: «كذب بنو الزرقاء بل هم ملوك من شر الملوك وأول
الملوك معاوية»^(٣).

وسأل معاوية صعصعة بن صوحان العبدي قائلاً: «أي الخلفاء رأيتهموني؟»
فقال صعصعة: «أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً، ودانهم كبراً، واستولى

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ٣: ص ٤٠٩.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ج ٢: ص ٣٩٥.

(٣) ابن كثير ج ٦: ص ٣٢١.

بأسباب الباطل كذبا ومكرا؟.. فأني تصلح الخلافة لطليق؟»^(١).

وقال الحسن البصري: «أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزأؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها (يعني الخلافة) بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيما خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعأؤه زيادا وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وقتله حجراً، ويل له من حجر واصحاب حجر (مرتين)»^(٢).

والحقيقة أن الالعبوة فضحت عند عامة المؤرخين إلا من أعمى الله قلبه، خصوصاً بعد أن صرخ بها معاوية نفسه في غمرة انتصاره العسكري في معركته مع الامام الحسن عليه السلام، إذ قال - على ما يرويه الدائني -: «يا أهل الكوفة، اتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج، وقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون؟ ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وألي رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وانتم كارهون». ويبدو الفارق هائلاً عندما نستمع إلى الإمام علي عليه السلام وهو يقول: «اللهم انك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن نرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك وتقام المعطلة من حدودك. اللهم اني أول من اناب وسمع وأجاب لم يسبقني إلا رسول الله ﷺ بالصلاة. وقد علمتم انه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل، فتكون في اموالهم نهيمته، ولا الجاهل يفضلهم بجهله ولا الجاني فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك

(١) المسعودي، مروج الذهب ج ٣: ص ٤١.

(٢) الطبري ج ٤: ص ٢٠٨. ط الأعلمي.

الموقف الحازم للامام:

تآمر سافر على الامة ووجودها لاغراض خبيثة، يطلع عليه امير المؤمنين بكل وعيه وادراكه للحاضر والمستقبل ويعلم بانه كلما طال عمر هذا التآمر أحكمت حلقاته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فانه عليه السلام - تبعا لوظيفته العامة - يعمل على تربية الأمة واعطائها الوجود المفروض لها لتتسلم مركزها كخليفة لله في الأرض وكأمة شاهدة على الناس وامة هي واسطة العقد بين الحضارات.

فهل يستطيع أن يهادن رأس التآمر وخيوطه؟

أن هذه المهادنة تعني أمرين مرّين تماما.

الاول: اعطاء الاخطبوط فرصة أخرى ليحكم خيوطه ويستفيد من الموقف، وهو يعني التفريط في مستقبل المبدأ والأمة، وبتعبير جامع، التفريط بمستقبل التجربة الاسلامية ككل.

وهذا يعني أن تباع الامة بعقد يقبل الفسخ لأناس ارادوا أن يبيعوها بعقد لا يقبل الفسخ - كما يعبر أحد الاعاظم -.

الثاني: فقدان الثقة بالقائد، فاننا نعلم أن الثقة بالمربي هي الشرط الاساسي لحصول التأثير المطلوب، والامام عليه السلام كان يمثل القيادة الواعية التي تريد ان تربي الأمة على المدى الطويل، فإذا وجدته الامة يساوم عليها فقدت ثقتها التامة به. والحقيقة أن روح الشك قد سرت في بعض قطاعات الأمة في اواخر حياته عليه السلام، وهو الشك في ان معركته مع معاوية، معركة بين الاسلام والمجاهلية -

(١) نهج البلاغة، ص ١٨٩.

رغم أن عوامل ذلك الشك كانت عوامل ذاتية للشُّكَّاء وليست نابعة من مبرر موضوعي خارجي - فإذا كان الشك سرى في هذه القطاعات مع اتخاذ الامام ذلك الموقف الحدي غير المداهن فما ظننا بهذه القطاعات وهي ترى المساومة بالابقاء أولاً، ثم العزل بعد ذلك. ان هذا سيكون بلا شك مبرراً موضوعياً كبيراً للشك مما يفقد القائد امكانية المضي في تطبيق تجربته الكبرى.

ولذا فقد صمم الامام عليه السلام على أن يقف في وجه المؤامرة ويفضحها قبل ان ترسخ اقدامها، فأعلن الحرب ضد كل هذه البؤر بعد ان اعلن لمن طلبوا منه المساومة انه قلب هذا الأمر ظهره وبطنه فلم يجد إلا القتال أو الكفر.

الفصل التاسع

أطروحة الامام تتجاوز عصره.
الظرف غير المساعد.
الوعي فوق الصمود.
هدف علي من الخلافة.
نتاج العهد.
تعميق الاسلام في الامة يعيق الانحراف.
الامام يتعامل مع المسيرة المؤمنة عبر التاريخ.
النتيجة.

اطروحة الامام تتجاوز عصره:

مر بنا ان الامام في التصور الاسلامي الصحيح يمثل الامتداد الطبيعي لوظيفة النبي في قيادة الامة وتربيتها وإيصالها إلى المستوى الذي تستطيع معه ان تكون الأمة الشاهدة على الناس.

وواضح ان النبي الكريم ﷺ قام بالكثير من خطوات التربية العامة للامة، ووضع أسس امة قوية قومية تتسم بشخصية قوية لها معالمها المحدودة. إلا ان من الواضح أيضاً ان تربية أمة تكون طليعة البشرية وتربية البشرية، بعد ذلك أمر يحتاج إلى فترة هي أوسع بكثير من حياته ﷺ وتفرغ واسع لم يتسن له ﷺ بعد ان استنفدت الحروب والغزوات ومؤامرات الأعداء وتخطيطات اليهود المجرمة وأراجيف المنافقين... الشطر الكبير جداً من حياته ﷺ وحياة المسلمين انفسهم.

ومن هنا كانت الإمامة هي الحاملة لمشعل النبي العظيم وقيادته، وهي الراسمة للأمة طريقها على ضوء تعاليمه ﷺ، وبتسديد من الله تعالى الذي اعطاها لاصحابها أهل البيت عليه السلام.

فكان أهل البيت عليه السلام هم الذين أوكلت اليهم مهمة اكمال الصورة الاسلامية وإعطائها نظرياً وعملياً للأجيال الاسلامية على امتدادها الزمني. وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد بما لا مجال للريب فيه المرجعية الفكرية للأئمة عليهم السلام.

ولكن القيادة الفكرية والعملية ليستا منفصلتين في الاسلام، بل يعبر التحامهما عن نظرة واقعية إلى الحياة تؤكد أن القيادة الفكرية لن تستطيع أن تبني وتوجه إلا إذا امتلكت الزمام العملي وراقبت عملية تطبيق الاطروحة، كما تؤكد في نفس الوقت أن القيادة العملية ستمنى بأفدح الاخطاء إن لم تمتلك مؤهلات القيادة الفكرية.

هكذا كان التخطيط السماوي لسلوكه عليه السلام قائداً فكرياً وعملياً، وهكذا أيضاً كان التخطيط السماوي لمركز أهل البيت عليهم السلام المفروض في الأمة، ولذا كانت عملية تنصيب الامام علي عليه السلام في يوم الغدير العظيم تشكل حسب تعبير الآية الكريمة - اكمالاً للدين واتماماً للنعمة - وبداية للخط الطويل.

ومن هنا كان عطاء أهل البيت عطاءً فياضاً في الجوانب المختلفة علمياً واخلاقياً وتربوياً وغير ذلك مما حفظ للأمة بالمقدار الممكن وجودها.

الظرف غير المساعد:

ولكن المؤسف حقاً أن لا يمتلك الائمة حق قيادة الامة إلا في فترات معينة، وبذلك تفقد الأمة امتداداً حسيماً يواكب الامتداد النظري لحياته عليه السلام.

ثم إن فترات القيادة العملية لم تكن فترات طبيعية إلا نادراً، مما لم يكن ليسمح بابرار كل معالم الاطروحة الاسلامية بشكل تام.

ويبدو هذا إذا لاحظنا الظروف التي حكم فيها الامام امير المؤمنين عليه السلام والامام الحسن عليه السلام، وكذلك الظروف التي رافقت تولي الامام الرضا عليه السلام لولاية العهد. وسيأتي ان شاء الله الحديث عن الطرفين الاخيرين.

اما ظرفنا وهو ظرف الامام امير المؤمنين عليه السلام، فقد رأينا من قبل انه كان يتسم بثورة قوية للامة تحركها عوامل مختلفة... مما يشكل عاملاً مساعداً على

تحقيق التطبيق، إلا أن العوامل السلبية في الموقف كانت كثيرة ومؤثرة، فهناك الزعامات القرشية التي غذيت من قبل بحب القيادة والرئاسة معتمدة على سوابقها الدينية والامكانات التي توفرت لها وخصوصاً في عصر عثمان... وهذه الزعامات لها أذرعها القوية في الساحة الاسلامية.

وهناك الزعماء القليلون الذين لم يرتاحوا لمنهج الإمام الإسلامي الخالص الذي ينظر إليهم وإلى غيرهم على حد سواء.

وهناك الجهاز الإداري الفاسد الذي كان يتحكم في مصير الامة والذي فقد امتيازاته بمجىء الإمام.

وهناك السنن والمفاهيم المغلوطة التي اعطيت كاجتهاد شخصي أو مصلحي لقطاعات كثيرة من الامة، ويمكننا أن نضرب لذلك أشد صورة انحرافاً في المجتمع الشامي - مثلاً - الذي تلقى مفاهيمه الاسلامية عبر تصورات يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية، وواضح من هو معاوية، وما هي أهدافه التخريبية ومدى تلقيه للروح الاسلامية، وعمق التأثير الجاهلي في تصورات.

كل هذا وغيره مما سنتعرض إليه أيضاً ان شاء الله، عكر الجو ضد الامام أمير المؤمنين (عليه السلام)، وكان (عليه السلام) ينظر بدقة إلى هذا الظرف وتلوح له معالم مستقبل هذه الامة على ضوء ما أخبره به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أحاديث كثيرة معتبرة.

ويصور الدكتور طه حسين استعصاء ذلك الظرف على الإمام فيرى:
ان اخفاق الامام في تنفيذ كل أبعاد اطروحاته كان يعني اخفاقاً لنظام الحكم الاسلامي الذي يسميه «الخلافة» ويرد أسبابه في نهاية بحثه فيه إلى عاملين:
الأول: ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين، وتغلب سلطان الدنيا على هذه النفوس.

والثاني: إغراءات المال... والدخول في مجال الترف «ثم رأى العرب جماعة

من شيوخ الصحابة وأصحاب السابقة والمكانة يستكثرون من المال ويقبلون على شيء من اللين، فأقبلوا على ما أقبل عليه أئمتهم ومعلموهم»^(١).

ثم يقول «وكل هذه الظروف مجتمعة كانت خليفة أن تقرّ في نفس علي. انه غريب في العصر الذي يعيش فيه وبين هذا الجيل الذي يريد أن يدبر أمره من الناس، وإن تلقى في روعه كذلك انه يحاول أمراً ليس إلى تحقيقه من سبيل.

... كانت ظروف الحياة الجديدة إذاً مواتية لمعاوية منافرة لعلي، ولكنها على ذلك لم تضعف علياً عن الحق ولم تخرجه عن طوره في يوم من الأيام، فاحتفظ بمزاجه معتدلاً وبسيرته مستقيمة في جميع أطواره وأيامه»^(٢).

والذي يبدو من خلال حديثه - رغم صحة كثير مما فيه - أن نظام الخلافة كان محكوماً عليه بالفناء وهذا ما يجب توضيحه:

الحقيقة أن نظام الحكم الاسلامي يتلخص في حكومة جهة تمتلك هذا الحق - من السماء - على ضوء مواصفات متوفرة فيها، وتطبق قانوناً أوحته السماء إلى البشرية.

ومن هنا بدأت الحكومة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكان عليها أن تستمر وفق الجهة التي عينها الله العالم بكل ما يصلح البشرية.

فإننا - كمسلمين - لا نستطيع أن نتصور حكومة لا تستمد سلطتها من الله الحاكم المطلق.

ومن هنا فلا معنى لأن يتصور أحد ان إحقاق نظام الحكم الاسلامي - سواء كان هو «الامامة» كما هو الصحيح أو كان هو «الخلافة» على الرأي

(١) الفتنة الكبرى ج ٢: ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق ج ٢: ص ١٦٤.

الآخر - نابع من قصور النظام نفسه.

فإننا لا نستطيع ان نتصور إخفاقاً في نظام جعله الله لكل البشرية وكل العصور إلا إذا خرجنا عن كوننا مسلمين.

كما أننا إذا استقرأنا الواقع وجدنا أن الإخفاق كان لمؤامرات كبرى وانحراف قيادي عن عملية التربية الكبرى للأمة.. إذ لو استمرت التجربة الإسلامية التي بدأها النبي ﷺ كان من الممكن تماماً أن يستوعب الإسلام كل التطورات التي حدثت من فتوح ورقيق وآراء تحملها هذه الفتوح، ولكن بشرط الالتزام القيادي الكامل بالإسلام. فليس من منطق الإسلام أن يقال: «إن عصر الخلافة قد انقضى وعصر الملك قد أطل» إلا إذا عنيينا أن الأهواء والانحرافات قد فرضت ذلك دون أن نعطي الأمر صفة الجبرية التاريخية.

نعم قد يكون من الصحيح القول ان الأسلوب المتغير الذي تم وفقه تطبيق نظام الخلافة لم يكن ليستطيع أن يدوم كذلك، ولكن هذا لا يعني مطلقاً فشل نظام الحكم الإسلامي الذي أراده النبي وعين خطوطه مطلقاً.

وعلى أي حال: فقد وجد الامام نفسه بلا ريب في مجتمع وظرف قاس لا يمكنه من تطبيق الاطروحة الإسلامية في مختلف الجوانب.

ولكن أيقعده عن العمل؟ أم يصبر ويبدي شجاعة نادرة في مقاومة الباطل؟

يقول الدكتور طه حسين: «ولو قد أطاع علي ضميره الخفي لا ستعفى أصحابه من بيعتهم وانفق ما بقي من ايامه يعبد الله وينتظر الآخرة، ولكن هيهات! قد آمنت نفسه بالحق، وبأن القعود عن نصره جبن ومعصية، وليس هو الرجل الذي يسرع إليه اليأس أو يفشل عن حرب عدوه مهما تكن الظروف. ولذلك قال

لأصحابه حين ضاق بتخاذلهم وعصيانهم: «لتنهضن معي لقتال أهل الشام أو لأمضين لقتالهم مع من يتبعني مهما يكن عددهم قليلاً»^(١).

والذي يقرأ هذا النص يتصور الإمام وقد اطمأن في ضميره الخفي إلى الفشل ولزوم الاستعفاء وترك الأمور لمعاوية يعمل ما يشاء، إلا أن إيمانه بالحق وشجاعته جعلاه يخوض الغمار دون أن يلتفت للعاقبة مهما تكن الظروف، وقبل أن نبدي بعض النقاط الهامة حول هذا النص خصوصاً والموضوع عموماً، نود أن نشير إلى تشابه كبير جداً بين موقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذا الذي يشير إليه النص وموقف النبي العظيم ﷺ حينما جاءه الوفد القرشي يعلن كل الاغراءات من جهة ويسد كل منافذ الخلاص من جهة أخرى، ولكن النبي ﷺ يواجهه قائلاً لعمه المؤمن العظيم: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(٢).

والتشابه بين الموقفين يكمن في أن كليهما يواجهان موقفاً لا يتحمله إلا قلب نبي أو وصي نبي، وأن كليهما ينظران عندما يواجهانه إلى مستقبل بعيد تنتصر فيه الدعوة على أعدائها ويكون الدين كله لله، وانهما معا يرفضان الاستسلام للباطل قيد أنملة، وما يريان الدنيا وما فيها تعدل لحظة من لحظات الحق والعدل. فحتى لو أعطي الاقاليم السبعة بما في افلاكها فإنه لن يتنازل للحظة عن مبدئه في العدل والحق، ولن يقوم بشيء فيه شبهة ظلم.

أما النقاط التي يجب ملاحظتها في هذا الصدد فاهمها ما يلي:

(١) المصدر السابق ج ٢: ص ١٦٤.

(٢) محمد مصطفى المراغي، حياة محمد ﷺ: ص ١٠٩.

الوعي فوق الصمود:

فمن المسلّم به أن كلا الموقفين السابقين يمثلان صموداً إلى درجة عالية جداً وشجاعة منقطعة النظير، وأخلاقاً للمبدأ لا يعدله إخلاص. إلا أن النقطة الأساسية التي يجب ملاحظتها هي الوعي الكامل للموقف والذي يركز النظر على أبعد من الأطر الحسيّة المحيطة به، ويدرس كل عناصر الموقف على ضوء تصوراته الرئيسية، وبعد تحديد الموقف العام فإن ذلك الوعي هو الذي دفع النبي ﷺ للصمود والثبات، وهو نفسه الذي دفع الامام ﷺ لاتخاذ الموقف الحازم من الانحراف وقد رأيناه يقول:

«ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه وقلبت ظهره وبطنه فلم ار لي إلا القتال أو الكفر».

وليس الأمر كما يقول النص الانف من انه: «لو أطاع ضميره الخفي لاستعفى أصحابه».

فضميره وعقله ووعيه هي التي تلي عليه أن يمسك ازمة الامة وان يؤخر على الأقل غرق السفينة أو يضع العراقيل امام العوامل الهدامة.

هدف علي من الخلافة:

ويتوضح هذا الأمر إذا سألناه ﷺ عن هدفه في الخلافة والقيادة ثم قارننا وجوده في رأس الأمة وعدمه، قارناهما إلى هذا الهدف.

يقول امير المؤمنين في خطبته الرائعة المسماة بالشقشقية: «اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء الا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلاً على غاربها ولسقيت آخرها بكاس أولها ولألقيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفة عز».

فالهدف هو إقامة العدل وفق تصور الاسلام، والحجة قائمة والفرصة متاحة لتحقيقه، فلماذا الونى؟ ولا معنى للضنى في سبيل تحقيقه حتى ولو فقد المسلم كل ما يملك، وهل هناك عبادة لله أعلى من ذلك؟ اما العبادة المتصفة بالرهبانية والانعزال فقد ظن البعض من كبار ذلك العصر انها خير ملجأ لهم، غير مدركين انهم بذلك فسحوا الطريق لاعداء الأمة كي يبتزوها حقوقها في حين انهم كانوا قادرين على التأثير الكبير في مجال إيقاف الانحراف، وما أشبه وضعهم بالبعض في هذا العصر. ان علياً عليّ على هذا التصور الخاطيء عن العبادة والتعب، ومن هنا كان مثال العابد المتهجد ومثال العامل الاجتماعي الواعي لكل مشاكل الإنسان، ومن هنا فقد كان مطمئنا لهدفه تمام الاطمئنان، وعندما ضربه أشقى الاشقياء عبدالرحمن بن ملجم رأيناه عليه السلام يقول: «فزت ورب الكعبة» ذلك لأنه حقق هدفه وإن كان الحساب المادي يراه خاسراً كل شيء.

نتاج العهد:

على أن هذا النتاج الضخم الذي وصلنا عن حياته وسلوكه والذي يلقي اضواء كبرى على نظرات الاسلام للحياة والمجتمع، هذا النتاج لم يكن ليصلنا لو ترك الإمام الأمور على عواهنها وانزوى في زاوية من بيته.. وكيف يمكن تصور ذلك وهو الذي كان يرى الخلافة حقاً له ولم يعطاه؟ إلا انه دخل الحياة مع الخلفاء يرسخ أصول الدين ويقوي دعائم الأمة ويرد شبهات اعدائها، ثم هو بعد أن يتسلم الحكم ويمتلك حق اقامة العدل، تثنيه العقوبات فيهجر الحياة العامة راضياً بالقبوع تحت ظل بيته يعبد الله حتى يأتيه الموت. كلا، فقد استقر رأيه على النهوض بالامر وتقديم الصورة الاسلامية العملية عن الاسلام والتي عجزت البشرية إلى اليوم ان تكرر مثلها.

واستطاع أن يحفظ الصلة بين الامة والرسالة عاطفياً وفكرياً بعد أن لم تكن هذه الصلة تنحفظ حتى على المستوى العاطفي عن طريق معاوية وامثاله وهارون الرشيد واضرابه.

تعميق الاسلام في الامة يعيق الانحراف:

ورغم أن الامام عليه السلام كان يحس أنه أدرك المريض في أواخر أيامه، وأنه لا يستطيع أن يصل بالركب إلى كل غاياته المنشودة، لما تقدم من عقبات أمامه... فإنه لم يكن مطلقاً من الصالح أن يترك الامر لتتلقفه أيدي اعداء هذه الامة الذين حصروا مصالحهم في معاوية...

ومن يدري ماذا كان سيفعل معاوية وقد سلمت إليه الأمور مطلقاً دون أن ينازعه منازع؟ وقد رأيناه يفعل في سبيل نوازه كل الامور ويرتكب كل المحرمات، ومن ينسى لمعاوية ارهابه وقتله عشرات الالوف وهتكه للاعراض في سبيل غرضه الدنيء؟ إن من المتوقع له أن يقود سفينة الامة نحو الهاوية تماماً ولعله يعيدها جاهلية رعناء كما أراد ذلك أبوه الذي ما زال يؤكد للاسلام..

ولذا فمن الطبيعي أن يستغل الامام عليه السلام الفرصة ليعمق في الامة وعي الاسلام، وليربي الفئة التي تشكل على المدى الطويل الرابط بين الاسلام والامة، وليضع المنهج الذي يبقى في وعي الامة منهجاً اسلامياً حقاً وتبقى تقارن بينه وبين منهج أي حاكم يأتي من بعده، فتعيدها هذه المقارنة إلى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة إلى الاسلام من جديد.

ومن هنا بالضبط نستطيع أن نقيم دور نهضة الإمام الحسين عليه السلام فنجعلها حلقة مكملة أخرى في سلسلة الحلقات العملية التي قدمها أهل البيت عليه السلام في سبيل غرس وعي الامة لوجودها وسد الطريق على الانحراف الكامل على الأقل.

وسياقي الحديث عنها ان شاء الله، حيث نجد أن التآمر على وجود الأمة أصبح مستحيلاً بعد نهضته عليه السلام.

الامام يتعامل مع المسيرة المؤمنة عبر التاريخ:

وهكذا يتضح انه عليه السلام كان يتعامل مع التاريخ أكثر مما كان يتعامل مع فترته الزمنية.

وهذا هو الذي حدا بالكثير من المفكرين المسلمين وغيرهم أن يعدوه من أولئك الذين سبقوا عصورهم، أو ممن لم يفهمهم عصرهم إلا بعد مدة من الزمن. وهذا هو الذي دعاه لأن يقول للتاريخ: «أقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة» فسلوكه سنن حق يكمل سنن الرسول ﷺ ويحصن الأمة من الضلال ليحقق مصداق قوله ﷺ في أهل البيت جميعاً: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً». وهذا هو ما يفسر قوله في رجل لم يحضر إحدى معاركه مع عدوه لكن كان هواه معه - إذ قال في حقه:

«فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا اقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان»^(١).

قدم عليه السلام منهجه للتأريخ فخلده التأريخ أعظم انسان بعد النبي ﷺ أكمل خطاه وسار على منهجه أروع سير فكان اسلاماً مجسداً حقاً.

(١) نهج البلاغة، ج ١٢: ص ٢١.

النتيجة:

وبعد كل هذا تبدو لنا حقيقة هامة تشكل جواباً حاسماً ضد من رأوا له عليه السلام ان يساوم الانحراف.

فانه بعد أن نلتفت إلى وظيفة الائمة عليهم السلام، وإلى الظروف المستعصية التي لم تمكنهم من اداء هذه الوظيفة بكل تفصيلاتها، وانه عليه السلام كان يرى من جهة انه يستطيع أن يقيم حقاً لقيام المحجة بوجود الناصر، ويرى من جهة أخرى أن عليه ان يؤدي رسالته للأجيال جميعاً، ويعمق في وجود الأمة العوامل التي تسد الطريق امام الانحراف الكامل والعودة إلى الجاهلية، بعد أن نلتفت لكل ذلك يتوضح لنا أن عليه أن يلتزم بتطبيق الأطروحة الاسلامية الصافية بعنوانها الأولي ولا يلتفت إلى أي عنوان ثانوي موقت - كما يريد المعترضون - لأنه سوف يعتبر - على الظن - في نظر الأجيال عنواناً أولياً، وتضيع الصورة الأولية التي أرادها الاسلام بغض النظر عن الظروف الزمكانية بالاضافة إلى عدم نفع الالتزام بالعنوان الثانوي في مجتمع يعيش ظرفاً كذلك الظرف.

وهكذا:

قدم أطروحته التي لا مساومة فيها ولا انصاف حلول ولا تأثر بنوازع معينة، اطروحته الصافية التي لا شائبة فيها، معبراً عن رأي الاسلام الواقعي في أهم مسألة حياتية وستبقى الاجيال الاسلامية تجاهد في سبيل الرجوع إلى مثل تلك الصورة المشرقة ما وسعها الجهاد.

الفصل العاشر

التغيير وانواعه.
صعوبة العملية التربوية الاجتماعية.
الإمام والتغيير.
صور من انحراف الجهاز.
الجهاز الفاسد والتغيير الحقيقي.

التغيير وانواعه:

يمكننا ان نتصور للتغير انواعا مختلفة:

فمنها: التغيير في القيادة مع ابقاء الوضع الاجتماعي على حاله.
ومنها: التغيير في شكل الوضع الاجتماعي مع بقاء جوهره السابق.
ومنها: التغيير في جوهر الوضع الاجتماعي لهدف غير انساني.
وكل هذه الانماط وأشباهاها لا نرى بأسا في أن نطلق عليهم اسم «التغيير الصناعي»، ونعني به ذلك التغيير الذي يعنى بالشكل والحجم دون العناية بالجوهر، وإذا عني بالجوهر فأنما يقوده نحو ما لم يؤهل له في ذاته... فهو عاجز عن تحقيق هدفه ولذا فهو يبقى عند المساحة السطحية للمجتمع حتى ولو خيل لقادته انه نافذ إلى العمق الذاتي والوجداني له.

وتتجه أكثر المبادئ الوضعية ان لم نقل كلها إلى هذه الاتجاهات.
في حين نجد أن الدين السماوي يتجه إلى نوع اخر من عمليات التغيير يختلف تماماً عن (التغيير الصناعي القالبى) وهو ما يمكن ان نسميه «التغيير التربوي» - بما للتربية من تطور مفهومي عند هذه الاديان - ويتلخص هذا التغيير التربوي في انه يتعامل مع واقع الجوهر المربي ويستقرئ استعداداته ويشخص الاهداف الذاتية التي يمتلكها، أو ما يمكن أن يسمى باللغة الدينية بالاهداف الفطرية، ومن ثم يعمل النظام التربوي على تحريك الدوافع والحوافز بقوة وتوازن نحو هذا الاتجاه الفطري آخذاً بعين الاعتبار مرور الكائن بمراحل مترتبة في

هذا السبيل، ومستفيداً من خاصية التكيف الفردية والاجتماعية دونما اخلال بموازين هذا التكيف.

ومن هنا قلنا ان المبادئ الوضعية تتجه للتغيير الصناعي ولا يمكنها أن تغير تغييراً تربوياً لأنها لا تتعامل مع الاهداف الفطرية للانسان، بل لم تستطع تشخيص هذه الاهداف... في حين شخّصت الاديان ذلك بدقة تتبع من علم لا محدود وراحت تغير الانسان مستفيدة من عملية التكيف الذاتي لتحقيق وصول الانسان إلى غايته التي تمثلت في (المجتمع العابد المسلم).

صعوبة العملية التربوية الاجتماعية:

ومما لا جدل فيه أن مثل هذه العملية لو أُريد لها أن تغير الفرد لاحتاجت إلى طاقات كبيرة، فكيف بها وقد أُريد لها أن تغير المجتمع وتنقي اعماقه وأغواره النفسية من كل الشوائب؟ انها تحتاج - في تصورنا - إلى قيادة مشبعة بكل تعاليم المبدأ المربي إشباعاً فكرياً وشعورياً، مسددة من كل خطأ ونقص لما لذلك من أثر هام بعيد المدى على هذه العملية، كما تحتاج أيضاً إلى وسائل نظيفة جداً بها يتم النفوذ إلى العمق الاجتماعي ويوفر الجو الذي يكيف الاستعدادات الذاتية للمجتمع مع الاهداف، هذا بالاضافة إلى أن المبدأ المربي يجب أن يقوم على مواصفات معينة ليس هنا مجال التعرض لها.

الامام والتغيير:

وتلك هي وظيفة النبي صلى الله عليه وآله والامام التربوية وتلك هي المعادلة الشاقة التي واجهها الامام امير المؤمنين عليه السلام حين تسلم قيادة العملية التربوية للامة المسلمة... فلم يكن لعلي عليه السلام أن يكتفي بتغيير القيادة أو شكل الوضع.. فكل هذه اهداف بسيطة وكلها سبل لتحقيق التغيير التربوي المطلوب.. ولكن هل يمكن

تحقيق هذا الهدف مع ابقاء الجهاز الفاسد الذي كان يحكم الامة بكل ما لديه من انحراف فكري وسلوكي وتنظيمي؟.

صورة من انحراف الجهاز:

ان الروايات التاريخية تحدثنا بما لا مزيد عليه عن هذه الانحرافات وتصور لنا الجهاز الاموي الحاكم فاسداً بكل معنى الكلمة.. سباقاً إلى اللهو والمجون في ذلك العصر الاول.

يقول المسعودي: «وكان الوليد (بن عثمان) صاحب شراب وفتوة ومجون وقتل أبوه وهو مخلق الوجه سكران عليه مصبغات واسعة»^(١) ويقول: «وكان السبب في صرف الوليد بن عقبة وولاية سعيد - علي ما روي - أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلّى بهم أربعاً، وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ وقيل: انه قال في سجوده وقد أطال، اشرب واسقني... وخطب الناس الوليد، فحصبه الناس بحصاء المسجد، فدخل قصره يترنح، ويتمثل بابيات لتأبط شراً:

ولست بعيداً عن مدام وقينة	ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكنني أروي من الخمر هامتي	وامشي الملا بالساحب المتسلسل
وفي ذلك يقول الخطيئة:	

شهد الخطيئة يوم يلقي ربه	أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم	أأزيدكم ثلاً وما يدري

(١) مروج الذهب ج ٢: ص ٣٣٢.

ليزيدهم أخرى ولو قبلوا لقرنت بين الشفع والوتر
 حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلوا عنانك لم تزل تجري»^(١)

«ولم يكن ولاية عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الاسلام، وانما كانوا متهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق ورقة الدين معروف مشهور: كان فيهم عبدالله بن سعد الذي بالغ في ايداء النبي والسخر منه، وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه»^(٢).

اما سعيد بن العاص الذي خلف الوليد فقد استقبله الكوفيون بالكراهة وعدم الرضا لأنه كان شاباً مترفاً لا يتخرج من الاثم ولا يتورع من الافك، روى ابن سعد أنه قال مرة في رمضان - بعد أن ولي مصر - : من رأى منكم الهلال؟ فقال له هاشم بن عتبة الصحابي العظيم: أنا رأيته.

فوجه اليه لاذع القول واقسأه قائلاً: بعينك العوراء رأيته؟! فالتاع هاشم واجابه: تعيرني بعيني وانما فقئت في سبيل الله؟ وكانت عينه اصيبت يوم اليرموك. وأصبح هاشم في داره مفطراً عملاً بقول رسول الله ﷺ: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته» وفطر الناس لإفطاره، وبلغ ذلك سعداً فأرسل إليه وضربه وحرق داره...^(٣).

وهكذا عبد الله بن عامر بن كريز إذ ولي البصرة وهو ابن اربع أو خمس وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والترف...

وقد قام بعد مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة وسار إلى

(١) مروج الذهب ج ٢: ص ٣٣٥.

(٢) ثورة الحسين: ص ٤١ - ٤٢.

(٣) حياة الامام الحسن: ص ٢٦٣.

مكة وانضم إلى المتمردين على الإمام^(١) وناهيك عن الحديث عن معاوية وترفه. فإذا كان ولاية الامصار الهامة هم بهذه المنزلة فماذا نتوقع من الجهاز الاداري الاصغر من هؤلاء والذي كان يضج بالتurf والفساد؟.

الجهاز الفاسد والتغيير الحقيقي:

وإذا كان الأمر كذلك فهل يمكن ابقاء هذا الجهاز الاداري المتurf السيئ الادارة الفاقد للاهداف الكبرى الذي لا يشعر مطلقاً بأنه يحمل قضية أكبر من قضية الحكم والتurf، والذي يعامل الارض الاسلامية على أنها بستان لقريش، والامة الاسلامية على أنها تعمل في هذا البستان، والاموال الاسلامية على أنها ملك طلق لبني امية؟ وهل يتوقع من مثل هذا الجهاز أن يقوم بعملية التغيير الكبرى؟ ان المنطق الرسالي التاريخي كان يتطلب من الامام عليه السلام أن يقوم بعملية التغيير متجنباً الاعتماد على هذا الاخطبوط القائم ومستغلاً الفورة الجماهيرية التي اتاحت انذاك لبدء العملية.

ولذا فقد بادر الامام عليه السلام لعزل معاوية وأمثاله باعتبار أن هؤلاء كانوا يمثلون رأس الافعى الذي يعني القضاء عليه القضاء على التحركات الجانيية... ان مثل هذا الجهاز هو المحتاج الاول للتغيير من جديد فكيف يمكنه أن يشرع بعملية التغيير الكبرى؟

إن الشرط الاول لبقاء عملية التطهير نقية في مسيرتها ولضمان استمرار تعمقها في النفوس هو طهارة الاذرع التي تمتد من خلالها الحاكم العام إلى واقع المجتمع فيغيره. ومن هنا يقول الامام أمير المؤمنين للاشتر النخعي حينما بعث له

(١) أسد الغابة ج ٣: ص ٢٨٩.

بعهده السياسي الهام:

«ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة، فانهم أعوان الأثمة، واخوان الظلمة، وانت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على آثمه، اولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلفاً.... ثم الصق بذوي المروءات والاحساب واهل البيوتات الصالحة والسوابق المحسنة... ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة، فانهما جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام المتقدمة»^(١).

وقد تحدثنا في خطي الامام للاصلاح الاداري في الأبحاث الماضية. انه عليه السلام كان يخطط للتغيير بأيد نظيفة ذات سابقة حسنة تتمثل فيها عناصر: «الاخلاص للقضية الكبرى، والتضحية في سبيلها، والوعي الديني والاداري المطلوب» وهذه أمور لم تكن لتتوفر في الجهاز القائم عند تسلمه الحكم، ولذا فقد أعلن التطهير الشامل لهذا بقوله عليه السلام: «ولكني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها».

وهنا يتضح انه لا مجال مطلقاً لأن يطلب من الامام أن يبقى هذا الجهاز قائماً ثم يشرع بعملية التغيير ويقوم في الاثناء بحذف هذه العناصر الملوثة من العملية التغييرية الكبرى... فانه يتنافى مع المنطق السياسي للتاريخ كما يتنافى مع المنطق الرسالي الذي كان فوق كل شيء عند الامام امير المؤمنين عليه السلام.

الفصل الحادي عشر

الربح المحتمل.

دهاء معاوية.

القآمر الأموي الواسع.

تصرفاته وشعاراته.

بعض الخسائر.

تحدثنا من قبل عن بعض مبررات موقف الامام أمير المؤمنين عليه السلام من معاوية واذنابه، ذلك الموقف الصارم الذي لا مساومة فيه، وها نحن نختم حديثنا عن هذا الموقف بذكر الحقيقة التالية:

الربح المحتمل:

ان ما يمكن ان نتصوره من ربح لمهادنة الامام عليه السلام لمعاوية وأمثاله يقتصر على احتمال سكون الشعبان الأموي ورضوخه لسلطان الامام الشكلي، وتقليله من فعالياته المخالفة للاسلام وتحويل نشاطه إلى شكل سري وتخطيط آخر يختلف عما هو عليه قبل المهادنة... وهذه الهدنة ستتيح للامام الفرصة للقضاء على أعدائه بالتدريج وتصفية بؤرهم وتنفيذ أطروحاته في نهاية الأمر وهي أطروحة الاسلام الحنيف السليم من كل شائبة.

إلا أن هذا الاحتمال ضعيف جداً بل يكاد الواقع التاريخي يضع امام من له أقل خبرة به الأدلة التي تجعله مستحيلاً فتتوافر القرائن التي تثبت ان هذا الأمل ما هو إلا حلم لا غير.

ويمكننا أن نصنف أهم القرائن إلى مجاميع ثلاثة أو ندرجها ضمن أطر ثلاثة

عامة وهي:

١ - دهاء معاوية.

٢ - التأمر الأموي الواسع.

٣ - تصرفات معاوية وتصريحاته وشعاراته.

فلاحظ هذه القرائن بشيء من التفصيل، ونلاحظ هل من الممكن مع وجودها أن نتصور تحقق هذا الهدف أو حتى 'على الأقل' ستكون معاوية وقبوله الانضمام ولو شكلياً إلى دولة الامام عليه السلام واثماره إلى حد ما بأوامره وتنازله عن بعض خططه؟.

دهاء معاوية:

ولعله من نافلة القول التحدث عن هذا الدهاء والمظاهر المثبتة له، فان مما لا ريب فيه ان معاوية الذي كان على رأس المخطط الأموي قد استعمل أدهى الوسائل في سبيل تحقيق أهدافه، حتى 'ذهبت' «شعرة معاوية» مثلاً بين العرب، فاذا سلمنا بدهاء معاوية ونظريته المصلحية النافذة للمجتمع الاسلامي آنذاك... أمكننا أن نتصور معاوية عارفاً بالمعادلة القائمة حينئذٍ، ومدركاً ان الفرصة الآن هي اسنح له من أي وقت آخر.

فانه من جهة لا يستطيع مهما ضغط على جهازه أن يساير علياً عليه السلام، وإذا هادنه علي عليه السلام فانما ذلك لضرورة ملحة، وستنتهي هذه الهدنة حتماً متى رأى الامام أقل مجال لانهاؤها.... بل سيعمل الامام عليه السلام لتصفيته وافناء قواعده، لأنه يعرف الامام جيداً، ويعي مدى بعد نظره واخلاصه في نفس الوقت.

وهو من جهة أخرى يجد الفرصة سانحة جداً لضرب الخط الاسلامي الصحيح، وتحريك خط ضده برفع شعار ديني يتصل إلى حد ما به - كأموي - وقد تجرأ جزء من الأمة فثار على الخليفة الذي شكل حلقة الوصل بين الأمة وبني أمية، مما قد يفسح المجال لشيخ أمية أن يرفع شعار المطالبة بدمه بعد أن يمهد لذلك بتعظيم المصيبة واثبات الظلم الواقع على المركز الرفيع... ومن ثم يوجه انتقاده المر

إلى الخليفة الشرعي عبر انضمام قادة ذلك الجزء إلى دولته وعدم سعيه لضربهم. ثم إن معاوية يعلم بدقة أنه يستطيع أن يستغل النفعيين الذين لن ينسجموا مع الامام قطعاً، ولن تعجبهم تصرفاته الجذرية... فما عليه إلا أن يحركهم لضرب الأمة ببعضها واشعال الفتنة من الداخل مما يفسح له المجال للاستفادة من هذا الضعف.

فإن المؤرخين يذكرون أن معاوية حينما جاءه كتاب الامام يطلب منه البيعة بعث رجلاً من عميس، ومعه كتاب إلى الزبير بن العوام يقول فيه: «لعبد الله أمير المؤمنين الزبير بن العوام، من معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك، أما بعد فاني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك اليها ابن أبي طالب، فانه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة من بعدك فاطهر الطلب بدم عثمان، وادعُ الناس إلى ذلك وليكن منكما المجد والتشعير أظفر كما الله وخذل مناوئكما وخصمكما. وأضاف الراوي إلى ذلك: لما وصل الكتاب إلى الزبير سرَّ به وأخبر طلحة وأطلعه عليه فلم يشك في نصح معاوية لهما»^(١).

هذا النص وأمثاله يوضح أن التحريك الأول لفتنة البصرة العمياء التي شاركت فيها عائشة أم المؤمنين فأشعلتها لعنان السماء، وذهبت الألوف ضحاياها، وتمزقت الأواصر، هذا التحريك كان معاوية في مطلعه ومنشئه. كما أن معاوية يعلم أنه يستطيع أن يشتري الكثير من الضمائر بالمال والوعود.. وخير مثل على ذلك ضمه عمرو بن العاص إلى قبيله بعد أن مناه مصر وغيرها.

(١) سيرة الائمة ج ١: ص ٤٠٠ نقلاً عن شرح النهج.

وان التاريخ ليحدثنا الكثير عن أساليب الاغراء التي استعملها وكيف اشترى ودّ زعماء القبائل حتى بعض الزعماء الذين كانوا يعيشون تحت كنف الامام عليه السلام.

يقول طه حسين: «وقد ورث معاوية عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته كذلك، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكراً للإسلام وبغضاً لأهله وحفيظة عليهم... كان مستأنياً بعيد الاناة وكان متحفظاً شديد التحفظ....»^(١). فإذا عرفنا ذلك الدهاء، لم يصعب علينا أن نقبل أن معاوية أدرك عواقب الأمور واسرع يستغل الفرصة السانحة التي ستتحدث عنها أكثر فيما يلي:

التخطيط الأموي الواسع الابعاد:

لم يكن معاوية - كما يبدو من مختلف النصوص ومن تتبع الأحداث - ليعمل لحسابه الخاص وطموحه الشخصي فحسب، وإنما كان جزءاً من تأمر واسع لفئة، أو قل لحزب مخطط شكل امتداداً مخرباً لحزب قوي جاهلي مقاوم للدعوة الاسلامية.

ذلك هو الحزب الأموي الذي كان رأس الحربة في مرحلة الكبت القرشي للدعوة الاسلامية وفي مرحلة مقاومة التوسع الاسلامي العارم.. ولكن ما ان اذن الله للإسلام أن ينتصر وللكفر أن يندحر، حتى رأى أنه لا مفر من الاستسلام - على مضض وكره - وطمع في المستقبل. كل ذلك تحت قيادة الداهية «أبي سفيان بن صخر».

ونحن نكاد نجزم بأن أبا سفيان هذا لم يجد فرصة التخطيط عندما كان

(١) علي وبنوه: ص ٥٦ - ٥٧.

الرسول القائد ﷺ حياً، فقد اذهلته المفاجأة ولم تترك له الأحداث صواباً. لكنه بدأ التفكير مباشرة بعد وفاته ﷺ لكي يجهز على المكاسب الاسلامية أو قل ليحتويها لصالحه...

هذا وان التاريخ ليكشف لنا في مطلع الأمر عن لمحات من هذا المخطط.. ثم تبدأ اللمحات بالتكثف والتكشف أكثر فأكثر.

فانه ما إن رأى أبو سفيان ما حدث بعد السقيفة وعلم انه يمكن الاستفادة من هذا الصدع الذي نجم نتيجة عدم الاهتمام الكامل بوصية النبي ﷺ المتكررة، حتى راح يشعل النار ضراماً، ويذكيها شعواء تأكل الوجود الاسلامي النامي... وكان هذا الوضع هو الذي دعا الامام ﷺ لأن يتخلى عن المطالبة بحقه الالهي.... فلم يرق لأبي سفيان ذلك وانما توجه إلى الامام وقال: «اني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، يا آل عبد مناف، فيم أبو بكر من أموركم؟ اين المستضعفان؟ أين... علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش؟ ثم قال لعلي ﷺ: أبسط يدك ابايعك فوالله لئن شئت لا ملأناها عليه خيلاً ورجلاً، وتمثل بشعر...».

إلا أن الامام ﷺ أبطل الخطة الأموية لأنه كان يعرف دوافعها فقال: «والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وانك والله طالما بغيت للاسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك»^(١).

وحينما وجد أبو سفيان انه المخطئ في الحساب راح يتقرب إلى الحكم ويأمر أتباعه بالنفوذ إلى المواطن القيادية، فعاد هو والياً على ما بين آخر حد للحجاز وآخر حد من نجران، وصار ولده يزيد والياً على الشام. ومن هنا بدأ التركيز على صعيدين:

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢: ص ٣٢٦، دار الفكر.

صعيد عام: وهو النفوذ إلى معاقل الدولة. وآخر خاص: وهو التركيز على الشام لتكون منطلق الحركة المضادة الغاصبة للوجود الاسلامي. وكان عهد عثمان أسنح فرصة لهم للتغلغل حيث احتلوا أهم المناصب وبدأت الأموال تدر عليهم فتشدد من أزر جهودهم.

وكان أوضح تعبير عن المؤامرة الأموية تلك القولة التي قالها أبو سفيان حينما ركل قبر حمزة برجله وقال: «يا أبا عمارة... ان هذا الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف امسى في يد غلماننا يتلعبون به». ثم يعلن بعد ذلك [في موضع آخر أي عند دخوله على عثمان وهو أعمى]: «اللهم اجعل الأمر أمر جاهلية، والملك ملك عاصبية واجعل أوتاد الأرض لبني أمية»^(١).

إلى ما هناك من القرائن الدالة على بعض جيوب المؤامرة. على اننا نستطيع أن نستكشف المؤامرة من نتائجها التي حولت الخلافة الاسلامية إلى ملكية فتوية طاغية بعد أن رأت مطامعها لا تقف بها عند حد تسنم المركز، ورأت أن الخليفة عثمان نفسه ليس بالذي يحقق تلك الأطماع بتمامها، ولذلك فقد أبطأ معاوية عن نصرته حين حوصر في المدينة - بشهادة المؤرخين - وتركه تحت رحمة الثائرين... ثم أسرع يذرف دموع التماسيح عليه رافعاً قميصه محرّضاً ومفرّقا وزارعاً للاشواك في طريق الحق.

تصريحات معاوية وتصرفاته وشعاراته:

وكل تصريحات معاوية وتصرفاته وشعاراته تنبئ عن انه لم يكن ليبيع الامام عليه السلام لو انه ابقاه.

(١) مختصر تاريخ ابن عساکر ج ١١: ص ٦٧.

انه يرفع شعارات الطلب بدم عثمان وقتل قتلته، ويتهم أكثر أصحاب الامام عليه السلام وقادته بذلك، فهو اذن يطلب أن يفرغ الامام طاقته العسكرية وعدته الواعية، ويخلقها حرباً شعواء تدع الأمة في أكبر تناحر حتى يسلم له... وهل هذا إلا طلب المحال؟

فهو يكتب للامام - من كتاب له مليء بالتهم والتحريض - قائلاً: «وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنينا: ايواؤك قتلته فهم عضدك ويدك وانصارك، وقد بلغني انك تتنصل من دم عثمان وتتبرأ منه، فان كنت صادقاً فادفع الينا قتلته كي تقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس اليك، والا فليس بيننا وبينك إلا السيف، ووالذي لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال...»^(١).

وقد تكرر تعبير معاوية في كتبه للامام عليه السلام بأنه «ليس لك ولأصحابك إلا السيف» فيرد الامام عليه السلام عليه بقوله: «وأما ما ذكرت من انه ليس لي ولأصحابي إلا السيف فلقد أضحك بعد استعبار...».

ومن العلائم البارزة أن معاوية كان يحاول بكل وسيلة أن يوهم العامة أن المقام الذي يمتلكه انما هو حق طبيعي وكرامة الهية من الله بها عليه. وهي نعمة رأيناها بعد ذلك تتجلى في تصريحاته وتصريحات ولده يزيد وعامله ابن زياد وغيرهم، على أساس أن الخلافة حق طبيعي لبني أمية وان الثائرين اناس قتلهم الله تعالى وذلك لايهام العامة، وتمرير المخططات الظالمة من خلال ذلك.

فهو يقول في خطبة له بحضور مندوب الامام عليه السلام الذي جاء يأخذ البيعة: «... غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جابو الصدى

(١) أنساب الاشراف ج ٢: ص ٢٧٨ تحقيق المحمودي.

وسقط الندى وعرف الهدى، حملهم على خلافنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم. ثم يمضي مستعرضاً ما يؤهله لهذه (الكرامة): أيها الناس قد علمتم اني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واني خليفة عثمان بن عفان عليكم...»^(١).

والملاحظ انه يقول هنا انه خليفة عمر وعثمان على الشام، ولكنه في رواية أخرى يقول: «قد علمتم اني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان وقتل مظلوماً وقد تعلمون اني وليه...»^(٢) مما يلوح منه انه يمهّد ليعلن نفسه خليفة للمسلمين بأسلوب ماكر. بعد أن يجعل نفسه امتداداً للخلافة وكان ذلك أسلوباً واضحاً تجلّى في كثير من تصرفاته. فحين قدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب على معاوية بالشام، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص فقال:

«يا عمرو ان الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدم عبيد الله بن عمر وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على علي بقتل عثمان وينال منه». وبعد أن التزم عبيد الله بتحقيق ما طلبه منه معاوية وخرج من عنده قال معاوية: «اما والله لولا قتله الهرمزان، ومخافة علي نفسه ما أتانا ابداً، ألم تر إلى تقرضه علياً؟ (وكان عبيد الله قد مدح علياً ضمن تعهده باتهامه) فقال له عمرو: يا معاوية ان لم تغلب فأخلب»^(٣).

ومن هنا فقد بدأ النفعيون يخاطبونه بلقب (أمير المؤمنين) فقد أقبل الحجاج بن الصمّة على معاوية وناداه بخطاب أمير المؤمنين^(٤).

وهنا يعلق ابن أبي الحديد بقوله: ولم يخاطب معاوية بأمير المؤمنين قبلها.

(١) نصر بن مزاحم، صفين ج ١: ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق: ص ٨١.

(٣) المصدر السابق: ص ٨٣.

(٤) المصدر السابق: ص ٧٨.

وهذا مالك بن هبيرة الكندي - وهو رجل من أهل الشام - يقول: يا أمير المؤمنين....^(١).

وراح شعره ينتشر بين الناس وهو يؤكد انه يريد الخلافة لا غير:
فان يجمعوا أصدم عليا بجمهة تفت عليه كل رطب ويابس
واني لارجو خير ما نال نائل وما أنا من ملك العراق بآيس^(٢)
وكان من شعاراته الخداعة: دعوة الناس لاعادة الخلافة شورى من جهة
واخراج المهاجرين والأنصار من حساب الشورى لأنهم خرجوا عن حدودهم،
والتركيز على 'نظافة يد الشاميين فهم وحدهم أهل الحق في الانتخاب'.
يقول الحسيني في سيرته: «ان اطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على
أحد، ولم يكن الجيش الذي أعده وهياه إلا ليحارب من يتولى الخلافة كائناً من
كان، ولو قدر لطلحة والزبير ان يربحا معركة البصرة ويتولى أحدهما الأمر لوقف
منه نفس الموقف الذي وقفه من علي عليه السلام، وفي الوقت ذاته كان يأتي إلى علي عليه السلام
يستنهضه عليهم لاثارة الفتنة كما جاء أبوه إلى أمير المؤمنين عليه السلام يوم بايع الناس
أبا بكر. لقد كان يضلل الناس بدعوته إلى اعادة الامر شورى بين المسلمين بعد ان
يقتص من قتلة عثمان. وبلا شك فان الشورى التي يدعو اليها معاوية لا تعود إلى
المهاجرين والأنصار من اهل الحجاز والعراق عنده، لأن الأمر قد خرج من
أيديهم على حد زعمه كما يبدو ذلك من بعض رسائله إلى أمير المؤمنين حيث جاء
فيها: وقد أبى الناس إلا قتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان، فان فعلت كانت شورى
بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم المحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقه

(١) المصدر السابق: ص ٨٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٣.

كان الحكام على الناس أهل الشام»^(١).

وقد كشف الامام عليه السلام عن نوايا معاوية بعد ان كتب إليه مبعوثه إلى الشام جرير بن عبد الله يخبره أن معاوية قال له: اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية، فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي واسلم له هذا الأمر وكتب إليه بالخلافة. وبعث بكتاب معاوية مع كتابه، فأجابه عليه السلام:

«أما بعد فانما أراد معاوية الا يكون في عنقه بيعة وان يختار من أمره ما أحب وأراد أن يرثك حتى يذوق أهل الشام، وان المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي ان استعمل معاوية على الشام وانا بالمدينة فأبيت ذلك عليه ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضداً...»^(٢).

وقد أدرك أركان معاوية موقف الطرفين تماماً فكتب الوليد بن عقبة شعراً إلى معاوية جاء فيه:

فحاربه ان حاربت حرب ابن حرة وإلا فسلم لا تدب عقاربه
فان علياً غير صاحب ذيله على خدعة ما سوغ الماء شاربه^(٣)
وبعد:

فليس هناك أي ريب في ان الامام لم يكن يضمن حتى بيعة معاوية لو ابقاه على الشام فضلاً عن كونه يضمن بوائقه ومؤامراته.

ينقل السيد الحسيني عن الاستاذ عبدالفتاح عبد المقصود قوله: «ان الناظر إلى سياسة علي عليه السلام حيال ولادة عثمان ليعلم مدى صوابه حين أبي الا خلعه وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله، ويعلم أيضاً أنه كان نافذ البصيرة مؤمناً

(١) سيرة الائمة الاثني عشر ج ١: ص ٤٢٤.

(٢) صفين: ص ٥٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٥٣.

باستجابة البلاد كلها له. وها هو الزمن قد أثبت فراسته فجاءته الطاعة من كل اقليم. أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لأنها في قبضة رجل مفتون بالسلطان، إقراره عليها وعدم اقراره سواء بسواء، لن يسفر إلا عن تمرد لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي وقع في كف غريمه».

ثم يقول: ولعله لو أثبتته الامام في حكم الشام لوسعه أن يبدو في أنظار الجماهير اقوى منه في حالة العزل، لأنه يستطيع أن يقول للناس: انه يأبى البيعة لمن ولاه ولا يعتبرها إلا ثمنا يشتري أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان^(١).

وقد نقل طه حسين كتاباً من معاوية إلى الامام عليه السلام بعثه مع أبي الخولاني ثم علق عليه قائلاً: «وأنت ترى من كتاب معاوية انه لم يكن يريد سلماً ولا عافية وإنما كان يريد ان يعذر نفسه عند أصحابه من أهل الشام، وعند المترددين والمتأثرين منهم خاصة. فطالب السلم والعافية لا يكتب إلى خصمه ليؤذيه ولا ليحفظه ولا ليغيضه ويثير في نفسه الموجدة والشنان...»^(٢).

النتيجة:

نستنتج مما سبق ان افتراض ركون معاوية إلى البيعة لو أقره الامام عليه السلام افتراض غير منسجم مع الأحداث التي تبدو لكل بصير... أما مسألة التوسيط والمساومة فلم تكن إلا اسلوباً من أساليب معاوية لكسب الوقت من جهة واتخاذ جانب المظلوم إلى جنب الظلامة العثمانية الكبرى التي رفع شعارها وأغرى بها الكثيرين حتى يومك هذا.

هذه هي قيمة الربح المحتمل فهل يقاس إلى الخسارة التي ألحنا إلى بعض حلقاتها من قبل؟

(١) سيرة الائمة: ج ١: ص ٣٩٨.

(٢) علي وبنوه: ص ٦٦.

بعض الخسائر:

ويمكن أن نلخصها هنا فيما يلي:

- ١ - امضاء الظلم واتخاذ المضلين عضداً، بل وامضاء الاطروحة الأموية اللاإسلامية.
 - ٢ - اضاعة فرصة التربية القيادية - رغم قصرها - عن طريق استعمال أسلوب المساومات.
 - ٣ - اضاعة الفرصة المتاحة للقضاء على أعداء الاسلام الصافي السليم بالتفريط بحالة يقظة الأمة الثورية.
 - ٤ - ان موقفه سيؤدي إلى فقدان الرؤية الواضحة للاطروحة الصحيحة.
- إلى غير ذلك من المضار الكبرى التي اعتبرها الامام عليه السلام الكفر بعينه. فكان موقفه السياسي هذا أوعى وانظف موقف يمكن أن يتخذه قائد معصوم.

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
كلمة المجمع	٥
مقدمة	٧
القسم الاول	
مقومات الشخصية القيادية	٢١
الفصل الاول - اهم مقومات الشخصية القيادية	٢٣
اهم مقومات الشخصية القيادية	٢٥
لماذا ندرس هذه المؤهلات	٢٨
الامام الرضا <small>عليه السلام</small> يصف الامام	٣١
الفصل الثاني - لماذا التفضيل	٣٥
الاطار السامي للعمل الانساني	٤٠
الف - الاخلاص	٤٠
ب - العقائدية	٤١
ح - الواقعية	٤٢
د - الانسجام والتلاؤم بين كل انواع السلوك بما يحقق وحدة سلوكية	٤٣
الفصل الثالث - المنهج التجزيئي والمنهج الشمولي	٤٥
خطان متميزان في مجال دراستهم <small>عليهم السلام</small>	٤٧

٢٧٨	من حياة أهل البيت عليه السلام
٤٨	المنهج التجزيئي
٤٨	العقلية الفردية
٥٠	الاعتراض على العرض التجزيئي
٥٣	المنهج الشمولي
٥٤	الاستهداء بالسنة
٥٦	مستوى الصورة الفردية والواقع
٥٩	الفصل الرابع - الدور الاجتماعي الكبير لهم عليه السلام
٦١	ظاهرة القتل والسم
٦٩	الفصل الخامس - عنصران ضروريان لتحقيق مقومات المنهج الشمولي
٧١	الف - عنصر الكلمة
٧٤	ب - عنصر الاستنباط
٧٦	يد التحريف السوداء
٧٨	الف - المنافقون والمخضرمون
٧٨	ب - المتدينون الحرفيون
٧٨	جانبا الافراط والتفريط
٨١	في الظلام تتساوى الاشباح
٨٢	الخلافا الفكري والصراع العملي
٨٥	الفصل السادس - قواعد البحث المنطقية
٨٨	قواعد البحث المنطقية ومدى تطبيقها
٨٩	الف - تحديد مركز البحث
٩٠	المثال الاول - التقية بين الاثبات والنفي
٩٧	التطبيق الدقيق وشبهة الاختصاص

محتويات الكتاب.....	٢٧٩
المثال الثاني - حب اهل البيت وآثاره العملية	٩٨
الربط بينه وبين الحقيقة الكونية للحب.....	٩٩
نماذج من الحب في الكون.....	١٠١
ضوابط ضرورية للحب.....	١٠٣
نقطة الخطأ.....	١٠٨
المثال الثالث - قضية الامام المهدي عليه السلام.....	١١١
المهدي من المسلمات الاسلامية.....	١١٢
القسم الثاني	
موقف الامام علي عليه السلام من معاوية.....	١٢٣
الفصل الاول - الموقف السياسي لأهل البيت عليهم السلام.....	١٢٥
ماذا نعني بالموقف السياسي.....	١٢٧
الدليل العملي على ذلك.....	١٣٠
لا يمكن فصل الموقف السياسي عن باقي المواقف.....	١٣١
الخطوط العريضة للموقف السياسي.....	١٣٣
الفصل الثاني - الموقف من معاوية وظاهرة عدم تقبل انصاف الحلول.....	١٣٧
شبهة واعتراض قديم.....	١٤١
نصوص تاريخية مرتبطة بالموقف.....	١٤٢
البحث عن عناصر الموقف.....	١٤٦
الفصل الثالث - الجو الصالح لتطبيق الاطروحة الاسلامية.....	١٤٧
١ - المهمة الكبرى.....	١٤٩
٢ - ابعاد الحكم الامثل.....	١٥١
٣ - عدة الاطروحة.....	١٥٢

٢٨٠ من حياة أهل البيت عليه السلام
١٥٤	٤ - اهم مقومات التربية الاجتماعية
١٥٩	الفصل الرابع - الفرصة المناسبة لاصلاحات الامام امير المؤمنين عليه السلام
١٦١	الاقبال الفردي والاجتماعي
١٦٣	من القرآن الكريم
١٦٥	مع موقف الرسول الاكرم
١٦٦	المهمة التي تنتظر القائد
١٦٧	الانحرافات والمصالح اجبت نار الثورة
١٦٩	الحالة الحماسية للامة عند البيعة
١٧١	تأجيج الحماس أو إخماده
١٧٥	الفصل الخامس - غرس الهدفية والالتزام الثقيل في قلب الحماس
١٧٨	غرس الهدفية والالتزام الثقيل في قلب الحماس
١٧٩	الف - الامتناع
١٨٠	الرفض لم يكن مطلقاً
١٨٤	ب - خطب الامام تبني الانسانية الواعية الملتزمة
١٨٥	الانسان الواعي من هو
١٨٦	خطب الامام تحدد مركز الانسان وتوضح هدفه
١٩٠	المسؤولية العظمى
١٩١	المقياس الصحيح
١٩٢	الاطار العام لاداء المسؤولية
١٩٣	الموقف في الشبهة
١٩٥	الدخول المجموعي في الاطار
١٩٩	الفصل السادس - الاستثمار السريع

محتويات الكتاب.....	٢٨١
اهم مجالات الاصلاح الاجتماعي.....	٢٠٢
المشكلة المالية.....	٢٠٧
ضد البخل والترف.....	٢٠٩
التزهيد بالدنيا.....	٢١٠
المساومة الفاشلة.....	٢١٠
الدقة في التوزيع.....	٢١١
الفصل السابع.....	٢١٣
مقياس تعيين الموظف.....	٢١٦
١ - الكفاءة والقدرة الشخصية.....	٢١٦
حسن السابقة والسمعة بين الناس.....	٢١٧
العدالة والورع.....	٢١٧
المناقبية الاسلامية.....	٢١٨
المثل الاعلى.....	٢٢٠
مبدأ المراقبة الدقيقة.....	٢٢١
الفصل الثامن - التذكير بدور الأئمة من اهل البيت <small>عليهم السلام</small>	٢٢٧
دور الامة في ضوء تعاليم الاسلام.....	٢٣٠
الموقف الحازم للامام.....	٢٣٨
الفصل التاسع - اطروحة الامام تتجاوز عصره.....	٢٤١
الظرف غير المساعد.....	٢٤٤
الوعي فوق الصمود.....	٢٤٩
هدف علي من الخلافة.....	٢٤٩
نتائج العهد.....	٢٥٠

٢٨٢ من حياة أهل البيت عليه السلام
٢٥١ تعميق الاسلام في الامة يعيق الانحراف
٢٥٢ الامام يتعامل مع المسيرة المؤمنة عبر التاريخ
٢٥٦ الفصل العاشر - التغيير وانواعه
٢٥٨ صعوبة العملية التربوية الاجتماعية
٢٥٨ الامام والتغيير
٢٥٩ صورة من انحراف الجهاز
٢٦١ الجهاز الفاسد والتغيير الحقيقي
٢٦٣ الفصل الحادي عشر - الربح المحتمل
٢٦٦ دهاء معاوية
٢٦٨ التخطيط الاموي الواسع الابعاد
٢٧٠ تصريحات معاوية وتصرفاته وشعاراته
٢٧٦ بعض الخسائر
٢٧٧ محتويات الكتاب